ثورة تقفيل مصري

عن أنيميا ثورة يناير

مقالات



د. أحمد يوسف شاهين

دار ليلى
كيان كورب

ثورة.. "تقفيل مصري"!

(عن أنيميا ثورة يناير)

أ. د. أحمد يوسف شاهين

الكتاب:

ثورة تقفيل مصري

المؤلف:

د. أحمد يوسف شاهين

رقم الإيداع:

21002 /2011

الترقيم الدولي:

978-977-6836-70-9

★★★

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

★★★

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

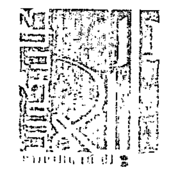
هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)

الموقع الرسمي: www.darlila.com البريد الإليكتروني: mail@darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

د. أحمد يوسف شاهين

ثورة تقفيل مصري



إهداء

إلى أسرتي الحبيبة.. أبي وأمي وأختي الذين لا بد أن "جيناتهم الوراثية" سوف تتقافز في سعادة عند ظهور هذا العمل إلى النور..

إلى زوجتي الحبيبة التي تحملت شرودي لساعات طويلة بسبب صياغتي لأفكار هذا الكتاب..

إلى أصدقائي الأعزاء أيمن علي نصار.. أكرم ثابت.. ومحمد محمود فتح الله لمساهمتهم الفكرية في النقاش حول موضوعات "مصر وقانون اشمعنا.. وجبروت صاحب الكورة".. "الفتنة: دمتم ثائرين".. و "ألوان من التحرير" على الترتيب!

إليك عزيزي القارئ.. لو كنت من الثوار أو الفلول أو حزب الكنبة.. أو خلاص زهقان منهم!

مقدمة

"مصر على فين؟"..

صرخة أطلقها المستشار جودت الملط في برنـامج "الحيـاة اليـوم" علـى الهواء مباشرة.. أسابيع قليلة بعدما بدأ اللغط الثوري الذي كان مقدمة لإصابة الثورة بالوهن..

* * *

فكما أظهـرت "ثـورة ينـاير" أفـضل مـا في الـشعب المـصري مـن نبـل وتضحية ووعي جماهيري رائع ورفض للظلـم.. كـذلك جـاءت فـترة مـا بعـد الثورة لتكشف عن أزمـات الفكـر والـسلوك والـضمير لـدى المـصريين.. الـتي نجحت – ضـمن عوامـل أخـرى – في إصـابة الثـورة بالأنيميـا أو فقـر الـدم.. فأصبحت الثورة كأنها "منتج" عظيم "على الورق".. لكنه ساعة "التقفيل" فقد الكثير من كمال أدائه المنتظر.. وصارت "ثورة.. تقفيل مصري"..

هذه الأزمات التي يجب علينا أن نلم بها.. لنتوقف عن السير في المتاهات.. ولنكسر الدائرة المغلقة التي ندور فيها من بعد التنحي في 11 فبراير..

من أجل ذلك.. ومن أجل غد أفضل.. تصبح فيه إجابة سؤال سيادة المستشار بكل ثقة هي: "على كل خير".. كان هذا الكتاب..

د. أحمد يوسف شاهين - سبتمبر 2011

الباب الأول

عن الأنيميا والتمصير..
والفلول والثوار..
وأنا وأنت!

عن "أنيميا" ثورة مصر..
الأسباب والأعراض والعلاج!

أصيبت الثورة المصرية بـ"الأنيميا" وهي – علميًّا – تعني فقر الدم.. هذه لها أسباب وعوارض ومظاهر.. تعوق تقدم مسيرة الثورة وتؤدي إلى تعطيلها.. وبالطبع فالعلاج يكمن في إصلاح هذه الظواهر عن طريق تعديل سقف أحلامنا.. والارتكاز على أعمدة مهمة.. نرفع بها هذا السقف إلى أعلى ما يصل إليه..

نحاول التعامل مع الثورة هنا بمنطق الأطباء – وكاتب هذه السطور منهم – الذين يبحثون عن سبب المرض.. وهدفهم وعينهم على العلاج.. لا بد أنهم بعد "فحص مصر" سيوجزون مظاهر وأعراض "أنيميا الثورة" كما يرونها فيما يلي:

أهم هذه الأعراض تتمثل في تراجع معدل سرعة التغيير.. فبعد سقوط رأس النظام الذي جاء "بخلع الضرس".. وإقالة عدد كبير من الوزراء والمسئولين وبدء محاكمات عدّة للفساد.. تباطأت التغيرات على الرغم من استمرار حدوثها.. عرض آخر تمثل في الانفلات النفسي بإطلاق الشائعات وتخوين التيارات المختلفة لبعضها..

والانفلات الأمني.. الذي ضاعف من أثره غياب الشرطة كليًا ثم جزئيًا.. عرض ثالث تمثل في حالة عدم التصديق التي أصابت قطاعًا عريضًا من الشعب المصري.. ألف المعيشة تحت نيران النظام السابق.. وتراوح ذلك بين البسطاء الشرفاء.. الذين لم يستوعبوا الأمر.. وهم السواد الأعظم ونتعرض لهم بالتفصيل في هذا الكتاب.. وبين الذين تعودوا على غياب العدل والديمقراطية ممن لا يزالون في مواقع المسئولية في المؤسسات المختلفة.. وهؤلاء يتعاملون بنفس الصلف والتعنت القديمين.. لا يصدقون أنه حدثت ثورة.. ويلعنونها سرًا وعلانية.. ويحتقرونها ويربطون بينها وبين "سوء الأدب" و"فقدان الاحترام".. وينفصلون بأفكارهم وتوجهاتهم عن مرءوسيهم ذوي المظالم المشروعة.. وبين "المخدوعين" الذين يقعون في موقع متوسط بين السواد وبين مجموعة المسئولين الذين ذكرنا أنهم ممن لا يصدقون أنه حدثت ثورة.. هؤلاء "المخدوعون" لا يرون في النظام السابق سوى مبارك.. ويحسبون أن هذا كله كان ضد شخصه.. تختلط عليهم عوامل تقدير السن الطاعنة والاحترام للكبير.. ويصدقون ما روج له النظام السابق من خلال إعلامه بأن "الريس كويس.. بس اللي حواليه همَّ اللي وحشين".. وكانت السينما المصرية قد روجت لذلك في أحد أشهر أعمالها جماهيريًا في السنوات الأخيرة.. وهو فيلم "طباخ الريس"..

يغمض هؤلاء "المخدوعون" أعينهم في استفزاز عمَّا آلت إليه البلاد في عهده من تحولها إلى هامش الأمم.. وعن جرائم النظام التي تمت تحت سمعه وبصره.. وعن حقيقة أن الثورة كانت ضد "نظام كامل" وليس فرد بعينه.. وعن دم الشهداء

الذي راح في سبيل ذلك.. وعن الفساد الذي ملأ ربوع مصر حتى صار هو القاعدة.. وعن العدل الذي لا يعرف "ولا يجب أن يعرف" منصبًا ولا سنًّا ولا جاهًا..

أدت هذه الأعراض الثلاثة: تراجع معدلات التغيير.. والانفلات النفسي والأمني.. وعدم التصديق أو الاستيعاب.. إلى استفحال "أنيميا الثورة".. فظهرت مضاعفاتها التي تمثل أهمها في عدم إحساس المواطن البسيط بـ"التغيير".. وهو الذي يعبر عنه بقوله: "وإحنا خدنا إيه من الثورة؟".. يقولها ولا يقصد بها فقط أن ينفي إحساسه بالمكاسب.. بل يقولها ليؤكد زيادة المشاكل من تعطل الحالة الاقتصادية.. خاصة لمن يعمل بالأجرة اليومية من عمال بالقطعة.. وعاملين في السياحة وغيرها.. وتعطل المنظومة الأمنية.. و زيادة انتشار البلطجة مع شيوع شعور عدم الأمان.. يقولها في ضيق ويأس وهو يكاد يلعن أعظم ثورة في التاريخ! !

لكن الطبيب بعد أن ينتهي من تحديد الأعراض.. لا بد أن يعدل من وضع نظارته على أنفه.. ربما "يهرش" في رأسه قليلاً ويبدأ في تحديد أسباب "أنيميا الثورة".. ولا بد ساعتها أنه سوف يجد نفسه يخبر مصر بالآتي (بصفتها تحمل "صلة قرابة" للمريض ويهمها أمره):

الأسباب متنوعة.. لكن معظمها يتعلق بصفات سلبية في طبيعة الشخصية المصرية تكاد تكون كلها من غرس النظام السابق.. وامتدادًا لقبضته الظالمة على البلاد لعقود ثلاثة مظلمة في تاريخ مصر.. ونسوق أهمها فيما يلي:

أولاً: فقدان المرجعية في الحوار.. وعدم القدرة على التركيز على الأهم فالمهم.. فيما عبرنا عنه في كتاب سابق هو "خلع ضرس مصر.. تأملات في مقدمات وتفاعلات الثورة".. ورمزنا له بتعبير "التركيز على الرجل وراء الفكرة وليس الفكرة"..

ثانيًا: انفصال مصلحة الوطن عن مصلحة الفرد.. وهو أمر أدى مثلاً إلى شيوع الاعتصامات الفئوية بعد الثورة.. وبعضها مبالغ في أهمية مطالبه.. وأكثرها كان يمكن إرجاؤه لوقت لاحق..

ثالثًا: نلحظ في أي حوار عام وجود ظاهرة "فقدان قدرة الكلمات على توصيل المعنى".. ونعني بها وجود فجوة في التفاهم بين أطراف الحوار.. تخاطب محدثك بقولك: "إن التغيير في رموز النظام القديمة يسير ببطء".. فيجيبك في ثقة: "أنا لا تعجبني هذه الثورة".. ويصر كلاكما معًا على أنكما تتحدثان في الموضوع نفسه!!

رابعًا: التفعيل الشرس لـ"الأجندات" الداخلية من قبل التيارات الدينية والليبرالية والاعتصامات الفئوية.. في ظل أزمة الضمير الذي يعمد إلى تحقير الآخر.. واللعب على وتر عواطف الجماهير لتحقيق مصلحة شخصية.. على حساب الوطن.. مدفوعًا بإحساس أن المصلحة الشخصية أهم من الوطنية.. برواسب عقلية مفادها أن هذا الوطن ليس وطننا..

ستجد مصر نفسها مدفوعة للسؤال عن العلاج الذي يقترحه الطبيب: كيف تستطيع "روح الثورة" أن تنهض من تحت كل هذه الأعباء التي تعطل مسيرتها.. وتجرها جرًّا للخلف؟ نستطيع أن نوجز ذلك في كلمات قليلة.. وكلنا ثقة في أن تحقيق ذلك ميسور.. لو تكاتفت عجلات الأمن والإعلام والضمير الوطني مع بعضها:

1- نحتاج إلى إصدار "دليل المعاملات اليومية السليمة".. وليس ببعيد ما كان أنور السادات يعتزم إصداره من "قانون العيب".. حينما أدرك – ببُعد نظره – كم التغيرات المجتمعية التي توشك أن تغير ما دأب عليه المصري من شهامة وأخلاق وقيم ثابتة.. نحتاج أن تكون لدينا أشياء نتعلمها منذ نعومة أظفارنا في المدرسة والمسجد والكنيسة.. انظر مثلاً إلى تعميم مبدأ "عدم مقاطعة المتحدث حتى ينهي كلامه".. أو إلى فكرة "عدم استخدام التجريح الشخصي عند النقاش في أمور عامة".. وكيف أن مثل هذه المبادئ تكفينا ساعات من الضوضاء الكلامية.. التي لا تصل إلى شيء.. والتي تزخر بها الفضائيات طوال الوقت.

2- نحتاج إلى تعلم "السياسة" بمعناها الصبور.. الدءوب في توصيل الفكرة والوصول إلى الناس لإقناعهم بها.. فالذي نراه وسوف نراه لفترات طويلة.. هو أن كل صاحب فكر ما أو تيار ما يحسب أنه بمجرد إعلانه عن أفكاره قد فعل ما يتوجب عليه فعله.. وأن مبادئه وصلت للجميع.. وأن الغريب هو أن الجماهير لا تندفع لتأييده.. والأغرب هو أنه يلقى معارضة من جهات أخرى.. وأن حال البلاد

لا يسير وفق هواه وأطروحاته.. لكن الحقيقة غير ذلك .. الحقيقة هي أن "الكلام أخد وعطا" كما يقول المثل الشعبي.

3- يجب على إعلامنا أن يحل معضلة "الرجل وراء الفكرة".. فيرسي مبدأ مناقشة أي أطروحة.. ويستبعد مبدأ "الإقصاء" و"التسفيه من الفكر" على أساس الانتماء لتيار معين.. يساعد على ذلك طبعًا إرساء مبدأ عدالة الانتخاب.. الذي يزيد الاطمئنان إلى عدم إشكالية طرح أي فكرة.. مهما بدت غرابتها.. فلا يستقيم في النهاية إلا المقبول من الأغلبية.. ولا يصح إلا الصحيح.

4- يجب على إعلامنا أيضًا أن يعمل على حل معضلة "دور الدين في الدولة".. ويستعين على ذلك بتقريب وجهات النظر بين الإسلاميين الذين ينكرون فكرة الدولة المدنية.. والعلمانيين المتطرفين الذين يظنون أن "الدولة المدنية" النتي تكفر بالدين مناسبة لمصر.. مصر المسلمة المتدينة.. التي تحقق الأهداف السامية لكلا الطرفين دون أن يشعرا بذلك.. لكنها تترفع وتنأى بنفسها عن تحقيق ما وراء ذلك من "أجندات" خاصة.

5- يجب علينا أن نحقق لأنفسنا قناعة وطنية بهوية "الفكرة المصرية العامة".. و"الفكرة العامة" هو تعبير يشير إلى توجه الدولة المركزي.. فأوروبا مثلاً فكرتها العامة هي "الرفاهية والسيطرة على بؤر القوة في العالم".. حول ذلك ومن خلاله تدور سياسات الدولة الداخلية والخارجية.. وتنشأ قوانين وتلغى قوانين..

وتتم التحالفات وتنهدم..

ولكن ما فكرتنا العامة؟ إنها ليست في التفاصيل.. فالتفاصيل تجيء بعد ذلك.. وهي ليست في التشريعات فكلها أيضًا مشتقة من الفكرة العامة.. التي نقترح لها أن نكون "دولة متقدمة عادلة قوية إقليميًّا".

6- فلنثق في أنفسنا.. ولنرفع سقف آمالنا إلى أعلى مما نتخيل.. ولنستعِن بذلك على أعمدة مختلفة لنهضتنا.. ولنتوقف عن التفكير في أننا نريد أن نصبح مثل هذه الدولة أو تلك.. فمصر مختلفة.. مصر تستوعب أن تكون مثالاً للدولة.. وليست مثل دولة بعينها.. أستعير هنا مثالاً ضربه الخبير الاقتصادي محمد سيف.. عندما قال: إن نهضة دول شرق آسيا قامت على فكرة الدولة التنموية.. ونهضة الولايات المتحدة قامت على فكرة "التمكين".. ونهضة أوروبا على فكرة "الرفاهية وتقسيم الدخول ليس بشكل (ريعي) ولكن بشكل مجتمعي.. وعلى فترات طويلة من خلال برامج اقتصادية".. ويرى الخبير أن مصر تحتاج وتستوعب الأنماط الثلاثة..

* * *

هكذا تصبح مصر في موقعها الحقيقي على خريطة العالم.. في قلبه ورأس حربته..

هكذا يصبح ما نقوله يومًا.. تاريخاً تحتذي به الأمم حين تبحث لنفسها عن علاج لـ"أنيميا" أصابتها.. فلا تجد لها حلاً أفضل من علاج "أنيميا ثورة مصر"..

وعندي شعور أنني فعلاً لست متفائلاً أكثر من اللازم!!

كل شيء في مصر "يتمصر"..
ويُنسى بعد حين!

ليس بكاءً على اللبن المسكوب.. لكننا اخترعنا اختراعًا خاصًّا بنا.. ثم بدا وكأننا قد نسينا كيف اخترعناه.. أو أننا نبحث عن طريقة استخدامه في أفكار الآخرين.. أو أننا نسينا المشكلة التي تم من أجلها الاختراع نفسه.. وما زلنا نشكو طوال الوقت من آثار المشكلة.. دون أن ندرك قيمة اكتشافنا وكيف أن العالم كله وقف مشدوهًا من فرط بساطة الحل.. وحساسية القائمين عليه..

حديثنا عن اختراعنا التاريخي الذي نكاد نفسده بضعف الذاكرة وبعيوب شخصية وسلوكية كثيرة..

حديثنا عن ثورة يناير!!

* * *

لي صديق عزيز.. يمتلك سيارة أجنبية الصنع.. يرجع "موديل" السيارة إلى سنوات قريبة.. بدأت تصبح في حاجة إلى الصيانة المتكررة بعد إطلاقها لبعض الأصوات المتذمرة أثناء قيادته لها.. صديقي ليس من مرتادي "التوكيل" لارتفاع

أسعاره وبُعد مسافته عن مدينته.. لهذا لجأ لمن يشتهرون بحسن تعاملهم مع هذا الموديل.. ملحوظة تضايقه كثيرًا.. بعد كل زيارة للميكانيكي المسئول وما إن ينتهي الأخير من إصلاح السيارة حتى يسلمه – من باب الأمانة – مجموعة من مسامير وصواميل الموتور وهو يقول في ثقة: "مالهمش لزمة يا بيه"!! تسير السيارة بعدها بثقة.. ودون مشاكل.. لفترات طويلة.. لكن صديقي لا يستطيع منع الإحساس بالقلق وسؤال يراوده: "لما هم مالهمش لزمة.. أمال اللي عمل العربية دي حطهم فيها ليه؟"..

صديق آخر علق على سؤالي عن سبب إعادة رصف الطرق المتعدد في بلادنا الحبيبة.. ولم يمضِ على رصفها الأول سوى شهور.. أجابني بأن الحرارة العالية والجفاف في الطرق الصحراوية قد يؤديان لتشقق الطرق.. ابتسم في خبث وأنا ألقي عليه نظرة مستنكرة وأسأله إذا ما كان ذلك يحدث بنفس السرعة في طرق مماثلة في بلاد العالم المشابهة لنا في ظروف المناخ.. وقال في سخرية: "لا طبعًا.. هناك طرق لمنع ذلك.. لكنه مبدأ (مالوش لزمة).. ومقاييس (الأيزو) المصرية التي لا ترى في تعدد الطبقات وتسويتها بطرق معينة.. ثم إعطاء طبقات الطريق فرصة زمنية كافية لتستوعب هذه التراكمات.. لا يرى في ذلك شيئًا مهمًّا أو ضروريًّا.. أما في دول الخليج مثلاً.. فإنهم يطبقون هذه الطريقة بحذافيرها دون أي تغيير أو (تصرف)..

نحن على العكس من ذلك: مغرمون بوضع لمستنا ومقاييسنا الخاصة في أي عمل أو

نظام يرد إلينا من الخارج.. إما للاستسهال وإما لتوفير المال أو الجهد أو الوقت.. وإما ببساطة بدافع (الفهلوة)".

عيب خطير حقاً.. وهو يذكرني بما فعله المصريون بعد الثورة عندما نسوا المرجعية الأصلية للثورة وهي أن تكون بلادنا أعدل.. أن يسودها الحق وأن تتغير نحو الأفضل.. في البداية نزل الناس لإصلاح الشوارع والميادين وتنظيفها ودهان الكباري وترميم ما تهدَّم من أقسام الشرطة.. ثم بدا وكأن العادة المصرية لإضفاء مقاييس "الأيزو" الخاصة قد عادت بقوة متمثلة في أهم مظاهرها وهو الاستسهال.. وكأن الثورة يجب أن تكمل نفسها بنفسها.. وعاد الجميع إلى الفوضى السلوكية والاستغلال والفوضى.. رضخ الناس لإحباط بطء التغيير.. نأت القوى السياسية بنفسها عن الالتحام بالفئويات والاعتصامات ففقد الشارع اهتمامه بالسياسة التي "لا تسنده" في همومه.. رضخ الناس للسعي وراء مطالبهم الضيقة.. وأصابهم الفتور من حال البلاد وانتظروا أن يكمل "الاختراع" وظيفته فيخلصهم من حال سيئ إلى أفضل!!

* * *

نسينا أننا فعلنا بالثورة تماماً ما نفعله بأي اختراع أو منتج يرد إلينا.. السيارة أو آليات الإنشاء والرصف والتعمير.. على الرغم من أن الثورة كانت منتجنا نحن.. نحن وضعنا قواعدها التي تميزت بالإخلاص.. لكننا لم نكمل "تقفيلها"

بنفس الإخلاص وإنما بنفس "الفهلوة" التي نتعامل بها مع منتج أجنبي يتم "تقفيله" في مصر.

قامت الثورة على الإخلاص.. وفتر حماسها باختفاء الإخلاص..

قامت الثورة على أكتاف من أخلصوا للمطالبة بمطالب لا يحتاجون إليها.. شباب ميسور يطلب "عدالة اجتماعية".. شباب يعمل في أفضل الوظائف ويمتلك غدًا مشرقًا.. يصرخ منددًا بالحرية السياسية والتغيير!!

لكننا نسينا بعد قليل..

لم يستقر في أذهان المصريين سوى فكرة واحدة هي أن الثورة قامت ضد نظام فاسد.. ولم يتضح في ذهنهم أن سقوط شخص واحد لا يعني نهاية المشوار.. سقوط بضعة أشخاص لا يعني ذلك أيضًا.. لكن الحماس ضروري لإكمال المشوار الذي تبدأ أولى خطواته بإصلاح السلوك الذي أدى لهذا الفساد.. وإعلاء قيمة الضمير.. الذي أدى تهميشه وتهميش السلوك الصحيح إلى انتشار هذا الفساد.

لو استوعب الناس أن سلوكهم كان لا يختلف – عن قصد أو غير قصد.. بعذر أو بغير عذر – عن سلوك وفكر وضمير ذلك النظام.. وأن ذلك أيضًا جزء من الفساد.. لما عادوا إليه..

أسمعك تقول: إن تغيير ذلك كله صعب ويحتاج وقتًا طويلاً.. لأن ما أفسدته ثلاثون عامًا من الفساد والجمود لا يمكن أن يتغير للأفضل وللمثالية بين يوم

وليلة.. لكنني أجد نفسي مضطرًا للاختلاف معك.. انظر كيف غيَّر المصريون مرجعيتهم في التعامل مع الحاكم من الرضا بالأمر الواقع المفروض عليهم.. إلى الثورة عليه وعدم الرضوخ إلا بعد تحقيق المطلب؟ انظر كيف ترك المصريون الهوى الشخصي والاستسلام للأمر الواقع.. إلى مرجعية مصلحة الوطن.. والدفاع عن الحق.. والمطالبة بالعدل.. والإصرار على الحرية؟

* * *

عندما انتهت الـ18 يومًا المجيدة في ميدان التحرير.. بدا وكأنها كانت تفصل بين عهدين: عهد يسبقها.. رضخنا فيه لأي ضغط طمعًا في الحصول على لقمة العيش.. وعهد بعدها.. امتلأ في أوله بنسائم الحرية وحب الوطن والإخلاص له.. تحسنت آليًّا أخلاق الناس لأنهم أدركوا بفطرتهم وضميرهم أنهم لا بد ألا يتماثلوا في سلوكهم مع نظام ثاروا عليه ورفضوا ممارساته..

ثم بدأ ضغط بطء التغيير.. وزخم الاختلافات الفكرية ودوامات النقاش الفارغ والأخبار الكاذبة.. وتعطلت مسيرة الثورة: صار تنفيذ واستكمال باقي طلباتها يواجَه من أعلى بالبطء في الاستجابة.. ومن الشعب بالفتور والحماس المحدود..

كل شيء في مصر "يتمصر".. كل شيء يُنسى بعد قليل..

هل هناك من يَعلم ذلك غيري وغيرك؟

هل هناك من يراهن على نسيان الناس وعلى "التمصير".. فتصبح ثورة

أزاحت رأس النظام لكنها حافظت على طريقته.. وأسقطت النظام ثم أعادت إنتاجه هو هو؟

ربما.. جائز.. لكنه في الواقع.. لا يهم..

فما يعنينا حقًّا هو إجابة السؤال الأهم: ما العمل؟ ما الذي يعيد للناس إحساسهم بضرورة الثورة على أنفسهم.. ووقوفهم وقفة معها والتخلص من أزمات الشخصية المصرية.. مما يصب مرة أخرى في مصلحة التمسك بمواصلة التغيير وهو جوهر الثورة؟

حسنًا.. هذا هو جوهر الكتاب أيضًا..

ألوان من التحرير!!

ميدان التحرير كـان – ولا يـزال – رمـزًا للثـورة المـصرية.. فيـه انـدلعت شرارة الاعتصامات.. ومنه خرجت الهتافات التي هزت مصر كلها.. وإليه اتجهت أنظار مصر والعالم في أيام الجمـع الـشهيرة في أثنـاء الثـورة أو بعـد التنحـي.. فيـه حدثت تجاوزات كثيرة من أطراف عدَّة.. وعنه نـشرت عـشرات المقـالات وأفـردت مئات ساعات الإرسال..

اكتسى ميدان التحرير دائمًا في أول الثورة بلون واحد هـو لـون الثـورة.. لم تكن لتستطيع التمييز بين فرد وآخر على أساس الانتماء أو الخلفيـة.. ولم يكـن مـن الممكن أن يفلح تصنيف ما في ذلك.. رويدًا رويـدًا فقـد ميـدان التحريـر قدرتـه علـى التلون بلون واحد.. ولكن تحول من وحدة اللون والمزاج إلى ألوان قوس قزح وأمزجـة مختلفة.. متناصرة.. متنافسة.. وما بين وحدة اللون واختلاف المزاج.. ما بين توحد الهدف وتنافس الأطياف.. حدث الكثير الذي يستحق أن يصنف تحت باب "غبـاء الثورات".. ويمكن أن يفرد له فصل خاص في تاريخ نـضال الـشعوب يحمـل عنـوان

"كيف تقوم بثورة ثم تضل الطريق؟"..

موضوعنا هو ألوان التحرير..

موضوعنا هو محاولة لاستكشاف أسباب حزن الخاتمة.. بعد فرحة البداية..

موضوعنا إذًا لا بد أن يبدأ باستجلاء فكر ثوار الميدان..

* * *

حينما فضت الشرطة العسكرية والجيش الاعتصام المفتوح الذي بدأ يوم الثامن من يوليو 2011.. كان ذلك أول أيام رمضان.. فضت قوات الشرطة الخيام بالقوة.. وأخرجت المعتصمين منها.. وطاردتهم في الشوارع المحيطة وتم القبض على أكثر من مائة منهم.. عادت الحياة المرورية لطبيعتها.. خرج شاب يقود سيارته في الميدان منها وهو يصافح فردًا من أفراد الجيش في حرارة ويعانقه في سعادة.. بينما رفع مواطنون آخرون علامة النصر بأصابعهم!!

كان هذا "النصر" تعبيرًا عن فقدان الثوار لعلاقاتهم بوجدان الناس وتأثيرهم على الشارع.. لم يعد الاعتصام يقنع الناس.. ولم يعد التظاهر يغري الناس بالانضمام إليه.. على الأقل ليس بالدرجة التي كان يفعلها في "يناير".. هذا الشعور العفوي الذي دفع هذا الشاب لاحتضان فرد الجيش في سعادة.. لم يتولد فجأة.. ولكن جاء متدرجًا على مدى أسابيع وشهور.. شيء ثابت وواضح: لقد فقد الثوار

قدرتهم على التأثير في الشارع.. والمشكلة الأخطر أنهم لم يدركوا ذلك بعدُ!!

* * *

ما الذي حدث؟ هي سلسلة من الأخطاء الخبيثة المتتالية..

أول هذه الأخطاء جاء التوضيح الأمثل له علي لسان الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.. حينما قال: إن الثورة كانت كمن هدم حائطًا كبيرًا.. ثم دخل إلى المنزل المحظور خلف هذا الحائط.. ووقف مذهولاً لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك.. هذا هو ما فعله الثوار.. فالواضح أنه لم تكن هناك خطة محددة للنهوض بمصر.. كل ما فكر فيه الشباب هو تغيير الوضع للأحسن عن طريق تبديل هذا النظام الفاسد.. بل إن هذا الهدف نفسه لم يأتِ مباشرة وإنما تبلورت فكرته بعد أيام المظاهرات الأولى.. انعكس هذا الأمر في عدم وجود برنامج سياسي واضح لديهم.. وتأخُّر – بل وانعدام – إعلان إصلاحات مجتمعية من جانبهم.. كان واجبًا عليهم اتخاذ منهج "التنمية المجتمعية بشرعية الثورة".. هذا هو ما يصطلح على تعريفه في السياسة الحديثة بالالتحام بالمجتمعات.. فلم نجد شباب الثورة يستغلون حب الناس لهم وانبهارهم بفعلهم الشجاع.. ولم نجدهم يستغلون قوة ضغط الثورة في الضغط على الجهات الحكومية والمحليات في تنفيذ طلبات وآمال المجتمعات الصغيرة.. من توصيل مياه وكهرباء.. وإنهاء تشييد مبانٍ ومدارس.. ومد أو رصف طرق أو تعيين خريجين.. بل إن هذا الخطأ امتد إلى إحجامهم عن الالتحام بالفئويات والاعتصامات الكثيرة التي كنا نضيق بها في أوائل أيام بعد التنحي.. ولو

فعلوا ذلك كله لاكتسبوا شعبية واسعة في كل طبقات المجتمع.. ولكان لهم في كل نقابة فئوية مناصرون.. ولاكتسبوا "قدرة مجتمعية" على قيادة النقابات والشرائح المجتمعية المختلفة.. مدعومة بإحساس الناس بصدق نواياهم في التغيير.. ونبل توجهاتهم في خدمة صالح الناس فيما يهمهم في يومهم وغدهم القريب.. وليس فقط غدهم البعيد المقلق بإصلاح بعيد.. يتعين معه الصبر لفترات.. لا يبدو لها سقف زمني واضح.. ولا يمكن الصبر عليها دون الإلمام بملامح نهاياتها..

ثاني هذه الأخطاء.. الذي ربما يُعزى إلى عدم وجود قيادة واضحة.. هو تفرغهم للخلاف بينهم حول التفاصيل.. ومراقبة أداء الحكومة والمجلس العسكري من منطلق المحاسبة والإشراف على تنفيذ متطلبات الثورة.. والانغماس في نقاشات جانبية.. وبذل مجهود عنيف سواء كلامي أو بدني في حشد مليونيات متتالية من أجل تفعيل هذه المطالب.. أو المطالبة بأشياء أخرى تتعلق بأولوية الدستور أو تكوين مجلس رئاسي.. نسي ثوار التحرير في غمار ذلك أن الوقت ليس في صالحهم.. فمن ناحية بدءوا – نتيجة لعدم التحامهم بالشعب الذي أيدهم في البداية – يفقدون تعاطف الناس معهم وتأييدهم.. مما انعكس على أعداد المشاركين بالمليونيات.. ومن ناحية أخرى لم يستثمروا هذا الوقت في تكوين منبر سياسي لأفكارهم في صورة إذاعية.. أو قناة تليفزيونية أو غير ذلك.. مما كان لا بد أيضًا أن يصب في صورة "حزبية".. ذات أهداف وبرامج واضحة تتعلق بتلك التنمية المجتمعية.. وتضع عينًا على رضا الشعب.. الذي يضمن لهم أرضية واسعة من

المؤيدين.. وعينًا أخرى على المنافسة عن طريق ذلك على المحليات.. وكان هذا هو السلوك السياسي المطلوب.. والذي يدرك "بعقله" أن القصة سوف تنتهي ليس بتحقيق المطالب.. وإنما باشتراك الثوار في أي نظام مقبل بما يضمن لهم تفعيل النهضة.. ولكن.. من قال إن الثوار كانوا يفكرون بعقولهم أو إن هذه العقول كانت لها "خطة" واضحة لهذه النهضة؟ هذا بالتحديد هو موضوع الخطأ الثالث..

الخطأ الثالث كان الممارسة "العاطفية" للسياسة.. والإحساس بالتفوق - الذي شابه التعالي - على العامة وعدم فهم قيمة وتأثير المظهر الشخصي أو الملامح الحوارية على وعي الناس.. ومدى تقديرهم الشخصي للمتحدث.. فعلى الرغم من أن الثوار يحسب لهم نبل توجهاتهم وصدق مشاعرهم والتعبير عما في داخلهم دون تجميل.. فإن هذا بالضبط هو ما كان يعيبهم.. ونوضح أكثر فيما يلي:

الممارسة العاطفية للسياسة تجلت في امتداد اعتصام **8** يوليو لمدة فاقت الأسابيع الثلاثة دون مبرر سياسي حقيقي لذلك.. كان الأجدر بالثوار وقد نجحت مطالب الاعتصام.. وتم حل المحليات وإقالة الوزراء واستبدالهم.. كان الأجدر بهم فعلاً أن يتم تعليق الاعتصام.. انتظارًا لما تسفر عنه تلك التغييرات.. وعدم رفض الفكرة التي كانت تنادي بها أطراف متعقلة كثيرة.. وذلك بإعطاء الفرصة للحكومة الجديدة.. حرصًا منهم - أي الثوار - أيضًا على عدم رفع الصدام الفكري مع شعب بدأ يفقد اهتمامه بمطالبهم.. وبدأت تراوده شكوك حول رجاحة عقول هؤلاء الثوار.. وقلق على مستقبل البلاد والاستقرار فيها.. في ظل هذه الاعتصامات..

خاصة مع ما بدأت تسوقه وسائل الإعلام باستمرار من أخبار انهيار البورصة واضطراب الاقتصاد.. مما أوحى إلى الناس بسلبية تأثير الاعتصامات.. بدلاً من ذلك الاختيار السياسي المتعقل.. من تعليق مبكر للاعتصام.. الذي اعتبره البعض ممن في داخل الميدان خيارًا يساوي الخيانة للثورة.. ولأهالي الشهداء الذين احتلوا صدارة المشهد السياسي.. كانت الكثير من القوى الراديكالية تؤيد البقاء في الميدان لأسباب عاطفية مثل هذه.. دون النظر للجانب السياسي.. دون إعطاء أهمية لكسب صوت رجل الشارع.. اندفعت القوى الثورية في هذا الطريق إلى أسلوب التصعيد.. الذي بدا تطورًا "طبيعيًّا" لموقف.. حرصت كل أطرافه على إبقائه مشتعلاً بوقود العاطفة والحماسة والاندفاع.. بجانب قوى التهييج وإشعال الموقف لخدمة أغراض بدأت تحيد عن هدف الثورة.. لكنها تؤثر على الثوار وتنفذ إليهم من باب قلوبهم وليس من نافذة عقولهم!!

هذه المواقف لعبت – ولا شك – دورًا مهمًّا في انقلاب مشاعر الجماهير ضد الثوار.. فظهروا بمظهر المندفعين والغوغاء.. وأصبح الحديث عنهم يقترن بإحساس الناس أنهم غير حريصين على مصالح الشعب والوطن.. وأنهم مثيرو مشاكل.. وأنهم يعتصمون بغير لزوم.. وصارت تعبيرات مثل "هم عايزين إيه تاني؟" شائعة على ألسن المواطنين..

كان السبب الرئيسي وراء هذا التناقض في فهم واستقبال هذه الأفعال من الناس على أنها عدم حرص على مصلحة الوطن.. على الرغم من صدورها عن

أشخاص يذوبون في حب الوطن.. ويحرصون عليه أكثر من حرصهم على أنفسهم.. راجعًا إلى عاملين مهمين.. أولهما: عدم تقدير نفسية الشعب المصري الذي مهما قام بثورات تظل نفسيته تحمل خطوطًا حمراء لا يقبل تجاوزها إلا بالإقناع الذي يتطلب وقتًا.. فكما استغرق انضمام الجماهير لميدان التحرير أيامًا طويلة انتهت بعشرين مليونًا في جمعة التنحي.. كان الأمر يتطلب أسبابًا قوية.. لم تتوافر في الحقيقة.. ولا على أرض الواقع.. لإقناع هذه الجماهير بجدوى تصعيد الاعتصام بهذا الشكل.. ثاني هذه العوامل يرجع إلى التعالي والغرور اللذين يتعامل بهما الثوار مع الناس خارج الميدان.. فانتشرت على ألسن الثوار تعبيرات تصف الناس بـ"قصر النفس".. وعدم الفهم.. وتستنكر عليهم عدم الانضمام إليهم وتأييدهم.. بل وتذكرهم بتأخر انضمامهم للثورة في بداياتها..

ظن الثوار بعد قليل أن ميدان التحرير هو مصر كلها.. بينما الواقع يقول إن الميدان لكي يصبح بالفعل "مصر كلها".. بحيث تملي "رغباته" على الناس خارطة لردود فعلها وتوجههم نحو تأييد ثواره.. كان يستلزم أن ينزل هؤلاء الثوار من عليائهم.. فيتصرفوا بالكثير من الذكاء السياسي.. الذي لا يتضمن بالتأكيد تصعيدًا خطيرًا مثل التهديد بإغلاق القناة.. أو الهتاف بإسقاط المشير..

أما عن عدم مراعاة المظهر والحديث في التوجه الإعلامي للثوار.. فيصطدم رأيي هنا بدعاوى "الحرية الشخصية" المعتادة.. كما يصطدم بميل المصريين كالعادة إلى تقييم "الشخص وراء الفكرة" بدلاً من النظر المجرد لفحوى كلامه..

أحد الثوار حضر في مواجهة إعلامية ساخنة ليدافع عن اعتصام 8 يوليو على شاشة فضائية.. وهو "يعقص" شعره على هيئة ذيل حصان.. لك أن تتصور تأثير ذلك المشهد على عقلية محافظة يتمتع بها أغلبية المشاهدين المصريين.. ولك أن تتخيل مدى رفضهم "لشخصه" دون النظر "لحديثه" في تلك اللحظة عن وجاهة التهديد بغلق القناة.. وأن منع الموظفين من دخول مجمع التحرير لم يضايق أحدًا ! !

إحدى الثائرات الشهيرات قالت – تعليقاً على تعبير "الخطوط الحمراء" – : "خطوط حمرا إيه؟ إحنا ما عملناش الثورة علشان نكون مؤدبين.. إحنا عملنا الثورة علشان نكون مش مؤدبين! !"..

بالطبع فالمعنى واضح ويمكن بقليل من التفهم تصور ماذا تشير إليه.. ولكن هل تتصور أن يجلب هذا تعاطفاً معها أو مع الثورة من جانب مواطن بسيط يرى فتاة محجبة تقول عن نفسها إن منهاجها يتمحور حول "قلة الأدب"؟!

* * *

أهمل الثوار قيمة قوة الجماهير الضاغطة.. مصر..

نسوا أن ثورتهم لم تنجح إلا بانضمام هذه الجماهير إليهم.. حتى لو لم يخرجوا معهم من البداية.. وأن هذا الانضمام لم يأتِ إلا بإقناعهم بنبل توجههم وصدق نيتهم في الإصلاح..

وليس بالتعالي.. أو الصوت العالي والتباهي بالاعتراض..

* * *

عندما انطلقت شرارة الثورة المصرية في "يناير".. لم تزدحم الميادين بـآلاف البشر فجأة.. بل إن الأمر جاء تدريجيًّا وبطيئًا في بعض الأحيان..

في صبيحة الخامس والعشرين من يناير.. كانـت هنـاك تجمعـات لا تزيـد على العشرات.. تقف أمام دار القضاء العالي وميدان التحرير ترفع شعار "تغـيير – حرية – عدالة اجتماعية".. و"الشعب يريـد إسـقاط النظـام".. الأجـواء سلمية مـن وحي روح المظاهرة.. التي تم الاتفاق عليها علـى الإنترنـت.. وبـدلائل واقعيـة مـن الوقفة الهادئة وردود الفعل غير المتشنجة لقوات الشرطة.. وعربات الأمن المركـزي التي تحلقت حول المتظاهرين كإجراء أمني تقليدي..

بعض المتظاهرين في أماكن متفرقة في القاهرة وبعض المحافظات.. كـانوا لا يزيدون على أصابع اليدين.. وفي بعض الأحيان أصـابع اليـد الواحـدة.. وقـف المـارة ينظرون إليهم في مزيج من الفضول والدهشة أحيانًـا.. ومـن الإشـفاق أحيانًـا.. ومـن السخرية أيضًا.. حتى إنهم كانوا يسمعون عبارات الـتهكم علـيهم.. لكـن الأمـر لم يخلُ من اهتمام حقيقي من المارة.. وتدبر على مستوى اللاوعي في قيمة وهدف هـذه الوقفة الاحتجاجية.. ترجمه الواقع في انضمام بعض الواقفين "للفرجة والـسخرية" بعد قليل إلى صفوف المتهكم عليهم.. تدريجيًّا..

كل من شاهد هذه البدايات أو عاصرها بعيني رأسه يعرف هذا السيناريو: ساعة.. ساعتان.. أو ربما أكثر من ذلك.. تستمر الأعـداء الـضئيلة في إصـرارها علـى الوقوف.. وترديدها للشعارات المنتقاة بعناية وضمير حـي وإخـلاص حقيقـي.. ثـم

يبدأ شخص واحد من الواقفين في الانضمام إلى المتظاهرين.. شخص واحد فقط بدا في كل الميادين أنه حسم أمره بعد طول تردد.. ينضم هذا الشخص في شجاعة ويردد الهتافات في قوة وحماس.. ويظهر أنه بموقفه هذا لم يحسم أمره فقط.. وإنما يبدو أنه أشعل شرارة "الحسم" في نفوس العشرات.. ينهار التردد في نفوس المتفرجين بسرعة واضحة.. تتضاءل أعداد "المتفرجين" التي كانت حتى هذه اللحظة تفوق أعداد المتظاهرين عدة مرات.. لينضموا في تتابع سريع لهم.. ويصبح كل من يأتي "للمشاهدة" في الجانب الأقل عددًا.. ينضم أيضًا تلقائيًّا للكتلة التي صارت أكبر.. وأقوى.. وأعلى صوتًا..

تفسيرات كثيرة تولج برأسها في هذا المشهد الأشهر لبدايات الثورة..

لا شك أن عموم الوعي المصري كانت قد سيطرت عليه حالة من عدم القدرة على التحمل.. فيما يخص الأجواء السياسية والاجتماعية وتوالي المشاكل الاقتصادية.. التي تضافرت معًا في خلق شعور من الضيق الشديد بالحال.. ترجم هذا الشعور نفسه في صورة السخط على الحكام.. هذا السخط اصطدم بشدة مع القوة الباطشة الرهيبة للأمن.. ممثلاً في البوليس السياسي والمسمى "أمن الدولة" سابقاً.. فلم يترجم هذا السخط نفسه إلى غضب حقيقي على أرض الواقع.. ولا إلى ثورة انتظرناها لسنوات.. ساعد على ذلك حالة "اللهاث" وراء الرزق التي خلقتها النظام السابق طوال الوقت.. بحيث صار مجرد التفكير في أي أمر غير ذلك نوعًا من

الإلهاء عن الرزق لا يتحمل ترفه معظم الناس..

هذه الحالة من "عدم التحمل والضيق" كانت بانتظار شيء واحد.. ففي ظروف مثل التي نصفها يصبح من الصعب عليك وأنت "تلهث" وراء رزقك ولا تجد وقتًا لغيره حتى لنفسك أو لأسرتك أو راحتك.. يصبح من الصعب عليك أن تضحي بذلك من أجل دعم شيء فاشل.. محكوم عيه مقدمًا بالضياع والانكسار.. وتصبح الضمانة الوحيدة لذلك في شعب عاطفي مرهف الإحساس.. ذكي التفكير.. هي القدرة على التمييز بين الجد والهزل.. وبين من يتاجر به لغرض شخصي أو لاستخدامه كديكور سياسي يستكمل به تبرج النظام.. وبين من لا يحمل في نيته وقلبه سوى حب الوطن.. ومصلحة البلاد.. وشعارات يترجم بها الضيق من الحال والسخط على الحكام إلى حلول واضحة ومطالب محددة.. ممزوجة بإحساس مهم هو التجرد من المصالح الشخصية.. ومبدأ لا يقل عنه أهمية هو "أننا نستحق الأفضل"..

ذكر أ. د. محمد أبو الغار في مقالته بجريدة "المصري اليوم" في شهر أبريل 2011 أن جمعة 28 يناير تدين بفضل الصمود لمساعدات وتضحيات شباب منطقتي "الطالبية" و"العمرانية".. الذين لم يتوانوا عن الزحف على الميدان بأعداد فاقت العشرين ألفًا لمساندة الثوار.. وأنه لولا هذه الأعداد لانسحق الثوار تمامًا في هذه الموقعة.. التي شهدت قمة العنف الأمني والتنكيل بالرصاص المطاطي والحي والغاز..

انضمام هـؤلاء الـشجعان إلى الثـوار يجـب أن تنظـر لـه بعنايـة.. في إطـار الدوافع نفسها.. وهي الضيق والسخط والقناعة بـأنهم الأفـضل.. فالمـصري في تراثـه الفكري الممتد عبر التاريخ يؤمن بداخله أنه أفضل وأعلى من كل الشعوب.. وتراثنـا مليء حتى في أيام الاحتلال الأجنبي بقصص ونكات ساخرة عـن المحتـل وغبائـه.. وبإشادة بذكاء المصري.. وحسن تصرفه ورقي تفكيره وذكائه عـن ذكـاء وتفكـير أي شعب آخر.. هذه قناعتنا التي دعمها تاريخنـا الفكـري والـسياسي وحتـى النـضال والعلم.. ولكن المصري في زمننا هذا ما زال يحمل في داخله – جنبًا إلى جنب مع هذه القناعة – قناعة أخرى بأن العالم من حوله أفضل وأن هناك شـعوبًا سـبقتنا بأميـال وسنوات ضوئية كثيرة.. في كل المجالات وكل مناحـي الحياة الاقتصادية والفكريـة.. وجوانب حرية الإنسان وكرامة المواطن.. تتفاعل الفكرتان في نفوس المصريين فتذكي نار السخط والضيق.. وتدعمها خلفيات كـثيرة.. عاشـها أكثـر مـن عاشـها.. هـؤلاء المهمشون من سكان الطبقات الأقل حظًّا من الثقافة والمال والـرزق.. أمثـال الـشجعان من "الطالبية" و"العمرانية".. وغيرهم من الفلاحين والباعـة الجـائلين والعـاطلين.. الذين نزحوا إلى الميادين وبعضهم من خـارج المدينـة.. إلى التحريـر وإلى كـل ميـدان اشتغل بثورة حب مصر..

ولكن يبقى السؤال: "لماذا الآن؟!"..

كثير من مقدمات الثورة وأسبابها الاجتماعية والفكريـة.. الـتي أشـرنا إلى

بعضها في كتابنا السابق "خلع ضرس مصر".. كان قائمًا منذ سنوات.. لم يستحدث وجوده ولم يظهر فجأة من العدم.. البطش الأمني كان قائمًا أيضًا.. وزاد من وجوده وجبروته مع اندلاع المظاهرات.. السخط والضيق لم يتولدا في النفوس منذ أول يوم في الثورة فقط.. بل إن الكثيرين نادوا بالثورة منذ سنوات.. ولعبوا على الوتر نفسه.. وتعددت الوقفات الاحتجاجية في الشهور السابقة للخامس والعشرين من يناير 2011..

"لماذا الآن؟!"..

لماذا تحول "الصفع" و"الإهانة" المنهجان من بعض رجال الأمن تجاه الطبقات المهمشة.. اللذان استمرا لسنوات.. إلى شرارة تأييد لمن نزل في الميدان يطالب برحيل النظام ويندد بالظلم في لافتات.. يرفعها من تشي وجوههم بأنها لم تتلقَّ صفعة من شرطي في حياتها.. ولم تعرف الإهانة الجسدية أو التمييز.. ولم تختبر القهر النفسي في البحث عن وظيفة.. أو تأجيل حلم الزواج.. أو الحصول على مسكن أو دخل ثابت.. أو التمتع برغد العيش؟

"لماذا الآن؟!"..

ونجيب في ثقة: إنه استشعار "الجدية" و"الصدق" و"التجرد من أجل الوطن".. نضرب مثالين لتوضيح هذا الاستنتاج..

عامان كاملان قبل نجاح د. أحمد زويل.. العالم المصري الحاصل على جائزة

"نوبل".. في تأسيس دعائم "جامعة زويل" بعد ثورة يناير.. كان له حديث مع الإعلامية منى الشاذلي في برنامج "العاشرة مساء".. أجاب عن سؤال عن السبب في عدم إنشاء الجامعة بالجهود الذاتية من تبرعات المصريين.. وكانت إجابة مثيرة للاهتمام.. وتعبر عن فهم عميق لنفسية المصريين.. عندما عبر فيما معناه أن "المصري ذكي جدًّا.. لا يضع نقوده في أي مشروع إلا عندما يتأكد أنه جاد.. ولن تسيطر عليه الحكومة.. أو تضيع أمواله فيه هباء.. المصري يحب بلده جدًّا.. لكنه لن يغامر بدفع أمواله في شيء فاشل ينضم لطابور الفشل الذي أحبط آماله وواقعه"..

أراه تعليقًا رائعًا.. يتفق مع ما حدث..

مثال آخر سقناه من قبل كتاب "خلع ضرس مصر": "نذكر هنا اتصالاً مهمًّا لمراسل الـCNN الأمريكية في مساء اليوم الأول للثورة (25 يناير) حينما سألته المذيعة على الهواء عن نوعية المتظاهرين.. وفئاتهم الاجتماعية.. وأي نوع من الناس هم.. فأجابها بأنه التقط شابًّا من وسط المظاهرات بشكل عشوائي.. وأكد على أنه لا يميزه عن الكثير من الشباب الآخرين شيء.. ثم بدأ في وصف ملابسه غالية الثمن.. وحذائه باهظ السعر.. وهاتفه المحمول الذي ينتمي لأحدث جيل من الهواتف.. ولغته الإنجليزية السليمة.. التي مكنته من التفاهم معه بها دون مترجم ولا "لكنة" غريبة.. واستنتج المراسل معنى في غاية الخطورة.. عندما قال: "سيدتي.. إن هؤلاء الناس لن يمكن خداعهم بسهولة.. إنهم يتظاهرون لقضية نبيلة يؤمنون

بها حقًّا.. إنها ليست مظاهرة جياع أو رعاع.. هؤلاء الناس جادون"!!.. "

انظر من فضلك كيف أن الوعي الجماهيري المصري شديد العاطفة.. أدرك نفس ما أدركه عالم حاصل على أعلى جوائز العلم.. ومراسل لقناة إخبارية عريقة.. تهتم بتحليل الأخبار قبل سردها..

تأمل معي في ذلك قليلاً..

نعم.. إن الناس في مصر تدرك بوعيها تمامًا من هو "الأراجوز" الذي يلعب على وتر العاطفة والمشاعر ويخفي لنفسه "أجنداته" الخاصة.. ومن هو الوطني المخلص.. الذي قد لا يلعب إلا على وتر العقل.. ولكن آجلاً أم عاجلاً تكتشف أن وتر العقل المصري لا ينفصل كثيرًا عن وتر العاطفة.. ولا يبتعد في النغمات التي يصدرها عن نغمة الإحساس والضمير الوطني.. الذي يتعلق في النهاية والبداية معًا بحب مصر..

استطاعت جموع من الشباب المصري أن تلمس وتر العاطفة.. ووتر العقل الشعبي في براعة وسلاسة.. فقامت الثورة في ساعات..

وفشل الثوار وتيارات النخبة السياسية.. سواء الليبرالية أو الإسلامية منها.. أن تلعب الدور نفسه بعد الثورة.. فزاد الاختلاف والانقسام وتحول المشهد إلى تراشق بين الأيديولوجيات والأفكار.. وهجوم على الأشخاص ونبذ للأفكار.. وإهمال للمنطق.. والأهم من ذلك كله: البعد عن مناقشة إصلاح البلاد على أرض الواقع..

لا ننكر هنا أهمية الدور السياسي في إصلاح كيان الوطن.. لكن تحويل الثورة إلى مظاهر شكلية لطريقة الحكم.. ونظام الانتخاب.. وانتهاج نبرة الإقصاء وافتعال المشاكل للعب على وتر العاطفة لدى الجماهير.. هو بالتأكيد ليس من مصلحة مصر في شيء.. وليس من "إصلاح البلاد" في أي شيء..

عندما استطاعت نخبة واعية.. مثقفة أو غير مثقفة.. أن تعبر عن ضمير الوطن.. واستطاعت اختيار الأداة المناسبة التي لا تتعارض مع مصلحته ولا مع آماله.. وتحلت بالصبر والإخلاص اللازمين لذلك.. وأنكرت نفسها ومصالحها في سبيله.. قامت ثورة حققت ما لم تحققه سنوات من السياسة واللاسياسة..

وعندما تستلهم القوى السياسة هذه الروح في عملها ونيتها وضميرها على أرض الواقع.. ستنجح ثورتنا بإذن الله..

* * *

"المصري ذكي جدًّا.. بس لازم يعرف جهده وفلوسه رايحة فين.. المصري بيحب بلده جدًّا"..

فمتى نتعلم أن نحب مصر كما يحبها جموع البسطاء.. الذين ضحى جزء غير قليل منهم بحياته في سبيل نجاح الثورة.. ويبدو من سلوك الكثيرين منا وكأنه يتعمد إجهاضها وإفشالها.. بسوء النية وخبث الضمير؟!

* * *

روت هـدى عبـد الناصـر.. ابنـة الـرئيس الراحـل جمـال عبـد الناصـر.. ذكرياتها عن الأيام الأولى التي تلت ثورة "يوليو".. كان الضباط الأحـرار يظنـون أن الشعب سيخرج فرحًا بهم.. وأن التأييد للثورة سيملأ ربوع مصر.. لكـنهم فوجئـوا بأن ذلك لم يحدث.. اضطروا مع ذلك إلى النزول للبلاد الـصغيرة وعمـل لقـاءات مـع جماهيرها.. وشرح الأهداف والمعاني.. والدفاع عن مبـادئهم.. هـذا هـو مـا نقـصده بالالتحام.. الذي يتم تفعيله حتى مع هذه الجهود.. سوى بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي.. وتمليك صغار الفلاحين الأرض.. هذا الحدث الذي بدأت الجماهير إثـره في الشعور بأن هناك بالفعل "ثورة" قد حدثت وأثرت على حيـاتهم إيجابيًّـا.. هـذا الحدث الذي كان تأثيره واضحًا لدرجة أرسل معها الـسفير الإنجليـزي في القـاهرة معلقًا على ذلك ومخاطبا حكومته قائلاً: **"It is a Revolution"** أو "إنها بالفعل ثورة"..

يعلق أحد الثوار علـى هـذه القـصة وعلـى مثيلاتهـا مـن الانتـشار الواسـع للخـدمات الـسلعية لمرشـحي الأحيـاء والـدوائر المختلفـة.. ممـن ينتمـون لمختلـف التيارات أو من محترفي الانتخابات.. أو من نواب الحزب الوطني المنحل.. بأن ذلك إما ليس في قدرتهم التنافس معه.. لعدم وجود قوة القرار في أيديهم.. وإما أنه ينظر إلى تلك الممارسات باحتقار.. مبعثه أنها لعب على أوتار الحاجـة.. وإهمـال لطـرح الرؤية السياسية التي يجب أن تكون هي الأساس في الاختيار لدى التنافس.. وعلى

الرغم من أنها بالفعل كذلك.. لكن هناك دائمًا شيئًا وسطًا.. لا هو "اللافعل" الذي انتهجه الثوار.. ولا هو "الرشوة السياسية" التي يتبعها البعض.. ونقصد بذلك "الوسط" مسألة "التنمية المجتمعية الشاملة" التي أهملها الثوار كما أشرنا إلى ذلك.. من تلبية لحاجة المجتمعات البسيطة والمحليات في العمل والخدمات.. وهي أمور كانت تحتاج لمارسة عقلية للسياسة.. وعدم ادعاء التمسك بالأهداف الثورية دون بذل مجهود في النزول لرغبات الشعوب.. والإحساس بآمالها.. وتوضيح خطوات "الثوار" في الإصلاح المجتمعي.. والتي تسير جنبًا إلى جنب مع الإصلاح السياسي والنهضة العامة اللذين ربما يتأخران لوقت لاحق.. ويتطلبان فهمًا عميقًا لأن ما لا يدرك جله لا يترك كله.. وما لا يتحقق في الفترة الانتقالية قد يتحقق فيما بعد عندما تكون هناك حكومة منتخبة ورئيس منتخب.. اللذان يعطل مجيئهما الصدام مع الإصرار الحكومي والبعد عن الشعب وآماله.. بحيث يفتقد هذا الإصرار تأييد هذه الجماهير.. التي تركها الثوار دون أن يلتحموا بها ويقتربوا منها.

* * *

هكذا فقد ميدان التحرير لونه الموحد..

وهكذا سينتهي حال الثوار من شخصيات محبوبة.. وشباب يثيرون الإعجاب.. إلى مجموعة من "الصغار".. الذين لا يحسون بآلام الناس.. يصرون على إثارة المشاكل.. وعلى الصدام.. ويتعاطف معهم أشد الناس عقلاً على أساس

"التهور.. وصغر السن.. وقلة الخبرة"..

وهكذا.. سينتهي حال الثوار إلى التظاهر يومًا على سلم نقابة الصحفيين مرة أخرى.. يطالبون بمطلب.. يستغربه الشعب الذي انفصلوا عنه بإرادتهم.. وتأثير غبائهم السياسي..

يطالبون بالتغيير!!

وسيكون التغيير قد فاتهم قطاره.. أو فاتوه هم!!

يا عزيزي.. كلنا فلول.. آه واللّه!!

من التعبيرات التي استحدثتها ثورة يناير: "الفلول".. يأتي التعبير وحيدًا هكذا: "الفلول".. أو مقترنًا بالمضاف إليه ومن دون تعريف "فلول النظام السابق" أو "فلول النظام".. وربما تراه في صورة أكثر تحديدًا مثل "فلول الحزب الوطني".. وانتشر استخدام هذا التعبير بشكل أثار كالعادة موجة من التحمس له.. صاحبتها ميول قوية لتعميم الاتهام على كل من تثبت – أو لا تثبت – صلته بالنظام السابق.. وعلى كل من يقول أو يتورط بالفعل في عمل يبدو عليه أنه ضد الثورة.. أو فعل إجرامي من تخريب ودمار.. وسرقة أو سلب أو نهب.. أو ما شئت من أمور لا يعرف لها بالضبط أول من آخر..

متى نشأت الفلول؟ ولماذا؟ من أين جاءت؟ وإلى أين تذهب بمصر؟

هل حقيقة توجد هذه الفلول.. أم أنها بدعة من خيالنا؟

من هم الفلول حقًّا؟ وكيف تتعرف عليهم؟

فربما كان صديقك أو أخوك أو زوجك منهم.. وربما كنت أنت نفسك

منهم.. ولا تعلم.

* * *

بداية.. ما الأصل اللغوي الصحيح للكلمة؟ نستقي إجابتنا من كتاب "معجم لسان العرب" لابن منظور.. حيث يعلق طويلاً على الكلمة فيصفها بأنها: "القوم الفل: المنهزمون.. والجمع فلول وفلال.. قال أبو الحسن: لا يخلو من أن يكون اسم جمع أو مصدرًا.. فإن كان اسم جمع فقياس واحده (ويعني أبو الحسن بذلك أن المفرد منه هو التالي) أن يكون فالاً كشارب وشرب.. ويكون فال فاعلاً بمعنى مفعول.. لأنه هو الذي فل.. ولا يلزم أن يكون فلول جمع فل.. بل هو جمع فال"..

من دون الاستزادة التي حتمًا سترهقنا.. فالخلاصة أنهم – أي الفلول أو في قول آخر "الفلال" – هم القوم الذين انكسروا أو انهزموا.. والواحد منهم هو "الفال".. لكننا في مصر بعد الثورة.. أضفنا بعدًا جديدًا للمعنى.. فالفلول هم أناس شديدو الخبث والدهاء.. وواسعو الحيلة.. طويلو اليد والتأثير في كل بقعة في مصر.. وعلى كل مجال فيها.. ألصقنا بهم كل الشرور والفتن.. وعزونا إليهم كل النوازل والمصائب في الوطن.. ما صلح منها وما لا يقبله العقل.. كما توسعنا في التعريف.. فصار كل من كان له علاقة بمنظومة النظام السابق منهم.. حتى لو لم يكن صاحب قرار أو مشتركًا في مؤامرة.. وحتى لو كان منفذًا للسياسة على قواعد ومنهج قوانين ثابتة لا ذنب له في عدلها أو ظلمها..

* * *

هناك جانبان للحقيقة من وجهة نظري.. الأول: أن الفلول ليست وهمًا.. بالفعل هناك من استفاد من النظام السابق ويدافع عن كيانه.. حقًا هناك من لا يريحه نجاح الثورة.. ويقلقه تطور قوتها واتساع رقعة المقتنعين بها من يوم ليوم.. ويزعجه تصاعد وتيرتها يومًا بعد يوم.. هذا أمر لا يمكن إنكاره.. ولكن لإدراك الأمر كله يجب التفريق بين حقيقتين: حقيقة وجود الفلول فعليًا.. وحقيقة النية الحقيقية لهؤلاء الفلول وكيف ينفذون سياستهم على أرض الواقع.. وهذا الفارق يبرئ الكثيرين ممن يوصمون بالفلول.. فيتبقى منهم قليلون! !

الجانب الثاني: أن الفلول أوسع انتشارًا مما نظن.. لكن الفال "الحقيقي" نادر الوجود! !

لنبدأ بالجانب الأول من قضية "الفلول".. وهو الجانب الذي يتعلق بوجودهم فعلاً.. السبب في إنكار بعضنا لهذا الأمر وإحساسنا بأن الأمر صار "مملاً".. وأننا ربما نلصق أي شيء بهم.. هو اتباعنا لنظرية المؤامرة أكثر من اللازم.. وإغفالنا أن بيئة التفكير المصري غير المتشبث بمرجعية واضحة.. وغير الخاضع للمنطق.. يغيب عنه الفارق بين حقيقة وجودهم فعلاً ونيتهم الحقيقية التي تصمهم بهذه التهمة.. وفهم هذا الفارق شديد الأهمية سوف يبرئ الكثيرين منهم..

فنحن نتصور وجودهم.. هذا لا مشكلة فيه.. لكننا نتصور أيضًا أن "الفال" يصحو من نومه ليخاطب نفسه قائلاً: "حسنا.. هاهو ذا صباح ثوري جديد من هذه الثورة الملعونة التي خلطت الحابل بالنابل.. وفضحتني وتهدد مستقبلي.. لا بد أن

أحارب هذا التيار الجديد بكل ما أوتيت من قوة.. لا بد أن أفتعل مشكلة في البلاد: أن أهـدد الأرزاق.. أن أتـسبب في مـشكلة في الـسلع الأساسـية.. لا بـد أن أنـشر الشائعات.. من أين أبدأ؟ شائعة.. فتنة طائفيـة.. هـذا مقبـول ويلقـى رواجًـا.. بـل الأفضل أن تكون شائعة عن اعتداء ضابط شرطة على مواطن.. أو عن تواطؤ السلطة مع النظام السابق.. أي شـيء.. المهـم ألا تـنجح الثـورة العظيمـة أبـدًا ولا ينتـصر هـذا الشباب أبدًا ولا تتقدم مصر.. ولا تنهض الأمة.. بأي ثمـن... فدون ذلك الموت ولا شك!!"..

شيء من ذلك يجعلنا نتصور شيوع الفلول وكثرتهم.. شيء أيضًا من تباطؤ حكومات ما بعـد الثـورة في إنجـاز مطالـب الاعتـصامات سـواء الـسياسية منهـا أو المادية.. يعمق الفكرة في رءوسنا.. شيء كذلك من بروز هيئـة "الفلـول" علـى شـكل شبح مجهول يلعـب دائمًـا مـن وراء الكـواليس دون أن نـراه لم ونعـرف لـه شـكلاً واضحًا.. ربما أيضًا شيء من الإثارة التي أضفاها على الموضوع حديث الأستاذ محمـد حسنين هيكل الذي طرق موضوع الثورة المضادة وأسبغ عليها مهابة شديدة.. وربطها بإقامة الرئيس المخلوع في "شرم الشيخ" وجعل لها تفسيرات مثيرة مثل قرب المدينة من إسرائيل ووصف المكـان كلـه بأنـه "بـؤرة" ضـد الثـورة.. وبالتأكيـد أيـضًا فـشل الجماهير وعجز الحكومة عـن إدراك سبب عـدم تحـسن سـوء الحـال الـوظيفي أو الاقتصادي.. الذي تمثـل رداءة القـوانين الحاكمـة لـنظم العمـل والمرتبـات في مـصر

جانبًا أساسيًّا منه.. وليس فقط الحكومة أو المؤسسات التي تقوم على تنفيذها.. فلو أدركت الحكومة ذلك لشرعت في طرح "مشاريع قوانين" أو إصدار "قانون" لكل مشكلة مطروحة.. ولو استوعبت الجماهير ذلك لما تطوعت في كرم زائد بخلع لقب "الفلول" وتوزيعه يمنة ويسرة على كل من يتصادف مروره أو وجوده!!

إذًا هم ليسوا بهذه الكثرة.. ونعني بهم الفلول.. فـ"الفال" الحق لا تتسق نيته مع الشر بهذا الشكل.. وإلا يصبح كاللص الذي يقول لنفسه في آخر النهار: "اليوم سرقت مبلغًا كبيرًا من المال من موظف فقير معدم.. دون وجه حق".. فكيف باللص بعدها أن ينام ملء جفونه؟ وكيف بـ"الفال" أن يواصل الحياة بضمير مرتاح وهو يقول لنفسه: "هذه ثورة عظيمة نظيفة تريد الحق.. وأنا منتفع من فشلها.. وبذلك فسأحارب الحق"؟! لكن "الفال" الحق يقول لنفسه على الأغلب إنها "ثورة بلطجية" وثورة ضد الأخلاق والاحترام.. يشغل نفسه كثيرًا بصيحات التشفي في المسئولين الذين يحاكمون بتهم الفساد.. تملأ عينيه وأذنيه صرخات الشماتة في الوزراء الفاسدين.. ودعاوى التوسع في الإمساك برموز أخرى.. وفي تضييق الخناق على رجال الأعمال لأنهم "بالضرورة" فاسدون..

الفال الحق يدفعه خوفه من أن تطوله يد العقاب (لو كان مجرمًا) أو يد التنكيل والظلم (لو كان بريئًا).. الفال الحق يعيش في توجس أن يكتشف الناس علاقته بالنظام من مسئولية واستوزار ومديرين.. هذه العلاقة التي ربما أمنت له

غطاءً واهيًا من الحماية التي إما أنه احتاج إليها وإما لم تمثل له أكثر من "وجاهة" اجتماعية.. لذلك فالفال ليس بالضرورة ثريًا أو غنيًا أو وزيرًا سابقًا أو رجل أعمال أو ضابط أمن دولة سابقًا واسع النفوذ.. بل يمكن أن يكون "برجوازيًّا" من نوع آخر.. فالعمدة وصاحب المكانة في القرية أو المركز قد يجد نفسه "فالاً" بعد الثورة.. فهو من خلال قبلية وعصبية العلاقات في القرى قد نال بحكم انتمائه العائلي حظوة لدى السلطة والحزب والشرطة.. استفاد هو منها في دعم سلطته وتقوية مركزه ومركز عائلته.. واستفاد الحزب منه في ضمان نجاح مصالحه في المنطقة.. لكنه من خلال الثورة فقد ذلك كله.. ويخشى أن تذهب ريحه ويضيع سلطانه.. فكيف لا يكره الثورة ويبحث عن عيوبها ويضخمها؟ كيف لا يسعى إلى عودة نظام تعوَّد على الاستفادة منه وحفظ هيبته.. ناهيك عن الاستفادة المحتملة من هذه العلاقة مما كان يدخل في إطار "رأسمالية المحاسيب"؟

* * *

نوع آخر من الفلول هو الفال "المتلوِّن".. هو من مرَّ بكل المراحل السابقة من توجس وقلق.. ورأى مصلحته في فشل الثورة.. لكن – وبمهارة نفسية شديدة – أقنع نفسه أو ربما أقنع من حوله فقط أن كل ما حدث هو قمة النجاح بالنسبة إليه.. كان يعيش على هذا الأمل وكان لا يصحو إلا ليفكر فيه.. ولا ينام إلا ليراه واقعًا في أحلامه الوردية.. فكم من الوقت دعا الله أن تقوم الثورة.. ورسم في عقله تصورات كثيرة لحدوثها وانطلاق شرارتها؟

يسرف هؤلاء في لعن النظام السابق وتكثير عيوبه في القمع والفساد.. وامتداح الثوار وميزاتهم وفكرهم الوطني العالي.. ولكن يفعل ذلك أيضًا من باب "وضع السم في العسل" فيمرر أفكارًا هدامة كثيرة من نوعية "الطلبات مشروعة ولكن الترتيب أفضل" و"لا بد ألا نعتمد نغمة الإقصاء" عندما نتحدث عن حل الحزب الوطني مثلاً.. أو "لا بد من التمهل في مناقشة القرارات حتى لا تنهار الدولة" عند طرح تغيير الوزراء وحل المحليات وتغيير المحافظين.. أو "لا يوجد بلد في العالم من دون جهاز أمن دولة"..

يعتمد هذا النوع من الفلول على ضعف ذاكرة المحيطين به.. وعدم إلمامهم بتوجهه السابق.. انكشف من هؤلاء الكثيرون.. وأبلغ مثال عليهم هم رؤساء تحرير الكثير من الصحف التي كانت توصف بـ"القومية".. وهؤلاء ومعهم الكثير من مقدمي البرامج التليفزيونية شهدوا تحولاً فاجرًا في كتاباتهم وأحاديثهم بعد الثورة مباشرة.. لكن صاحب ذلك سلوك فلولي ممتاز لعب على محور إحداث البلبلة الفكرية وافتعال الأزمات وتضخيم المشاكل..

* * *

لا جدال على أنهم يفسدون الوطن.. لا خلاف على أن نيتهم ضد الثورة ونجاحها يتم تفعليها في صورة أفعال وأقوال وشائعات مغرضة وبلبلة فكرية مقصودة.. لا غرابة في أنهم يلجأون لتلك الأوتار للعزف عليها.. وعلى نغمات الفرقة وافتعال الأزمات الفكرية المختلفة.. والمتابع جيدًا يلحظ كيف ينشأ صراع

فكري وخلاف محتدم على اللاشيء ولعدة أسابيع.. ثم يهدأ فجأة ليحل محله – بعد راحة مماثلة – صراع آخر أكثر غرابة وسخونة.. فالأمر بدأ بالفتنة الطائفية حتى ظننا أنها لن تهدأ بعد عدة حوادث في أطفيح وإمبابة والأقصر وجرجا ثم هدأت في غرابة تتنافى مع ما تم تصديره لنا بعمق المشكلة في المجتمع.. لتبرز على السطح أزمات السلع الغذائية في ترتيب مريب.. بدأ بالخبز والبوتاجاز ثم السولار.. ثم سكتت عنها الصحف في موقف يتنافى مع استمرار بعضها.. والأهمية والشدة المزعومة لتلك الأزمات.. ثم معركة الدستور أم الانتخابات أولاً.. وكالعادة احتلت صدارة المشهد بامتياز.. ومن دون مقدمات جاءت أزمة محاكمات الشهداء ومليونيات التحرير.. وتغيير الوزراء وحركة ضباط الداخلية.. وسكب الزيت على النار بالبحث في ماضي الوزراء الجدد عن أي علاقة بالنظام البائد.. وتضخيم ذلك حتى لو كان تافهًا وغير أكيد.. ثم الضغط باستمرار في اتجاه إحداث مشكلة بين الجماهير والمجلس العسكري.. فعندما فشلت ورقة العنف مع المتظاهرين في 8 أبريل بعد اعتذار الجيش رسميًا على صفحته تحت عنوان "اعتذار ورصيدنا لديكم يسمح".. جاءت دعاوى "كشف العذرية" – على الرغم من أن تاريخها يرجع لما هو أقدم من ذلك – وعندما لم تؤت الأثر المطلوب.. جاءت اعتصامات 8 يوليو لترفع شعارات مدسوسة ضد المشير.. وعندما اعتذر شباب الثورة عن ذلك بوضوح.. وعندما بدا أن الأمور قد هدأت بعد إقالة الوزراء وحركة الداخلية.. جاء من ينشر في الصحف والبرامج برفع لهجة التهديد بعد إشارة الإصبع الشهيرة من اللواء محسن

الفنجري.. وبعد أن أوضح المجلس أن المقصود منها كان من هدد بقطع قناة السويس مع ما يحمل ذلك من مدعاة للاستفزاز الدولي ضد غلق معبر حيوي أمام الملاحة.. جاء من يحيي من جديد نغمة تواطؤ الجيش في تعطيل المحاكمات على الرغم من أنها مدنية.. وحمايته بذلك لرموز الفساد من النظام وعلى رأسهم مبارك.. وجاء من يشكك في جدوى وثيقة المبادئ "فوق الدستورية" التي يطرحها الجيش.. وهكذا دواليك.. أوراق متتابعة يبرزها الفلول من أبواقهم الإعلامية المرئية والمقروءة.. في صورة بلبلة مقصودة.. وتعطيل متعمد لمسيرة مصر نحو الأمام.. ومزيد من الإيحاء بعدم جاهزية التيارات الجديدة للديمقراطية وأنهم "لسه بدري عليهم" إلى أن يتفقوا على كلمة فيمن بينهم.. أضف إلى ذلك أن البلاد ينفلت فيها الأمن وتحيط بها المؤامرات من كل جانب.. فتصبح الثورة وأمورها "ثانويات" لا أولوية لها.. وربما يصبح أيضًا من الأفضل إلصاق هذه المشاكل بها..

هذا هو السيناريو الحقيقي لعمل الفلول في مصر الثورة.. هذا هو السيناريو الذي لا يعني أن "الحقيقيين" منهم كثيرون.. إنهم بالفعل قليلون.. لكن مع ذلك.. وكما نوضح في الجانب الثاني من الحقيقة.. فالفلول في مصر كمفهوم عام كثيرون.. كثيرون جدًّا بشكل لا تتخيله.. هذا هو التناقض الذي أدركه عقلك منذ قليل.. وهذا هو الذي أشرحه فيما يلي..

* * *

فكما أن "الرجولة" لا تستدعي أن تكون رجلاً.. بمعنى أنه توجد إناث يتصرفن بشهامة و"جدعنة".. جعلن المصريين يخصصون لذلك مثلاً من أمثالهم.. قائلين عمن هي مثل ذلك إنها "ست بميت راجل".. وكما أن "الذكورة" كجنس لا تعني بالضرورة أن تكون "رجلاً" بمفهوم السلوك والمواقف.. مثل ذلك.. فالانتماء للفلول لا يعني بالضرورة أن تكون معاديًا للثورة من منطلق الحفاظ على مصالحك.. لا يعني أن تفتش عن عورات الثوار ومساوئ الفكر الثوري.. وانحراف الثورة إلى معارك فرعية.. من أجل تشويه صورتها.. خوفًا على نفسك وحماية لها من أن تطولك يد الحساب.. لو تغير الحال ووصل إلى حكم مصر من ينتهج حكمًا رشيدًا ويرعى في أهلها الحرمة والمال..

ليس ذلك ضروريًا لأن تكون "فالاً".. بل أن يكون لديك هدف آخر.. ونمط تصرف آخر تمامًا..

فالأشخاص الذين نقابلهم في حياتنا كل يوم أمثلة صارخة على الفلول.. فالشخص الذي ينشر أخبارًا صحيحة ويقسم على صحتها لكنه ينشرها في المكان الخاطئ والتوقيت الخاطئ.. وربما بشكل مبهم لا يحمل توضيحًا لازمًا.. ينشر الذعر والبلبلة.. ويفتح بالخبر بابًا واسعًا لتبادل الاتهامات وفقدان الثقة في هذا وذاك هو ولا شك "فل" من الفلول ربما وهو لا يدري.. حدث ذلك في مصر كثيرًا وأشهرها من الأخبار خبر تلقي الجمعيات الوطنية ومنظمات الشعب المدنية لمبالغ

تفوق الأربعين مليون دولار كمساعدات أمريكية.. هو خبر صحيح ولكن لم يوضح فيمَ استُخدمت.. ولماذا تم دفعها.. وهل هذا الأمر كان له علاقة مباشرة بتمويل الثورة.. التي نعلم ونجزم جميعًا بأن شرارتها واندلاعها حتى أسقطت رأس النظام كان حدثًا مباغتًا للعالم كله وليس الولايات المتحدة فقط.. التي كانت تدعم هذا النظام حتى في أثناء الثورة وتنتقل في ارتباك واضح بين تصريحات "السلطة في مصر مستقرة" إلى "تسليم سلمي للسلطة الآن".. فبمَ نسمي من يفتعل هذه البلبلة؟

شخص آخر تقابله لا يكاد يراك حتى يبدأ في الحديث بحماس عن أزمات السلع.. وعن الفساد في التعيينات.. وعن تضارب التصاريح الحكومية.. وعن مشاكل التصحيح في الثانوية العامة.. وحتى في حديثكما معًا عن الثورة.. تجده يشاركك الحماس عن التحدث بضرورة سرعة المحاكمات ومحاسبة الفاسدين.. لكنه يخلص إلى النتيجة التي يفضلها والتي يلخصها في جملة شهيرة "مفيش فايدة.. مفيش حاجة اتغيرت.. مصر هتفضل زي ما هي".. وهو تكسير للحماس وتهبيط للعزيمة وتثبيط للهمة.. وفي رأي مريد البرغوتي.. فهذه الجملة "مفيش فايدة" هي أكبر خيانة لدم الشهداء.. فماذا نسمي هذا الشخص الذي أشرنا إليه؟

شخص ثالث على مستوى راقٍ من الثقافة والقدرة على التحاور العقلي والنقد الفكري المنظم.. تجده يتحرى الدقة في أي معلومة تصله أو يقرأ عنها.. إلا أنه وفي زخم الأخبار المغلوطة التي تتضارب معها الصحف والبرامج.. تجده يصدق

أي شيء سمعه.. وبخاصة لو كان سلبيًّا مغلوطًا.. بل ويشك عندما يتم نفي الخبر وقد كان غير منطقي من الأساس.. فماذا نطلق على من لا يتحرى الدقة فيما لا يريد له أن يكون دقيقًا؟

شخص رابع يتحمس لنظريات عجيبة.. فتجده يشكك في أن الشهداء هم بالفعل شهداء.. من الناحية الشرعية.. وينتقل في حديثه إلى التشكيك في مقتلهم على أيدي الشرطة من الأساس.. ويتورط في التقليل من جرائم الهجوم عليهم.. ويعظم من هجوم البلطجية على الأقسام.. ويأتي ذلك كله متتابعًا لا تكاد تفند له حجة إلا ويدفع هو بالنظرية التالية.. كأن الهدف ليس النقاش وإنما هو فرض رأي معين: "هذه لم تكن ثورة وهؤلاء لا يستحقون الاحترام.. وهم المسئولون عن فوضى البلاد الآن.. فيا ليت ما جرى لم يكن".. وهو لا يدري أنه يفرغ الخامس والعشرين من يناير بذلك مضمونه ويتورط في إلصاق تهم بالثورة لا يستقيم معها المنطق فهي لا تحكم البلاد وغير مسئولة عن العباد.. فبمَ نسمي ذلك؟ وهو في الأصل تلمح عدم اقتناعه بهذه النظريات.. فهو يجادل لهدف آخر..

شخص خامس مغرم بسيناريوهات المؤامرة مرة أخرى.. يرى كل ما يحدث الآن "سيناريو" معدًّا بمهارة.. تتنوع هوية "كاتب السيناريو" في نظره.. فهو إما النظام القديم وإما "الفلول".. وإما مبارك نفسه.. وإما الجيش.. وإما أمريكا.. وفي الأحوال كلها فإن "كاتب السيناريو" يقف في الظل وراء الكواليس..

يملأ شدقيه ضحكًا على غبائنا.. وينتظر اللحظة المناسبة ليظهر فيها على استحياء.. وتكون "الفأس" قد وقعت في "الرأس".. لكن السيناريو مهما بلغ ذكاؤه لا يفوت على صاحبنا هذا.. الذي يراه واضحًا كما ترى أنت هذه السطور الآن.. وهو لا يدري أنه بتصوره هذا واستسلامه له ووقوفه في خانة "غير الثوار".. إنما يستهين بذكاء أمة كاملة.. ويسهم في نجاح هذه "المسرحية المزعومة" إن وجدت.. فبمَ نسميه بالله عليك؟

شخص سادس هو مزيج من التشاؤم وتصيد أخطاء الثورة وأزمات المجتمع.. يلقي بها في وجهك وهو يقول في رتابة كل مرة: "أنا مش عاوز أسد نفسك.. بس قول لي انت ده معناه إيه طيب".. يرى في كل أزمة كارثة وانحرافًا شديدًا عن مسار شديد النجاح كان يفترضه للثورة.. يستوي في ذلك الحديث عن نتيجة الاستفتاء أو أزمة الدستور.. والحديث عن الصغائر مثل أزمة السولار أو صعوبة امتحان اللغة الإنجليزية في الثانوية العامة.. وكلها أمور تقع من وجهة نظره في خانة "عيوب الثورة" وآثارها الجانبية.. و"آدي اللي خدناه من الثورة".. وكأننا في رغد من العيش كنا نحيا.. وفي بحبوحة من الحياة كنا نرفل.. وكأن ثورة على نظام فاسد استشرى في البلاد من المفترض فيها أن تسير بهدوء ناعم دون أن يحس معها بأزمات أو خلافات فكرية.. وكأن نجاة الدولة بمؤسسات ثابتة وبنية تحتية لم تمس.. هي أمور عادية بعد ثورة شعب أطاحت بنظام كامل.

ماذا نسمي كل هؤلاء؟ وهم كثير كثير..

نعم.. إنهم الفلول!!

كما أن الرجولة ليست جنسًا.. فالفلول ليسوا فقط جماعة تدافع عن مصلحتها.. وإنما هم من يضرون بمصلحة الوطن.. لأنهم ما زالت تملؤهم أنماط فكر وضمير نظام سقط.. هم من يؤذون مصر بقصد أو من دون قصد..

إن من يدافع عن مصلحته قد نلتمس له عذرًا ولا نسامحه.. أما من يضر بالبلاد بمواقفه وكلامه المحبط وخياله الكسول.. فلا عذر له ولا سماح!!

* * *

لذلك فالفلول الحقيقيون نادرون.. إذا قِسناهم بمقياس المصلحة الخاصة لكل منهم.. لكننا لو نظرنا لمقياس الإضرار بالمصلحة العامة لمصر فلا يسعنا إلا أن نقول في جدية: "يا عزيزي.. كلنا فلول"!!

التحليل النفسي للفلول الشعبية

كيف تتشكل نفسية الفلول بعد ثورة يناير؟ ما الأسس التي تتكون عليها طرق تفكيرهم؟ أرى أن معظم الفلول "الشعبية".. وهي الطبقات التي كانت منذ البداية لا تنتمي للثوار ولا للنظام.. هم الناس البسطاء.. من موظفين وعمال وطلاب وربات منزل وشباب وكهول.. هؤلاء الذين فرحوا بالثورة في أغلب الحال.. نظروا إليها بخوف في بعض الأحيان.. كرهوا الثوار عندما طال اعتصامهم في الميدان.. وأيدوهم وتعاطفوا معهم عندما سقط منهم الشهداء.. تأرجحت مشاعرهم طوال الوقت من البكاء.. تعاطفاً مع مبارك بعد خطابه العاطفي الشهير.. وبين الخروج هاتفين بسقوطه بعد موقعة الجمل.. دارت أحاسيسهم في أفلاك السخط على استمرار الاعتصامات.. وفي أفلاك احترام الثوار بعد إقالة وزراء النظام السابق.. وحل أجهزة أمن الدولة.. وتطهير الداخلية.. وغيرها من الطلبات التي تحققت استجابةً لإصرار المعتصمين.. وصبر الثوار على تنفيذ أهداف الثورة..

هؤلاء هم "الفلول الشعبية"..

الفلول الشعبية قطاع مهم جدًّا من الفلول يهمله الجميع.. هو القطاع الذي يفهم كل ما يدور حوله بذكاء لا تتوقعه ولا يهتمون هم بإظهاره.. لكنهم مستسلمون لا يحركون ساكنًا إلا عندما تصبح الأمور غير محتملة.. أو عندما تتأثر كرامتهم الشخصية والوطنية بشكل فج ومباشر.. يثورون ويتحركون في قوة ناعمة بالغة الأثر.. عندما لا يصبح هناك مهرب من الثورة.. وعندما تصبح "ظهورهم ملتصقة بالحائط" كما هو التعبير العامي الشائع.. هم يميزون الحق تمامًا عندما يرونه.. يعرفون صدق النية في كلام محدثهم.. ويستطيعون فهم النية الصادقة ويشتمون رائحتها في أي حوار.. يفعلون ذلك في براعة وهدوء..

فما الذي حدث لينقلب هؤلاء "الفلول" إلى مؤيدين لإخلاء الميادين من الثوار.. غير عابئين بمطالب الثورة أو أهدافها؟

ما الذي تغير في تفكير "الفلول" التي لم تكن "فلولاً"؟

ما الذي حول جملاً بعينها كانت تقال بعد الثورة مثل "بلدنا رجعت لنا تاني".. "ما حدش هيرمي زبالة في الأرض تاني".. "حكاية مسلم ومسيحي دي بقى خلاص عيب أوي حد يتكلم كده تاني".. "ما هو لما شباب رجالة ينزلوا ويموتوا علشانا.. المفروض علينا نشيل البلد في عينينا".. وكلها جمل ومعانٍ تدل على عودة مرجعيات الوطنية والانتماء للوطن.. والحق والشجاعة وإعلاء المصلحة العامة على الشخصية.. وعودة الحس الديني والوطني معًا في مزيج طبيعي.. ما الذي حوَّل هذه

الجمل إلى أخرى أخذت تتصاعد في هدوء ويعلو صوتها تدريجيًّا حتى ملأت الأبصار والأسماع.. جمل مثل "كفاية بقى".. "وقفتوا حال البلد".. "شوية عيال مش لاقيين شغل".. "شوية صيع".. "مش عارفين هم عايزين إيه".. وهي توحي – بكل وضوح – كم ابتعد أصحابها عن روح الإصرار على تنفيذ مطالب الثورة.. وكيف افتقدوا القدرة على التمييز بين السبب في الاعتصام و"وقف حال البلد" الذي تمثل في البطء الذي يحمل رائحة التسويف من جانب الحكومة.. وبين النتيجة لذلك وهي الاعتصام نفسه وإعادة التذكير بمطالب الثورة..

* * *

إذا حاولنا تقييم الأسباب التي أدت إلى تحول "الفلول الشعبية" إلى تلك الحالة.. فيجب علينا – من باب الإنصاف – أن نسوق أسبابًا تتعلق بالثوار أنفسهم.. وعدم قدرتهم على التواصل مع هذه الجموع.. التي خرجت لتأييدهم بالآلاف.. فقط بعد أن استشعرت عدل قضيتهم.. فألقت بالخوف والاستسلام جانبًا.. وتخلت عن حذرها.. واندفعت بالآلاف – بل والملايين – تؤيد الثورة.. فلما تنحى مبارك ظن الثوار والجموع – كلاهما معًا – أن هذا مدعاة للاحتفال وترك الميادين.. أو أن بقية المطالب.. من إسقاط النظام وحل أجهزة الدولة الفاسدة وإقامة حياة اجتماعية عادلة.. كلها مطالب "مفهومة" لا تحتاج إلى ضغط شعبي لتنفيذها.. أو إلى مظاهرات أو اعتصامات للتذكير بها..

كانت فرصة ذهبية ضاعت على مصر.. كان يمكن لاستمرار الاعتصام أن

يؤتي ثماره في وقت قصير.. إلا أن المشكلة كانت في ضعف التواصل بين الثوار وجماهير الشعب.. فالثوار عندما أدركوا ضرورة مواصلة الضغط الشعبي لتنفيذ المطالب وحماية الثورة.. وجدوا أن التأييد لهم أقل من المتوقَّع.. فلم تعد الملايين تخرج معهم مثل أيام مظاهرات "يناير" وأوائل "فبراير".. بل أصبحت آذانهم تلتقط نغمة عدم الفهم لأسباب التظاهر وعدم استيعاب ضرورته.. وربما استهجان استمرارهم في الإصرار.. بحجة مصلحة الاقتصاد وحال البلد وغيرهما.. وبدأ الثوار يلاحظون الفارق بين استجابة بعض هذه الطوائف الشعبية في تنظيم الاعتصامات الفئوية لزيادة المرتبات وإعمال مطالب شخصية.. وبين تقاعس هذه الفئات نفسها في تأييد المطالب الوطنية والمصالح العامة.. فيزيد الشقاق بين الثوار والجماهير.. ويزيد اقتناع الشباب بأنهم "وحدهم" في المعركة.. وأن هذه جماهير "لا تفهم".. ولا تضحي براحتها واستقرارها وتريد فقط حصد الثمار وجني النتائج..

* * *

كان يجب على الثوار أن يبحثوا لأنفسهم عن منبر ليتواصلوا به مع الجماهير.. لإيصال أفكارهم لهم.. كان يتوجب عليم احتضان الفئويات ومراعاتها.. والتواصل مع هذه الجماهير التي دعمتهم.. وذلك لتوحيد الصفوف وضمان استمرار دفعة الثورة وطوفانها للأمام.. كانت الفرصة مهيأة لذلك فيلتحم الثوار بالجماهير في نفس المشاكل والمطالبات والخطط والإصرار..

لكنهم لم يفعلوا..

أستشهد هنا بمقال أ. كارم يحيى بجريدة "الأهرام" يوم 15 يوليو 2011 الذي قال فيه: "إن الجمهور ليس بمعطى ثابت لا يتغير.. وإن ميول مكوناته مع التغيير تتفاوت وفق تنوع المصالح ودرجات الوعي"..

وأتطوع بالرد على الأستاذ من وجهة نظري..

الشعب هو هو.. ولكن كيف تمد إليه يدك؟ هو الذي يحدد كيف يستجيب.. فاليد الثائرة غير المترفعة عن مشاكل البسطاء.. اليد الصادقة في توجهاتها.. المتحدة في حديثها.. الواضحة والحاسمة في مطالبها.. والملتحمة بالشعب البسيط بدافع حل مشاكل فعلاً.. وليس الاستقرار به سياسيًّا أو الترفع عن مطالبه لغايات "أسمى" و"أعلى" و"أكثر أولوية".. هذه هي اليد التي سوف تجد هذا الشعب الثائر المجدد المبدع.. في ربوع مصر المحروسة..

* * *

وعلى جانب الجماهير.. أسهمت عوامل كثيرة في تحويلهم إلى "فلول شعبية"..

أول هذه العوامل هو الاستسلام لضغط الإعلام السلبي.. الذي وصف الشباب الثائر بأنهم مختلفون ومتعددو الائتلافات.. وأن طلباتهم لا تنتهي.. على الرغم من أن المطالب لم تختلف منذ اليوم الأول للثورة.. هذا الإعلام الذي واصل في التشكيك في نزاهتهم بالترويج لتهمة الجاسوسية والعمالة.. خاصة حركة "6 أبريل"..

والذي ركز على الحالة الاقتصادية المتردية للبلاد.. دون أن يفصل بينها وبين استمرار الاعتصامات.. وكأن الانفلات الأمني من صنع الثورة.. وكأن "البلطجية" هم ثوار تم إطلاق سراحهم.. وكأن "حفظ الأمن" والحديث المنظم المجدي عن ذلك هو بمثابة "خط إعلامي أحمر".. يخشى الجميع الحديث عنه.. على الرغم من أن الجميع أيضًا يعلم أنه المسئول عن تدهور مسار الإنتاج.. وضعف الاستثمار وزيادة إحساس الجماهير بالعبء الذي تشكله الاعتصامات التي تم ربطها - بمهارة إعلامية - بالانفلات الأمني!

نقطة نفسية مهمة أخرى ميَّزت الجماهير في تلك الفترة.. نقطة شديدة الخطورة نستطيع أن نسوقها هنا.. لتفسير خلفية تحول الجماهير إلى "الفلول الشعبية".. هذه النقطة هي عدم تصديق أنه قامت ثورة حقًّا.. هذا الوضع من عدم التصديق يشترك فيه أناس كثيرون في مصر.. فالفاسد الذي يرفض تصديق أنه يجب عليه أن يتوقف عن السرقة وقبول الرشوة والإفساد لأننا بصدد عهد جديد "نريد" فيه فعلاً وطنًا صحيحًا سليمًا لا سقيمًا عليلاً.. والمسئول السابق الذي يرفض تصديق أننا في عهد جديد يجب عليه فيه أن يتوخى العدل في أحكامه وتصرفاته.. وإلا انقلب مرءوسوه عليه.. والموظف الذي كان يتعمد معاملة الناس باستعلاء وتعطيل مصالحهم.. يرفض الاعتراف بأنه لن يتمكن من إصدار قرارات ظالمة بعد اليوم.. فلا الظرف النفسي للجماهير يتقبل ذلك ولا المرحلة المقبلة تتحمله.. ومأمور قسم الشرطة في "الوادي الجديد" الذي توجه إلى السوق لفرض إتاوة اعتاد عليها قبل

الثورة فثار الناس وأحرقوا القسم.. كل هذه أمثلة لعدم التصديق وعدم الاستيعاب.. كذلك من كان يرفض مبدأ الثورة لأنها "فتنة" أو خروج على الحاكم.. يرفض التصديق ويسعد بكل مظهر فوضى يثبت له كم كان محقًا وحكيمًا في رأيه..

أما الجماهير.. فعدم ثقتها في التغيير.. وميراث الظلم و"لا فائدة" الشهير.. ذلك كله يدفعنا أكثر إلى ضرورة الالتحام بهم.. وإلا صاروا "فلولاً" يرفضون التغيير لمجرد أنه ضد قناعتهم التي تقضي بأن كل شيء سيظل على ما هو عليه لأنه "هي دي مصر".. و"مفيش فايدة".. يرفضون التغيير لأن أي تغيير يهز ثقتهم في هذه القناعة السلبية الرهيبة.. يرفضونه فلا يؤيدونه.. يرفضونه فلا يأتي.. ولا يحدث أبدًا!!

* * *

كانت المحصلة لهذا اللغط الإعلامي المتعمد هي أن بدأت الجماهير تفقد الثقة في الثوار.. تفقد استشعارها لنغمة الصدق والنزاهة والتجرد من أي غرض.. والتي كانت قد التقطتها بذبذبة عالية في أوائل أيام الثورة.. ساعد على ذلك إحساس الجماهير بانفصال هؤلاء الشباب عن مطالب الجماهير أنهم لم ينزلوا إليهم.. لم يوجدوا لهم حديثًا أو منبرًا إذاعيًا.. ولم يشاركوهم مطالبهم الفئوية أو اعتصاماتهم.. بل انشغلوا في حديث مع المجلس العسكري أو الوزراء أو أحاديث مقتضبة في المجلس الوطني.. فأضفى عليهم ذلك المزيد من قناع التكبر أو الاستعلاء والانفصال عن الناس.. لكن رد فعل الجماهير جاء كامتداد طبيعي نفسي للمشكلة

الأكبر في التكوين النفسي للجماهير.. عادة أصيلة في المصريين هي "قصر النفس" في المطالبة بالحقوق أو الصبر على الأزمة.. فبعد الثورة تخيل الجميع أن مصر سوف تنقلب إلى جنة في خلال أسبوع أو اثنين على الأكثر.. ولكن لم يكن لأحد من "طول نفس" أو "صبر" على ذلك.. ثم جاء الخطأ الذي نقصده.. وهو أن الناس في خضم ذلك وفي وسط أزمة الوطن واضطراب أوضاعه (في ظل تغيير يأتي ببطء يحمل رائحة التنصل من الوعود وتأجيل الحسم.. وفي إطار أمن عزم على الانتقام من الجماهير التي ثأرت لكرامتها المهدرة تحت أقدام الفاسدين.. وتحت وطأة أزمة عيش لم يزدها الوضع القلق إلا سوءًا).. في وسط ذلك كله.. كان طبيعيًّا أن تنسى هذه الجماهير دروس الثورة الرئيسية.. التي لو كانت حية في رءوسنا جميعًا لما كان هناك بيننا "فلول شعبية" كما نزعم ونشير فيما سبق.. هذه الدروس النفسية الرئيسية.. التي لا بد أنها استقرت في وجدان المصريين على الرغم من غيابها هذه الأيام عن وعيهم.. هما درسان رئيسيان:

الشجاعة في اتخاذ الموقف الصحيح والقول الحق والفعل السليم.. ثم الانحياز للحق مهما كانت الظروف والضغوط والصعوبات..

هذا هو ما فعله ثوار 25 يناير.. هذا هو ما تعلمه الناس منهم رويدًا رويدًا.. وعندما انتهى مشهد التنحي الذي شاركنا فيه جميعًا.. إذا بنا ننسى هذا الدرس..

ماذا يمكن أن يفيدنا تذكرنا لهذين الدرسين.. ووضعهما في بؤرة شعورنا وتفكيرنا مرة أخرى؟ كان ذلك سوف ينعكس على تأييد الناس لمطالب الثوار.. وفهمهم بشكل أسهل لمشروعية المطالب.. فكم واجهنا من استنكار شعبي واستهجان لاستمرار الاعتصام من أجل حل أمن الدولة.. ومن أجل حل المحليات.. ومظاهرات جادة لتغيير المحافظين.. كم شبعنا محاضرات شعبية وكلمات من أناس بسيطة صادقة.. عن جدوى المطالبة بإقالة الحكومة وعن فائدة الانتظار لأشهر قليلة أخرى.. كم سمعنا استغرابًا لاعتراض الثوار على بطء بدء محاكمة مبارك.. على الرغم من أن العجب كان لا بد أن ينشأ عن الفترة التي استغرقتها بدء المحاكمة بالمقارنة بالفترة التي استغرقتها بدء محاكمة سفاح "النرويج".. الذي أطلق النار على **93** من شباب حزب العمل في يوليو **2011**.. فنجد أنفسنا نقارن بين ستة أشهر ويومين!!

كان التمسك بالشجاعة والحق في التفكير والضمير والسلوك.. ليحمينا من اعتداءات العباسية.. ومن أحداث موقعة الموتوسيكلات **6/28** و**7/2**.. بل كان الحق والشجاعة هما طريقنا لنجاح الثورة في زمن قياسي..

فهل هناك من سبيل بعدُ لنستعيد جماهيرنا التي صارت فلولاً شعبية "بامتياز"؟!

الحل هو الاتحاد في الخطاب الثوري للوصول لهذه الجماهير الذكية

النابهة.. عدم التكبر عليهم بحجة أنهم لا يفهمون مصلحتهم.. فهم يفهمونها جيدًا.. عدم الابتعاد عنهم لأنهم لا يفهمون في السياسة.. فهم واعون بالسياسة أكثر مما تتخيل.. الالتحام بمشاكلهم وتبنيها.. بحيث تجد حلولاً لقطاعات عريضة من الجماهير من خلال بوابة الثورة ونوافذها.. فهذا هو سلوك من يفهم في السياسة حقًا.. لا قولاً!!

نلجأ إلى ذلك الحل.. الاتحاد في الخطاب الثوري والنزول للجماهير.. في ظل إعلام رسمي يعمل إما بدافع خيانة الثورة وإما عدم القدرة على أداء الدور المهني السليم.. إعلام احترنا في ضميره وفكره وسلوكه التي لا تنتمي لضمير أو فكر أو سلوك وطني سليم.. لكن هذا حديث آخر..

الحوار مع الفلول وحزب "آدي الثورة" أو "مؤامرة الثورة"

أكبر مظهرين اجتماعيين ميّزا "الفلول" في مصر هما الدفاع عن مبارك.. وعن "الحزب الوطني".. وعن أعضائه السابقين.. قبل وبعد حل الحزب.. دفاعًا عن دخولهم إلى الانتخابات.. إما كمستقلين وإما كأعضاء في أحزاب جديدة..

نتحدث هنا عن "الفلول" من منطلق أنها ليست تهمة.. لكنها "سمة".. تميز من لا يدرك جوهر الثورة ووجاهتها.. من لا يزال ينكر أنها حدثت.. ويتشبث بالخوف من التغيير.. لأنه اعتاد الحاضر أو يخشى أن تطوله أيادي هذا التغيير وسماته.. لكن الإفراط في استخدام مصطلح "الفلول" جعل البعض ينكر وجودهم أصلاً.. أو يتحيز لهم بقوة.. باعتبارهم يرفعون لواء الشرف.. ويتمسكون بحق لا يخجلون منه..

في جريدة "الأهرام" كتب أ. أحمد البري بتاريخ الثاني من يوليو 2011 متهمًا وسائل الإعلام بالمبالغة في استخدام شماعة الفلول وتعليق أي تصادم بين

المتظاهرين والبلطجية في ميادين مصر أو "ماسبيرو" على هذه الشماعة.. يواصل أ. أحمد البري كلامه قائلاً: "ولا أدري عن أي فلول يتحدث هؤلاء.. فهذا الحزب مات وشبع موتًا وكل رموزه قابعون الآن في سجن طرة.. فكيف إذًا يكون الجناة من أعضاء هذا الحزب؟"..

يواصل المقال الحديث المحزن.. متهمًا المتظاهرين بأنهم "عدة مئات".. يرفعون شعارات خاصة بهم لا تعبر عن الشعب المصري.. حيث لا يمثلون (أي نسبة ولو ضئيلة من جموع الشعب المصري البالغ عدده 80 مليون نسمة) مضفيًا بذلك صفة "البلطجية" على الثوار أنفسهم.. ومغفلاً حقيقة ما ذكرناه.. من ارتباط سلوك "الفلول" بمصلحة "الفال".. وخوفه من الحساب وذهاب السطوة.. مما لا يستثني نواب الحزب المنحل كذلك.. لخوفهم من امتداد الحظر السياسي لهم.. بل ولا يستثني كل من كان "محظيًّا" من النظام السابق كما أوضحنا.. بل إن نقطة "الحظوة" هذه هي التي تميز الفلول أكثر من نقطة "الكفاءة".. والتي بسببها التصق اسم البعض بالنظام.. وتم تصنيفهم بالفلول ظلمًا.. وهم أناس "أكْفاء" تقلدوا مناصب "تنفيذية" لكفاءتهم..

مثال آخر لحديث الفلول نراه في صفحة "أنا آسف يا ريس".. التي ضمت أيضًا من أطلقوا على أنفسهم اسم "أبناء مبارك".. ممن تحيزوا للتجمهر أمام مقر محاكمته وضرب أهالي الشهداء.. تلك الصفحة التي خصصها أصحابها للدفاع عن مبارك وإعلان حبهم له.. ونرى المثال واضحًا في الحديث التالي بين الأعضاء.. في

حوار كان عنوانه "ما معنى كلمة فلول؟": تم إرسال 104 تعليقات في فترة لم تتجاوز الأيام الثلاثة من العاشر إلى الحادي عشر من يونيو.. كان يبدو على المشاركين إدراكهم التام أنهم هم المقصودون بالكلمة.. لكن هذا الإدراك دفعهم للدفاع عن موقفهم.. وتوضيح وجهة نظرهم.. بطرق مباشرة أو غير مباشرة.. ونسرد أهم وأطرف التعليقات فيما يلي: علق أصحاب الانتماء الحقيقي للفلول قائلين في تعليقات لا ينقصها الانفصال عن الواقع.. والانتماء العجيب لرجل أهان الوطن وخرب البلاد:

"والله ما اعرف بس الكلمة دي ما سمعتهاش إلا في أيام النكسة بس أيام نكسة 25 يناير"..

"الناس الأقلية المحترمة التي تصون الجميل وتحترم الكبير"..

"ولاد الأصول"..

"شماعة بيعلقوا عليها أي حاجة غلط في البلد حاليا وابقى سلملي على الفلول"..

"الفلول يعني المصري الأصيل يعني اللي اتربى على الأخلاق.. يعني غير (الدلدول) والتابع لحد اللي بيفكر بعقل وبيحترم كبير السن والمريض والضعيف.. الفلول يعني إحنا وكل واحد واقف في وش كلاب التحرير ومن والاهم.. وبيقول كلمة حق مش مراد من وراها باطل.. الفلول يعني دم الشهداء الصحيحين اللي

طهروا أرض سينا واللي هيطهروا مصر لسة.. الفلول يعني الحيااااااااااااااااااة"..

"هو المفروض الفلول دي بتطلق على بقايا المنهـزمين وعـادة بيبقـى عـددهم قليل جدًّا.. أما في حالتنا دي فالوضع اتعكس.. عددنا كبير جدًّا وعلى الرغم من ذلك اتقال علينا فلول.. وفي الوقت نفسه مش منهزمين.. بدليل إننا 77٪ بس.. أيا كـان اللقب ده بقيت أحبه جدًّا.. فلول وأفتخر"..

"فلوووول.. البقية المتبقية للـضمير وعـزة الـنفس وحـب الـوطن.. البقيـة المتبقية للأصالة ورد الجميل"..

"الفلول كلمة مصرية بمعنى داعمين مبارك اللي هم إحنا ويجـب علـى كـل فلة مننا انه يعتز بفلوليته.. أما لو عايزين معناها فهو البقايا"..

"معناها الأغلبية المحترررررررررررررررررررمة"..

"على فكرة يا جماعة.. إحنا مش بس بنحب الريس بـس إحنـا لم نخـرج عليه والخروج عليه حرام.. مهما قالوا أصحاب المصالح.. وكلمة فلـول.. بلطجيـة.. مخلوع.. ثورة مضادة.. هي مسميات المقصد منها أنهم يخيفون من يـتكلم ويـصفونه بالعار فيتوقف عن الكلام فـلا يـسمعون غـير أصـواتهم.. بـس علـى مـين إحنـا مـا بنخفش غير من اللي خلقنا وبنرد غيبة مظلوم أمام من ظلموه"..

"معنى الكلمة يعني بقايا الجيش المهزوم.. أما الآن وبعد نكـسة 25 ينـاير فالكلمة معناهـا كـل الـمشتركين في الـصفحة دي النـاس المحترمـة فقـط.. أمـا اللـي

بيدخلوا يطولوا لسانهم فليهم أوصاف تانية... لك الله يا مصر ويا رب بحق هده الجمعة المباركة نسمع أخبار تشرح صدورنا عن الريس"..

"فلول معناها ناس بيحبوا مصر بلا أجر أو أغراض دنيئة.. وفي القاموس: ناس بتحب رجل اسمه حسني مبارك أحب وطنه وأخلص له وأحاطه بالأمن والأمان"..

"يعني ناس عندهم أصل ومش قادرين ينكروا الجميل ولا يقلوا أدبهم على اللي حماهم"..

بينما جاءت بعض الردود من غير الفلول الذين تصادف وجودهم على الصفحة:

"أنا من القلة المندسة.. وبالتالي ماعرفش يعني إيه فلول"..

"أعداء الثورة.. الانحياز لمقولات النظام السابق.. اتباع أمور النظام البائد.. أنصار الرئيس مبارك"..

لم يخلُ الأمر من ردود عدوانية: "يعني كل شعب مصر ما عدا خونة التحرير والمغسول دماغهم اللي ماشيين وراهم".. "أخبار سيدك مبارك إيه يا عبد انت وهو؟".. "فلولي وأفتخر واللي مش عاجبه ينتحر".. "بكل بساطة اننا شباب أهالينا ربونا تربية صح.. من الآخر إحنا ولاد أصول مش ولاد كلب".. وبعض التعليقات الطريفة: "الفلول كلمة أعجمية وقد حرفها العرب من معناها الأصلي

وهو الفلافل ويقصد بها الطعمية".. "ف + لول = ف حرف جر.. ولـول اللـي هـي (lol).. يعني في الضحك"..

* * *

لو كنت تحس أنك مؤيد لفكر هؤلاء.. أو أن الدم يغلي في عروقك لمنطقهم.. وتحتار في كيفية الرد.. فلا بد أنه يستوقف نظرك الجزء التالي من حديثنا..

أنا آسف يا ريس.. "باردون" بقى يا مصر!!

وليس يصح في الأذهان شيء.. إذا احتاج النهار إلى دليل (المتنبي)

تجدهم في كل مكان في مصر..

تسمعهم في مجالس كثيرة.. وتشاهدهم على الشاشات وفي الصحف..

بعضهم خفيض الصوت قليل الكلام ضيق الصدر.. لا يتمتع بحجة قوية.. ولا يجادل كثيرًا للدفاع عن وجهة نظره.. وبعضهم يناقشك في انفعال ويصم آذانه عن أي رأي آخر.. ولا يسمح لك بعرض حجتك إلا ليهاجم رأيك.. ويشن أعنف نقد على الثورة.. وعلى الثوار.. وعلى الجيش والناس وأي شيء وكل شيء..

في نظر هؤلاء ممن يعتنقون مبدأ أن مبارك كان مظلومًا.. في نظرهم فإن الرئيس السابق كان حكيمًا في كل شيء.. فهو قاد البلاد إلى الاستقرار وجنبها الدخول في الحروب.. كما وفَّر الحياة المعقولة والأسعار المعتدلة للناس.. هو في نظرهم بطل قومي.. وجندي حارب في سبيل الدفاع عن الوطن.. هو رجل وطني مخلص.. استغل ذكاءه في إرساء علاقات دولية بالغة التعقيد والدهاء.. جنبت مصر

الصدام وأمنت لها السلام ثلاثين عامًا.. في نظرهم فإن التنازلات لم تكن تنازلات.. لكنها في الحقيقة حركات لاعب شطرنج بالغ الحكمة والحنكة.. واستراتيجيات مدرب كرة قدم داهية.. يلعب مدافعًا ليحصل على نقطة التعادل.. التي تضمن له الاستمرار في المنافسة.. ولا يخاطر بالهجوم الأهوج الذي يعرضه للهزيمة.. ويطيح به خارج المنافسة.. رجل يفهم أن "فريقه" ضعيف لا يحتمل المنافسة الحقيقية.. ولا يصمد أمام اللعب الجاد.. رجل ابتلاه الله بشعب جاحد وأناس مثلنا لا يقدرونه.. ولا يستحقونه!!

* * *

حينما يتوتر الحوار معهم.. حينما تنجح في تفنيد مزاعمهم فتقول في ثقة ووضوح: إن البطولة الحربية لا جدال عليها ولا خلاف على احترامها.. لكننا نتحدث عن "الحاكم".. نقول عنه إن الاستقرار يختلف عن الجمود.. الاستقرار لا يعني بالضرورة أن يظل وطن بحجم مصر وثرواتها وقوتها البشرية "محلك سر".. لا يعني أن تكون مصر وتركيا – قبل ثلاثين عامًا – متساويتين في الناتج القومي.. فإذا بمصر مبارك تتقهقر إلى ذيل الأمم.. وتركيا تحتل المركز العشرين من بين أقوى اقتصادات العالم.. حينما توضح لهم أن ضمانة الاستقرار يمكن أن تأتي فعلاً بالمهادنة والخيانة والخنوع كما فعلت مصر.. ويمكن أيضًا أن تأتي بالكرامة والمواقف الوطنية السياسية الواضحة كما فعل أردوجان.. فأصبحت تركيا قوة سياسية إقليمية كبرى.. يعول عليها الغرب كثيرًا في التنظير والتفعيل لمشاكل سوريا وإيران.. وتلعب بأوراق

إقليمية متجددة ومنها "خطب ود" الربيع العربي من أجل مصالحها الإقليمية التي بلا شك تعود عليها بنفع اقتصادي وسياسي أيضًا.. فيتعامل معها الغرب كوسيط وشريك مهم في قضايا المنطقة.. بينما لم تكسب مصر كثيرًا من موقف مبارك المهادن "الذكي".. اللهم إلا إذا كان فقدان الريادة العربية وضياع الهيبة الإقليمية والبروز كـ"كنز استراتيجي" لإسرائيل.. وارتفاع أسهم دول أخرى كانت لا تساوي شيئًا بجانب أسهم مصر في الماضي.. إلا إذا كان ذلك كله يعتبر مكسبًا ويصنف كاستراتيجية ناجحة.. أو حكمة فوقية لا نفهمها!!

أقول: إنه عندما تواجه محدثك بهذا كله.. وتضيف عليه تذكيره بالوضع الاقتصادي المزري الذي كنا قد وصلنا إليه من بيع أصول ثروات البلاد.. ومنح آلاف الأفدنة لذوي الحظوة.. وظهور "رأسمالية المحاسيب" التي أفرزتها علاقات المال بالسلطة.. وانتشار الأزمات الاقتصادية.. وكلها أمور لا علاقة لها بالحياة الكريمة أو الاقتصاد المتماسك المستقر.. حينما يصل حديثكم إلى هذه المرحلة يبدأ المدافعون عن مبارك في التوتر.. بل ويظهر اهتزاز منطقهم وارتعاش حجتهم.. وإذا بهم يتركون ذلك كله ويبدءون في لمس منطقة جديدة.. وغالبًا يثور السؤال التالي تلقائيًا: "وهل حالنا الآن بعد الثورة من وجهة نظرك أفضل؟ أين الأمن؟ بل أين المعيشة الأفضل التي تقول الثورة ويدعي الثوار أنها قامت من أجلها؟ الأسعار ترتفع يوميًا.. والأزمات تتوالى علينا كل يوم.. والبلد ليس لها رئيس والأمور تسير

(بالستر).. هل قامت الثورة من أجل ذلك؟"..

والواقع أن المرء يحتار في أمر هؤلاء من جماعة "إحنا آسفين يا ريس".. وسبب الحيرة ليس في عدم وجود الرد.. بل في تنوع وكثرة الردود والحجج.. بشكل يجعلك تتعجب من ضعف منطقهم.. وهوان قضيتهم..

بعض هؤلاء المدافعين يتمادون أكثر في الهجوم على الثورة.. فيحللون شخصية الثوار في تناقض عجيب.. ثوار مصر في نظر المتحزبين لمبارك هم إما "عيال سيس".. ويقصد بها أنهم شباب مدلل مرفه.. لا يحس بالفقر ولا يعاني وطأة العيش.. لا يصارع من أجل رزقه ولا يحس بمشاكل البلاد.. وهم عندما قاموا بما قاموا به لم يكترثوا لآثاره السيئة على البلاد لأنهم في مأمن بسعة رزقهم وحالهم الميسور.. وإما أنهم "صيع" المجتمع.. وهم المهمشون ممن لا عمل ولا خلاق لهم.. وهم أقرب في نظر هؤلاء إلى "البلطجة" بمفهومها الحديث الذي يقترب من معنى المأجورين والمجرمين.. يتم الدفع بهم من أي جهة سلطوية أو متآمرة.. لإنجاز مهمة ما.. أو ترويع الآمنين.. أو لمصلحة شخصية تتعلق بـ"الصايع" أو "البلطجي" نفسه.. أو اندفاعًا مع القطيع في غمار "الهيصة" والغوغاء.. تمعن النظر في شخص محدثك.. فتجده شخصًا من اثنين: هو إما إنسان شديد الرقي والتحضر تبدو عليه آثار النعمة والراحة.. يشي بذلك مظهره المهذب وملابسه غالية الثمن.. وحتى استخدامه لكلمات أجنبية وتعبيرات غربية تدل على ثقافته الواسعة.. انتهاء بصوره الشخصية على صفحة الـfacebook التي تظهره يبتسم في سعادة على شاطئ

"مارينا".. أو يحتضن طفلاً سعيدًا أمام مدخل حفلات Disney on Ice التي لا تقل أسعار تذاكرها في القاهرة عن الألف جنيه.. أو تلمح لقطات مقربة لـه وهـو يرتـدي معطفًا ثقيلاً في إجازته الماضية وفي الخلفية برج "إيفل" الشهير بباريس! ! وإما أنـه على النقيض.. شخص يعمل بالأجرة اليومية.. سائق تاكسي مكافح أو عامل نشيط.. يجاهد ليغطي نفقات أسرته التي تزيد على الستة أفـراد.. أحـاط بـه ضـيق العـيش ورتابة الأوضاع الاقتصادية بعد الثورة.. وهو لا ينفك يذكر ذلك في معرض كلامه عن الثورة طوال الوقت.. فيخرج سـخطه مـن تـسرب أحـلام الثـراء و"توزيـع الأمـوال المنهوبة على الشعب" في صورة لعن الثورة.. ويخلط كالعادة بـين "هـدف" الثـورة.. و"نتائجها".. التي يحوم الشك أصلاً في وجاهة إلصاق أصلها وسـببها بـالثورة الـتي بالتأكيد ليست مسئولة عن قلة رزقه وارتفاع الأسعار!!

عيال سيس!

هناك لقطة مشهورة لأحد هؤلاء "العيال".. يتدلى بنطاله "الجينز" ليظهر "البوكسر" المزركش في مشهد ارتبط في أذهاننا جميعًا بشباب مستهتر يقلد الغرب تقليدًا أعمى.. لا يشغله الوطن ولا الفقر ولا يعاني منهما.. بقدر ما تشغله "الموضة" والتقاليع المجنونة.. أحدث السيارات وأجمل الأغاني الأجنبية والمطربين والمطربات.. وبقدر ما يعاني انقطاع الإنترنت لساعة أو اثنتين..

للقطة بقية يجب أن نشرحها..

فهذا الشاب "السيس" وقف ليلقي حجرًا نحو مدرعة أمن مركزي يوم 28 يناير.. هو تاريخ التقاط الصورة.. ترى الشاب وقد استند بساق واحدة على الأرض وذراعه تطوح الحجر على امتدادها نحو المدرعة التي يحرسها صف كامل من الجنود المدججين بالدروع والعصي..

مهلاً.. هناك لقطة أخرى..

هناك قتيل شاب.. اخترق الرصاص صدره ويبدو وقد أسلم الروح.. أراه

يلبس بنطالاً من "الجينز" أيضًا ويرى أعلى "البوكسر" ليبدو مزركشًا.. لكن هذا اللون وهذه "الزركشة" يبدوان مألوفين..

نعم.. إنه هو! !

* * *

ما الذي دفع هؤلاء "السيس" إلى التضحية بحياتهم؟ ما الذي جعلهم يثورون لأسباب لا تخصهم ولقضايا لا تضايقهم؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نعرف إجابته.. ما الذي أوصل إحساس الفقر والمعاناة.. ومعاني الظلم والفساد.. وصورة القمع والجمود إلى أذهان هؤلاء الذين ربما لم يتعرضوا لهذا كله.. وكانوا إلى الطبقة "المرتاحة" و"المرفهة" أقرب؟

ومن – بالله عليك – هو "السيس"؟

من نزل إلى الميدان وضحى بحياته من أجل الآخرين.. أم من اكتفى باستهجان ذلك كله على أساس "عدم الاختصاص"؟

* * *

"صيع" المجتمع!

أرى في مشاهد الميدان منذ اليوم الأول وحتى التنحي مثقفين وأدباء ورجالاً يبدو عليهم الاحترام والوقار.. أرى في جمعة الصمود والتنحي ما يقارب اثني عشر مليونًا من المصريين في ربوع مصر كلها.. خرجوا ليهتفوا بالرحيل.. أطباء.. مهندسين.. محامين.. كتاب.. أدباء.. باعة جائلين.. نساء.. طالبات.. عمالاً تركوا أعمالهم ولم يفكروا في أرزاقهم اليومية.. "صيع" مثل هؤلاء.. هم "صيع" يمتلكون ما هو أهم من الثقافة.. وأرقى من التحذلق والفصاحة الكلامية..

الكرامة.. والصدق مع النفس.. والشجاعة!!

بل إن إطلاق لفظة "الصيع" على من اشترك في فعاليات الميادين حتى لو لم يعجبك مظهره.. هو دليل على إخفاقنا في فهم ما قامت هذه الثورة من أجله وعلى استمرارنا في احتقار وتهميش الناس.. لم يعد النظام هو من يدوس علينا ويهيننا.. لكننا نهين بعضنا بدلاً منه..

انضمام الطبقات متضادة الأحوال.. وهي الطبقة شديدة الثراء.. والطبقة

شديدة العوز.. إلى معسكر "أنا آسف يا ريس".. الذي لم يحجز له فقط مكانًا في الفراغ الافتراضي للإنترنت وإنما امتد إلى أرض الواقع.. وعلى الرغم من ضآلة حجم هاتين الطبقتين ومحدودية ثقلهما المجتمعي.. جاء متسقًا مع سقوط نظام تميز في سلوكه وتناوله لأحوال الناس في مصر بالميزة نفسها.. وهي التطرف الشديد في التعامل مع هاتين الطبقتين: دعم شديد للأغنياء وتسهيل لا محدود لمصالحهم.. حتى انتشر الانطباع العام بأن كل شيء يمكن أن يُشترى في مصر بالمال.. وذاعت الرشوة واستشرى الفساد وعلا أمر المحسوبية.. في مقابل تهميش عنيف للفقراء.. وإهمال قاسٍ لأمورهم.. وإغراق متعمد لأبناء هذه الطبقة في دوامة البحث عن الرزق.. هذه الدوامة التي قبلوا معها أي وضع يفرض عليهم.. وتعايشوا من خلالها مع كل الظروف المعاكسة.. من ظلم وتمييز وفساد وإحباط وإهدار كرامة في مقابل شيء واحد.. هو لقمة العيش..

لذلك كان من المنطقي لمن استفاد من نظام فتح له كل أبواب رغد العيش.. ولمن ضمن له النظام الحد الأدنى من لقمة العيش.. وكان لكليهما في مقابل ذلك واجب واحد.. هو السكوت عن الظلم وغض الطرف عن الفساد في مقابل "الميزات" التي حصل عليها.. والتي قدرها كل منهم على قدر عقله وبيئته واستعداده النفسي وظروفه.. على أنها بالفعل "ميزات".. نقول: كان من المنطقي لهؤلاء أن يسيطر عليهم شعور بالقلق من اختفاء ذلك "الراعي الرسمي" لهذه الأوضاع.. التي وطدوا

أنفسهم عليها.. ورتبوا حياتهم على أساسها.. ومن تداعي نظام.. كان يوفر ذلك الغطاء الزائف من "الاستقرار".. في مقابل مستقبل مجهول لا يعلم إلا الله ما تئول إليه الأحوال في ظله.. ويستهل مجيئه مع اضطرابات في الأمن.. والحياة اليومية.. ومع أزمات اقتصادية وسلعية.. تزيد من خوف هؤلاء وتضاعف من حنينهم إلى ماضٍ ارتبط في أذهانهم بالأفضل.. وبالأهم: بالأمن والأمان!!

شيء من ذلك جاء في كلام "د. أحمد عكاشة".. أستاذ الطب النفسي الذي حلل شخصية المشاركين بإيجابية في صفحة "أنا آسف يا ريس".. حينما وصفهم بأنهم "تسيطر عليهم فكرة ثابتة لا يريدون التخلي عنها.. ويرفضون الاعتراف بأنه قامت هناك ثورة.. أو أن هناك تغييرًا قد حدث وذلك رفضًا للتغيير وخوفًا على تدهور أحوالهم"..

غير أن هناك – في رأيي – روافد وأسبابًا اجتماعية ونفسية أخرى لهذا التعاطف العجيب مع مبارك.. هذا التعاطف الذي يكاد يهمل كل أفعاله.. وكل التهم المنسوبة إليه.. ويغض الطرف عن الجمود الذي قاد إليه البلاد.. وعن المظالم التي استشرت في عهده.. وعن فساد ذمة من استوزرهم ومن أحاطوا به.. لدرجة تجعلك تشعر معها وكأنهم حين يقولون "أنا آسف يا ريس".. فكأنهم يكملونها قائلين: "باردون بقى يا مصر" وكأنهم بلفظة "باردون" (**Pardon**) الفرنسية.. التي تعادل "لا مؤاخذة" بالعربية.. يديرون ظهورهم بموقفهم هذا لوطن كامل.. وبلاد

كانت تستحق بالفعل ما هو أفضل.. ولا يشمل هذا "الأفضل" الاعتذار لمن أهانها وأهان أبناءها.. بل ربما يشمل "الأفضل" في أقل درجاته.. الاعتذار إلى هذه البلاد نفسها.. وإلى أنفسنا بعدها!!

أول هذه الأسباب هو الفكرة التي زرعها الإعلام في نفوس المصريين سنين طويلة.. وهي أن الرئيس السابق لا غبار عليه.. لكنه محاط بأناس ليسوا كذلك.. هذه الفكرة كنت تجدها على لسان البسطاء والمثقفين على حد سواء: "الريس كويس.. بس اللي حواليه هم اللي وحشين".. أو "مفيش حاجة بتمشي في البلد إلا لما الريس يتدخل فيها بنفسه".. هي أمثلة لجمل شهيرة متواترة.. لا بد أنك سمعت إحداها أو ربما رددتها أنت نفسك على أهلك وأصدقائك.. والحقيقة أن كثيرًا من الأحداث والظروف كانت تدعم هذا الاعتقاد.. ومنها ما يلي:

1- أسلوب النظام السابق في تهميش كل ما عدا مؤسسة الرئاسة.. فلقد سمعنا كثيرًا بعد التنحي كيف أن رئيس الوزراء في مصر كان يعمل عمل "السكرتير" لرئيس الجمهورية.. على عكس ما كانت الرئاسة تحاول الإيحاء به: أن الوزراء هم من يديرون البلاد.. وأن الرئيس يراقب من بعيد ويتدخل فقط عند الضرورة وعندما تُعرض عليه التقارير.. لكن الحقيقة هي أن كل شيء كان يدار عن طريق المؤسسة.. سواء في ذلك رأسها أو "ولي العهد" أو "الملكة الأم" أو أعوانهم.. من رجال الأعمال ذوي الحظوة أو المكانة في الحزب "المحظور".. وكان يطلع علينا بين الحين والآخر خبر هنا وهناك.. كيف أن الرئيس تدخل بنفسه لعلاج فتاة

مريضة.. أو إلغاء قرار مجحف أو إصدار قرار مهم.. كانت تلك القرارات كلها تأتي دائمًا على عكس اتجاه الأحداث وعلى هوى البسطاء.. وكان التهليل والإشادة بها في الإعلام والصحف يدعمان أكثر وأكثر ذلك الاعتقاد القوي الذي كان مطلوبًا منا أن نصدقه: "الريس كويس.. بس اللي حواليه هم اللي وحشين".. دون أن يثور السؤال: ما عقاب المسئول الذي تقاعس عن اتخاذ هذا القرار؟ إلا إذا كان المسئول – من وجهة نظر الرئيس – لم يخطئ والأمر كله مجرد "تلميع" للمؤسسة الرئاسية!!

دعك من التساؤل المنطقي الآخر.. الذي كان يجب أن يثور في ذهن المصريين: إذا كان مبارك بهذه العظمة.. فلِمَ لا يختار الصالحين من حوله؟ ولِمَ لا يستوزر من حسُن إيمانه وتميز بقوته؟ وإذا كان لا يجيد الاختيار – جدلاً – فكيف يصلح هو نفسه لقيادة الوطن؟

غير أن الإحباط الذي ساد عقولنا منعنا.. أو منع أغلبنا.. من توجيه هذه الأسئلة في العلن.. ورضينا بالفتات.. إلى حين!!

2- كثير من الأفلام السينمائية لعب على الوتر نفسه.. انظر مثلاً إلى أفلام مثل "طباخ الريس".. الذي صوَّر الرئيس على أنه شخص وطني بسيط.. يحس بشعور الفقير ويتعاطف معه.. غير أنه لا يعلم بالحواجز التي توضع بينه وبين الناس.. فلا تصل إليه مظالمهم.. ولا يحس بمشاكلهم ولا يعلم بمعاناتهم – وذلك إلى

الدرجة التي يضطر معها إلى استقاء معلوماته من "الطباخ" ليتفادى الصورة الوردية التي تنقلها له الحاشية الفاسدة.. وليثور على هذه المظالم ويستنكرها ! !

انظر أيضًا إلى فيلم "جواز بقرار جمهوري".. الذي نزل فيه الرئيس بنفسه تلبية لدعوة مواطن لحضور حفل زفافه.. في بساطة وتعاطف حاول الإعلام تسويقهما عن شخص رأس النظام.. ذكرتنا بزياراته للقرى التي كان آخرها حين دخل (في الحقيقة وليس في الفيلم) مبارك منزلاً ريفيًّا لفلاح.. وطلب منه بعفوية أن يشرب معه الشاي.. في مشهد كان من المفترض أن يشعرنا ببساطته وتواضعه.. قبل أن يذيع الخبر ويتضح أن الفلاح ما هو إلا مجند.. وأن المشهد كله تم التخطيط له بعناية من أسابيع ليتم تسويقه إعلاميًّا ! !

3- حالة التغييب التي حاول الإعلام بهذا الشكل زرعها في نفوسنا.. تتفق مع التصريحات المستفزة لفناني مصر في أوائل أيام اندلاع الثورة.. حيث تساءل "عادل إمام" في دهشة: "إيه اللي عمله حسني مبارك عشان يتشتم؟".. ودافعت عنه "غادة عبد الرازق" في بسالة.. بينما اقترحت "سماح أنور" حرق الثوار وضربهم بالطائرات.. ثاني هذه الأسباب هو رسوخ فكرة احترام الأب و"الكبير" في نفوس المصريين لأسباب اجتماعية مهيبة وروافد دينية قوية.. على الرغم من أن الفكرة ثابتة ولا غبار عليها.. فإن توظيفها جاء مجانبًا للصواب في حالة مبارك.. وبشكل عميق.. يعكس اختلاط المفاهيم في العقل المصري بشكل فج.. ويثير الدهشة أن يأتي

ذلك من الصفوة المثقفة ومن رموز دينية واسعة التأثير..

انتشرت بين بعض الناس فكرة أن ما يحدث على ساحة الأحداث من مطالبات بمحاكمة مبارك وأسرته.. ثم إيداعهم السجون.. ثم البدء في الإجراءات.. ذلك كله هو نوع من الجحود.. وتواترت النداءات عن اللوم الموجه إلى شعب جاحد لا يتذكر لهؤلاء "يومًا حلوًا".. ولا عملاً جيدًا.. بل إن داعية إسلاميًّا كبيرًا مثل الشيخ "خالد الجندي" دعا الشباب قبل ذلك إلى احترام مبارك.. وفض المظاهرات في يناير والعودة إلى بيوتهم.. لم يختلف ذلك عن الداعية "مصطفى حسني".. وما دعا إليه من احترام مبارك "الأب".. وما أيده فيه الملحن الشاب "عمرو مصطفى" والمطرب "محمد فؤاد".. والأخير بكى على إهانة مبارك على الهواء مباشرة في اتصال تليفوني.. وما أيده أيضًا الصحفي والكاتب الكبير مفيد فوزي ثم عاد واعتذر عنه بعد ذلك..

نتفهم أن يكون الدافع لتلك الأفكار هو الهجوم الشخصي على مبارك وأسرته.. الذي ربما انحرف في أحيان كثيرة إلى ما هو خارج السياق الاحترافي للنقد.. وأصدر أحكامًا مسبقة دون الانتظار للمحاكمة.. وهي أمور نستنكرها ولا نوافق عليها.. فكل متهم بريء حتى تثبت إدانته.. والاحترام الواجب له أمر مكفول كرمز سابق للبلاد شئنا ذلك أم أبينا.. لكن هذا الاحترام كما يقف حائلا دون التهجم عليه لا يبيح أيضًا تبرئة ساحته ولا يعني "الاعتذار إليه".. أو وضعه في

صورة "الأب" لجعله رمزًا.. لا ينبغي المساس به أو التعرض له بأي شكل.. ولنا في الفاروق "عمر بن الخطاب" – رضي الله عنه – عبرة.. وهو في العدل من هو.. وفي التقوى والورع من هو.. حين حمد الله أن جعل في أمة المسلمين من يقوِّم اعوجاجه بالسيف.. وهو من لم نعرف عنه اعوجاجًا ولا سمعنا له اتهامًا.. ولم تشهد أيامه فقرًا ولا ضعفًا ولا مهانة ولا ذلاً.. هو من لم تدخل المسرطنات إلى البلاد في عهده.. ولم يحصل أبناؤه على الميزات ولم تُصَب دولته بالنوازل فلم يحرك ساكنًا!!

لكن يبدو أن فكرة الحاكم "الأب" هي فكرة أزلية في عقلية الضمير العربي.. فكم من لافتات رُفعت في بر مصر لنفاق مبارك.. كتبت عليها الجملة الشهيرة "الأب والقائد والزعيم"؟ شاهدنا ذلك في السنين الأخيرة عشرات المرات.. كم من مرة استخدم فيها الإعلام لفظة "الرئيس يلتقي أبناءه".. لوصف اجتماع مع شباب الجامعات أو خريجي الكليات العسكرية أو أي فئة أخرى؟ بل كم من الأعمال الدرامية صور صورة "كبير الحارة" و"كبير العائلة" على أنه الشخص الحكيم.. الذي يجلس في الظل أو ما وراء الكواليس.. والذي يخفي عنه "فتوات" الحارة المعلومات والمظاليم.. ولو نجح شخص ما في الوصول إلى "الكبير".. يتدخل في قوة وحسم.. لترتعد فرائص "الفتوات" لهيبته وبطشه؟ ألم يكن ذلك كله تكريسًا لفكرة "الأب" وأطروحة "الريس كويس.. بس اللي حواليه هم اللي وحشين"؟!

شيء من ذلك أيضًا يوجد في العلاقات الأسرية والمجتمعية في ريف مصر..

حيث يوجد لكل عائلة "كبير".. تنتشر حوله هالة من الاحترام والتوقير.. وربما يلجأ إليه "الصغار" لحسم المظالم والفصل في النزاعات إذا استفحلت.. بل ويرضى بحكمه الجميع.. حتى لو لم يكن متفقا مع التوقعات أو مع العدل المثالي.. غير أن الفارق بين "كبير" يستتشار في الأمر الجلل.. فيفصل برأيه الذي يفعل بما هو أقوى من القانون والعرف.. وبين "رئيس" يملك السلطة والقانون والعرف.. ويفترض فيه أن احترامه احترام للرمز الذي يشغله.. وهو رمز "رأس الدولة".. وليس لشخصه أو سنه.. ويمسك في يده كل خيوط اللعبة ومقدرات الدولة.. هذا الفارق للأسف لا يصل إلى أذهان البسطاء والمثقفين في مصر.. هذا الفارق الذي يمثل جوهر المحاسبة لمن أهمل في عمله.. ولب المحاكمة لمن اتهم في قضية عامة وهو في منصب عام.. وهو الفارق الذي يقف فاصلاً بين من يقول – في استهتار بوطن يستحق منا أن ننصفه بساطة –: "إحنا آسفين يا ريس".. وبين من يطالب بمحاسبة من ظلم هذا الوطن وأهان أبناءه..

ثالث هذه الأسباب هو القلق الذي اعترى كثيرًا من المصريين من الفراغ السلطوي الذي أعقب تنحي مبارك وتفكيك نظامه الذي – وإن جاء متدرجًا بطيئًا.. لا يرضي طموح الثورة – جاء ليخلف فراغًا نفسيًّا لدى كثير من الناس.. الذين اعتادوا الإحساس بالأمان في وجود "حكومة" قوية.. يرونها أكثر طمأنة لهم من حكومة انتقالية.. تبدو في الأغلب أكثر ضعفًا.. حتى إن كان وجودها مؤقتًا.. وحتى

لو كان أداؤها أقل ظلمًا من عهد بائد.. ونظام فاسد معيب..

هذا القلق يجعل بعض الناس يشعرون بعدم الراحة.. لغياب السلطة في صورتها "القمية" من رئيس للجمهورية.. ارتبط وجوده في أذهانهم بالأداة التي تربط كل مؤسسات الدولة ببعضها وتضمن استمرار آلياتها بشكل سليم.. في إطار الاعتقاد المنتشر بين الناس "مفيش حاجة بتحصل في البلد إلا لما الريس يتدخل فيها بنفسه".. ربط هؤلاء بين ضعف الأمن ومشاكل الاقتصاد وزيادة البلطجة من ناحية.. وغياب "الرئيس" من ناحية أخرى.. مما جعلهم – تلقائيًّا – يحنون لأيام كان فيها الأمر "مستقرا".. في خلط عجيب للأوراق من عقول لا ترى هذه الاضطرابات محاولات يائسة من فلول النظام للتشبث بأماكنها ونفوذها.. واجتهادات عنيفة لإفساد البلاد و"تمييع" الثورة.. وعرقلة الحكومة الانتقالية.. ولا ترى بذاكرتها الضعيفة كيف أن "البلطجة" هي أمر استحدثه النظام السابق.. واستخدمه كثيرًا.. كأداة قمع في الانتخابات ويد طويلة في التجمعات.. وكيف أن الأزمات لم تستحدث.. وكيف أن كل ما يحدث الآن هو ارتجافة المريض المحمومة.. التي تسببها جحافل الميكروب في جسده.. إثر انتشار حقن الدواء في عروقه.. في انتفاضة يائسة لا تعني أن الدواء به عيب.. بل إن المريض في طريقة للتعافي!!

* * *

غير أن هناك أسبابًا أكثر وجاهة وعمقًا لهذا الإحساس "بالقلق".. فالتغيير

البطيء الذي تشهده "مصر الجديدة" بعد الثورة.. لدرجة انتشرت معها جمل على لسان الناس تكاد تتطابق.. مثل "هو أنت مصدق إن دي ثورة؟".. و"قل لي إيه اللي اتغير بعد الثورة؟".. هو من نتائج الإيقاع "الوسطي" الذي اختارته حكومة مصر وجيشها للتغيير.. فلا هو إيقاع راديكالي ثوري مثل الثورة الفرنسية أو البلشفية في "روسيا".. ولا هو إيقاع بطيء ثابت يتجه نحو اللاتغيير مثل الثورة الرومانية على "تشاوشيسكو".. فالثابت في مصر أن حل أمن الدولة.. والحزب الوطني.. والمجالس المحلية.. كلها أمور تمت وتم إنجازها.. كما أن السحب من الاحتياطي النقدي تضاءل من ثلاثة مليارات من الدولارات في الشهر الأول للثورة.. إلى صفر من الدولارات بعد خمسة أشهر.. كما تم تحويل أغلب من نادى الثوار بأسمائهم إلى المحاكمة.. إلا أن البطء في إنجاز ذلك حتى لو اختلفنا على وجاهته ودوافعه.. كان من نتائجه دون شك تعميق هذا الإحساس بأن الثورة لم تنجز شيئًا بعدُ.. ساعد على ذلك أيضًا ارتعاش يد الدولة في حسم المشكلة الأمنية.. ووجود تجاوزات في كل مكان.. ينفخ في نيرانها أطراف تسعى إلى إذكاء نار الوقيعة بين الشعب وحراس الأمن للوطن.. سواء في ذلك حراس الداخل أو حراس الخارج.. تزامن ذلك أيضًا مع افتقاد القدرة على استباق المشاكل بتوقع الأزمات أو العمل على منع وقوعها إذا لاحت بوادرها في الأفق.. ربما لكثرة أعباء الحكومة الانتقالية.. وربما لأسباب أخرى نأتي على ذكرها في فصل لاحق..

ثم إن المرء ليتملكه العجب من قدرة هؤلاء على التحدث عن "العفو" عن

رجل أمر جيشه بسحق المتظاهرين في الميدان.. رجل خطط بخطى ثابتة لتوريث الحكم لابنه.. في تجاهل تام لإرادة الشعب.. تعامل مع غرق 1400 مصري في العبارة على أنه حدث عادي لا يستدعي مساءلة أحد.. ولا التحرك.. بقدر ما يستدعي تهنئة فريق الكرة على فوز قاري في الليلة نفسها.. رجل رفض "العفو" عن الفريق "سعد الدين الشاذلي" بطل حرب أكتوبر 1973.. رجل نافس نفسه في الكذب الصريح: "لن أجدد مرة أخرى".. و"الكفن مالوش جيوب".. واللتان تلاهما تعديل المواد الدستورية فتصبح قدرته على "التجديد" لمدد رئاسية مقبلة لا نهائية.. وتوريث العرش شبه حتمي.. ثم مسرحية خطاب الأول من فبراير 2011 التي تلتها محاولة سحق المتظاهرين في موقعة "الجمل".. ثم مسرحية "يحز في نفسي" وهي خطابه الصوتي في قناة "العربية".. الذي نفى فيه بوضوح أنه يملك أي حسابات مصرفية بالخارج.. فإذا بـ"سويسرا" تعلن بعدها مباشرة وجود حسابات له ولأسرته بمئات الملايين من الفرنكات لدى بنوكها..

كيف بعد هذه الأنباء والبلاغات كلها من الفساد.. التي كانت تكفي لسجن وإعدام أي مواطن في عهد هذا المخلوع.. كيف نجد من ينكر حتى التحقيق فيها.. بل ويتهم المصريين ممن ينادون بالقصاص بالجحود.. ويستنكر حتى المحاكمة ويعتبرها "إهانة" لمبارك.. وكأن إهانة مصر ليست تهمة.. وكأن إهانة المصريين هي أمر لا يستحق "المحاكمة".. أو هي أمر عادي.. لا يستحق الحساب أو التوقف عنده بالتحقيق والتدقيق.. وكأنهم فعلاً يقولون: "باردون بقى يا مصر"؟!

الخطورة في هذه الأطروحات من "العفو" و"الأسف".. عن وإلى الرئيس (على الترتيب).. هي أن ذلك يؤثر سلبًا على زخم الدفع الثوري في مصر.. ثورتنا السلمية الحضارية.. التي لم تمس أي فاسد ولا ظالم.. لم ندفعهم أمامنا دفعًا إلى المقصلة.. ولم تملأ دماء الظالمين أرض المحروسة لتروي عطش الأرض المظلومة.. لم تملأ صرخاتهم جنبات مصر لتعزف ألحان العدل على قيثارة القصاص.. بل قامت التحقيقات والمحاكمات كأرقى ما تمارس به "دولة المؤسسات" منظومة العدل والقسطاس.. أما هذا الالتفاف على الحق فيدعم التحول العنيف.. ويجهض الثورة ويقتل مجهودات أبنائها.. وينشر الإحباط الذي ربما لو تم تفعيله لدخل بنا في نفق شديد الإظلام.. لا نخرج منه قبل عقود طويلة.. طويلة جدًّا!!

* * *

هل تريد دليلاً على هذا الكلام؟ انظر إلى التحول العنيف الذي صار في مدينة "السويس" في الأسبوع الأول من يوليو 2011 عندما قضت محكمة الجنايات ببراءة الضباط المتهمين بقتل المتظاهرين.. وإخلاء سبيل كل منهم بكفالة قدرها عشرة آلاف من الجنيهات.. انظر كيف استشعر الناس مع التأجيل الطويل للجلسة التالية بعد أكثر من شهرين.. كيف استشعروا "نية" عدم إرجاع الحقوق إليهم.. فانتفضت "السويس" كلها في مصادمات مع الأمن.. وانتشر تعبير "خد حقك بإيدك.. المحاكمة مش هتفيدك!!" على الألسن.. وفي الهتافات في الميادين.. تريد دليلاً آخر؟ انظر إلى اشتعال فتيل المصادمات في التحرير.. فجر التاسع والعشرين من

يونيو 2011.. عندما استغلت قوى الظلام الاحتقان الشديد بين شباب الثوار وأهالي الشهداء لبطء المحاكمات.. ورخاوة الحسم مع المتهمين.. كيف تحول الأمر في ساعات قليلة إلى سخط عارم على "الداخلية" وغضب شعبي ضد الأمن.. والوزراء والحكومة.. وكل شيء وأي شيء!!

رابع هذه الأسباب هو غرام العقل المصري ودأبه على مناقشة "الرجل وراء الفكرة" وليس "الفكرة" نفسها.. وهو أمر سبق أن أشرنا إليه في كتاب سابق هو "خلع ضرس مصر"..

صديق لي أعرفه ويعرفني.. رأيه في شباب الثورة أنهم "عيال شعرهم مفلفل وصيع ومتدلعين وهيودوا البلد في داهية".. عندما واجهته بسؤال عما إذا كانت مطالبهم بها من عدم الوجاهة ما يستدعي ذلك السخط عليهم.. كانت إجابته بإنكار علاقة ذلك بحكمه عليهم.. وأتهم "مالهم هم ومال البلد ولا الفقرا؟".. حاولت مرة أخرى إعادته للنقاش الموضوعي من وجهة نظري.. فسألته عما إذا كانت طلباتهم مشروعة أم أنها مضرة بالصالح العام.. جاءت الإجابة تحمل معاني كثيرة.. منها: أن الطلبات لا تكون بإثارة عدم الاستقرار وأن "حال البلد وقف".. وأن هؤلاء الثوار لا يعرفون عن البلد شيئًا حتى يطالبوا به..

العجيب أن مثل هذه الأقاويل قيلت في كل مرة ثار فيها الخلاف حول جدوى التظاهر.. قيل ذلك في أثناء ثورة يناير.. وقيل في أثناء الاعتصامات.. قيل

عندما ثارت طلبات حل أمن الدولة.. وقيل عندما ثارت المطالبات بحل الحزب الوطني.. وحل المجالس المحلية..

وفي كل مرة تسمع تنهدات الارتياح.. حتى من هؤلاء المعارضين.. الذين ينسون للحظة أنهم كانوا ضد هذه المطالبات من أجل "البلد" الذي "وقف حاله".. وهو دليل آخر على أنهم في قرارة أنفسهم يعلمون وجاهة الفكرة.. لكنهم لسبب ما يختارون الوقوف ضدها.. كسلاً عن تأييدها.. أو يأسًا من تنفيذها.. وربما لأننا تعودنا على سقف منخفض لآمالنا.. أو لم نتعود على الإصرار على التغيير لأننا نخافه.. ونخاف من ينادي به فنتهم خلفيته ونهمل مناقشة وجاهة فكرته.. أو لأننا لم نمارس التمسك بالفكرة لأننا نهابها.. أو لأننا نعشق العند الذي كان موجهًا ضدنا يومًا ما وعبر ثلاثين عامًا.. فعندما زال صاحبه من سدة السلطة.. إذا بنا نطبقه على غيرنا وعلى أنفسنا دون أن ندري.. فنعاند الفكرة.. على الرغم من اقتناعنا بها ومعرفتنا أنها وجيهة وسليمة!!

* * *

في السادس والعشرين من يونيو 2011 تم إغلاق صفحة "إحنا آسفين يا ريس".. بعد فشل جمعة "أبناء مبارك" يوم 6/24.. التي انطلقت من ميدان "مصطفى محمود".. في حشد أكثر من 800 متظاهر.. جاء إغلاق الصفحة مع إعلان أنه "بعد الخذلان الذي تعرضنا له وفشلنا في الدفاع عن الرئيس مبارك الذي نحبه.. لم يقف بجانبنا أحد وتحولت الصفحة إلى صفحة تعارف"..

حتى هذا الإعلان.. جاء دليلاً آخر على نقص الإصرار النفسي لدى هذه الشريحة من الشعب المصري.. نقص الإصرار على الاستمرار في التعبير والتمسك بالفكرة.. عدم القدرة على الكفاح حتى النهاية وحتى تحقيق المطالب.. شخصيًا أحترم كل الآراء.. حتى لو كان الرأي معاكسًا لرأيي.. لكني أجد في نفسي نفورًا من الآراء المبنية على العند الخالص.. الآراء غير القائمة على أي أساس منطقي.. هذه هي الآراء التي تشعرك بالغثيان وتثير فيك الضيق.. هذه الآراء التي تجلب الفرقة.. وتثير ضجيجًا وزحامًا عقليًّا لا لزوم له..

هذه هي الآراء التي هي من نوعية "إحنا آسفين يا ريس".. التي تجعلك تهتف في داخلك في ضيق شديد: "إحنا فعلاً آسفين يا مصر"!!

والله العظيم حصلت ثورة!!

كيف تناقش من يتحيز لفكرة أن الثورة أضرت بالبلاد.. وأن الثوار ما هم إلا مجموعة من البلطجية الذين لا عمل ولا فكر ولا هم لهم سوى الإضرار بمصالح البلاد عبر تصرفاتهم الهوجاء؟

كيف تدخل في حوار ما.. من دون أن تفقد أعصابك.. أو تنغمس في مستنقع اللاموضوعية في الحديث.. إذا تناقشت مع واحد ممن يصرون على أن الشعب المصري شعب "قليل الأصل".. لا يحفظ الجميل.. وأن هذا هو قدر "عظيم" مثل مبارك.. وأنه اتبع السياسة المثلى في إدارة شئون البلاد.. فجنبها الحروب.. وحافظ على استقرارها.. وأن حال البلاد من بعده سوف يشهد تدهورًا لا مثيل له على يد تلك المسماة بالثورة؟

كيف تدير الحوار مع ما فيه من استفزاز؟ وكيف لا تنكر على "الآخر" رأيه بشكل فج يتناسب مع هذا الاستفزاز.. دون أن تنجرف إلى أن تقف في خانة "ديكتاتورية الثورة".. وأن تصبح من رافضي "الرأي الآخر".. وأن يتهمك السامعون.. أو يتهمك ضميرك نفسه.. بأنك متحزب لرأيك لا تقبل بسماع غيره..

ولا تحترم ديمقراطية الرأي المخالف لك.. وحرية الآخر في التعبير عن أي شيء يعتنقه في إطار أنه "رأيه" والذي هو لا يقل احترامًا عن رأيك؟

بل ما المشكلة التي قد تدفعك أصلاً لهذا الصراع النفسي.. وأنت المؤمن بالخلاف.. والمعتقد في حرية التعبير؟ ما الذي يدفعك وأنت من تحترم المنطق إلى الاضطرار لكبت شعورك الجامح في تسفيه رأي محدثك.. والسخرية من رأيه.. والتقليل من وجاهة منطقه؟

* * *

أظن أن الإجابة عن هذا السؤال هي من أهم ما يواجهنا في مصر في هذه الأيام.. والأمثلة على ذلك كثيرة.. لكنها تحمل كلها سمة واحدة.. ومخرجًا واحدًا لجوهر السؤال: هل العيب في آرائنا.. أم في منطقنا.. أم في ضمائرنا.. أم في مدى تقبلنا للرأي الآخر وعدم استعدادنا الفكري -بعدُ- للمناقشة؟

احترت كثيرًا في اختيار الكثير من الأمثلة التي تعبر عما أقصد.. واستقر بي الرأي في النهاية على اختيار اثنين من أكثر الأحاديث والقصص شيوعًا في بر مصر بعد الثورة.. لعلك سمعت أحدهما.. أو اشتركت في حماس في المناقشات الدائرة حول واحد منها أو أكثر.. ولعلك اكتفيت بالاستماع لهذه المناقشات وهز رأسك في عجب.. أو موافقة.. أو حتى اعتراض.. لكنك بالتأكيد كوّنت رأيًا ما.. وسنحاول الآن تحليل هذه المحادثات.. ومقارنة رأيك برأيي..

* * *

المثال الأول: يجركم الحديث من الحال والأحوال إلى ذكر شيء يتعلق بالثورة وأحداثها ونتائجها.. وإذا بأحد الجالسين يتنهد تنهيدة طويلة.. أو يسحب دخانًا عميقًا من "أرجيلته".. أو ينفث سحابة دخان من سيجارته.. ويهز رأسه في تعجب.. وعلى طرف فمه ابتسامة ساخرة.. توحي بأنه "يعرف أكثر".. ويبدأ في إلقاء مفاجأته: "انتو عارفين اللي اسمه خالد سعيد ده؟ أنا لي ابن خالتي.. له واحد صاحبه.. جاره اللي في العمارة اللي جنبه يعرف أخو خالد سعيد.. على فكرة ده عيل (...).. ومستهتر وكل الجيران كانوا بيكرهوه"..

رددت في استنطاع لأن الكلام لم يعجبني.. قائلاً في تغابٍ مقصود: "بيكرهوا ابن خالتك؟"..

واصل في ضيق احتفظ معه بنظرته وابتسامته: "من يعرف أكثر؟".. قائلاً: "ابن خالتي إيه؟ هم يعرفوه منين؟ بيكرهوا خالد سعيد طبعًا"..

قلت وأنا أهز كتفي في بساطة: "ما أنا برضه قلت أخو خالد سعيد اللي يعرف جار صاحب ابن خالتك.. جيرانه يعرفوا ابن خالتك منين؟ ولا خالد سعيد نفسه.. ابن خالتك يعرف عنه معلومات وثيقة كده عن طباعه وعلاقة الجيران بيه ازاي؟ وهو – ابن خالتك يعني – آخر معرفته بخالد إنه يعرف صاحب جار أخو خالد.. الله يرحمه"..

واصل وهو يتجاهل تعليقي الذي بدا له مستفزًا بشكل ما قائلاً: "الواد

حلف له إن اللي اسمه خالد سعيد ده كان صايع وفاشل في الدراسة وعلى طول يرجع من بره الفجر وهو مشغل موسيقى بشكل عالي جدًّا ومزعج.. على طول أبوه يطرده من البيت ويرجع متأخر.. كان فعلاً بيحشش.. ويشرب بانجو.. ابن خالتي بيقول لي إن الواد فعلاً اتمسك بسيجارة البانجو وما كانش مظلوم ولا حاجة"..

هز الحاضرون رءوسهم في تأثر.. بينما علق أحدهم في صوت خفيض تعليقاً من نوعية: "يا بن الـ..".. وواجهني محدثنا - الذي له ابن خالة في الإسكندرية - ناظرًا إليَّ في تحدٍّ.. لأني على ما يبدو لا أقدر أنه "يعرف أكثر".. ومواصلاً ضربته القاضية:

"آدي اللي اتقلبت الدنيا عشانه في إسكندرية.. آدي اللي صدعونا عشانه.. قال كلنا خالد سعيد قال.. كلنا ميدان التحرير.. اتفضل.. آدي الثورة!!".

أخذت نفسًا عميقًا.. وسألته في هدوء: "نستنتج من ده كله إيه؟"..

- "لا أفهمك!"..

- سأطرح عليك اختيارات إذًا.. لتختار منها كما في برامج المسابقات:

1- الشرطة لم تظلم ولم تعذب أحدًا قبل الثورة بدليل أن "خالد سعيد" كان مجرمًا حقيقيًا.

2- الثورة كانت مخططًا لا لزوم له في بلد ينعم بالحرية مثل مصر..

ترفرف على جوانبه ألحان الحضارة والتقدم ويعزف أبناؤه سيمفونية العدل والمساواة.

3- هذه الحادثة هي سبب ما نعانيه الآن من اعتصامات وانفلات أمني.

هه.. إيه رأيك؟

- ....

- "سأطرح عليك أنا الآن إجابتي: ولا إجابة من دول صحيحة.. عارف ليه؟ لأن تحليل المخطئ والمذنب في حادثة "خالد سعيد".. أو تحديد مدى واقعية الحادثة من عدمها كل هذه أمور فرعية هامشية.. فالبلد كان قد وصل لمرحلة مخزية وغير مسبوقة من الانهيار.. ففي أثناء ما نشغل أنفسنا بمن دفعنا للثورة.. وما دوافعه.. نهمل حقيقة بسيطة واضحة للعيان: أن الثورة كانت ضرورية للتغيير.. ولولا الثورة ما سقط النظام.. وما تمت محاكمة رموزه.. وما بدأ تطهير فساده.. لولا الثورة لما تم حل مجالس التزوير.. ومجالس محليات الفساد والرشوة.. لولا الثورة لما بدأنا طريق الإصلاح.. وكون الطريق طويلاً هذا ليس ذنب الثورة.. كون الطريق صعبًا هذا ليس ذنب الاختيار نفسه.. وهو اختيار الطريق الصحيح للنهضة.. بل هو على الأغلب ذنب من حادثنا عن الطريق لعشرات السنين دون أن يدلنا عليه.. فلما وجدناه.. وجدنا أوله.. وكان لائقًا بنا أن نكون قطعنا نصفه على الأقل بعد كل هذه السنوات.. لكننا تأخرنا.. ونلوم كل شيء على ذلك التأخير.. سوى أنفسنا أو من

ظلمنا.. لدرجة أننا نلوم اليوم الذي وجدنا فيه الطريق.. وكأنه كان أكثر راحة لنا أن نظل في الظلام.. بدلاً من أن تبهر عيوننا أشعة شمس الشارع الواسع الرحيب.. أو كأننا غضبنا لأن القفص انفتح علينا فجأة فأصابتنا الحيرة من توافر الاختيارات الحرة وتخبطنا فيها.. فإلي أين نذهب؟ ألم يكن من الأفضل أن نظل مقهورين في القفص؟ لعن الله ذلك الذي أعطانا المفتاح.. أين هو ليسترده أو ليصلح من خطئه بإخراجنا من ذلك القفص المريح؟!".

– "أنت مكبر الموضوع جداً على فكرة.. دا واد صايع.. تعمل عشانه ثورة وتقلب البلد بالشكل ده؟".

– بصرف النظر عن سوء الظن الذي أصبح عادة من عاداتنا.. وعن إهمالنا للآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فهي المشكلة فعلاً كما تقول أنت.. المشكلة انك حاسس إن لما أربط بين مقتل شاب مصري وثورة مصرية نقية حقيقية.. يبقى أنا كده "بكبّر الموضوع".. لكن عارف انت قصدك الحقيقي إيه؟ إني أنا كبرت الثورة عن حجمها اللي في دماغك.. وهي دي يا صديقي المشكلة.. الثورة أكبر وأهم وأغلى من اللي في دماغك.. وأغلى عند ناس كتير منك.. وعند ولادك أكيد أكتر مني ومنك!!

انظر من فضلك كيف يحلو للبعض أن يهمل ضوء الشمس.. ليتحدث عن السبب في سطوعها.. بحجة أنه يتحسب لاحتمالية أن تكون الشمس "مدفوعة".. في

إطار مؤامرة كبرى ستنتهي باختفائها وسواد الظلام الحالك مرة أخرى! هؤلاء في سعيهم أن يمنعونا من أن تمتد أيدينا لأشعة الشمس أو ضوئها طلبًا للدفء.. خوفًا من أن تكون مؤامرة وبالتالي فهي مؤذية.. وفي مطالبتهم لنا بالصبر حتى يختبروا كل المخاوف.. ويتيقنوا من كل الظنون.. لا يدرون أنهم بذلك لا يضيعون الوقت فحسب.. الوقت الذي لا نتدفأ فيه ولا نستعد لحلول للظلام الذي لا بد أنه آتٍ في النهاية بعد أن أهملنا الشمس ونسينا أنها في نهاية اليوم سوف تغرب ثانية.. وسنكون نحن الذين أضعنا الفرصة بأيدينا!

انظر كيف يهنأ البعض – بقناعة – أن السبب في الثورة كان مزيفًا.. وأنها كانت ثورة مدفوعة.. ومخططة.. ويهمل تمامًا أن الدوافع لها – مهما كانت – لم تكن لتدفع جموع الجماهير إلى تأييدها والرضا بسقوط نظامها.. لولا ما استقر في نفوس الناس من كراهية للظلم.. وضيق من الفساد.. وسخط على بطش الأمن ببعض الأبرياء.. هذه الكراهية للظلم وهذا الضيق وذلك السخط.. التي كانت وقود الثورة.. فلم تكن ثورة الإسكندرية وثلاثاء الخامس والعشرين من يناير سوى مظهرين لانفجار لم يكن يكفيه حادث فردي ليحدث.. وإنما كان لا بد أن يستمد جذوره من تراكمات طويلة رأت في مثل هذا الحادث الذي مثل منهجًا للتعامل الأمني في وقتها.. شرارة كافية لاندلاع بركان الغضب.. وثورة الشعب!!

والخلاصة..

الخلاصة.. لو لم يكن خالد سعيد.. لكان غيره!! الخلاصة أنه ليس في كل حال يصبح سوء الظن من حسن الفطن.. ولا التشكيك في النوايا يصبح طريقًا ناجحًا للوصول إلى الحقيقة الغائبة.. ففي بعض الأحيان تكون الحقيقة واضحة أكثر من اللازم.. وأكثر من أن تحتمل الالتفاف عليها!!

وهذا مثال حواري آخر..

صديق عزيز.. كنا نجلس سويًا في أحد المقاهي فقلت ممازحًا إياه: تصور إن الفنان (فلان) بيسأل في شك: إيه اللي يخلّي شعار شركة (...) بتاعة الحاجة الساقعة قبل الثورة على طول يبقى "عبَّر.. مين قدك؟".. لأ ويقولك يا سلام.. اشمعنا يعني "عبَّر.. مين قدك؟".. ومستغرب جدًّا من حكاية ذكرى مرور 125 سنة على تكوين الشركة.. يعني 1/25.. 25 يناير يعني.. وبيقول إنه سافر أماكن كتير جدًّا في العالم.. ولا حتة فيها موضوع الـ125 سنة غير مصر.. لما المذيعة سألته: طيب وهم قصدهم إيه من الموضوع ده؟ قال: علامة.. إشارة لشوية العيال دي علشان يعرفوهم المعاد المتفق عليه.. يوم 25 يناير يا جماعة..

فوجئت به يفضي إليَّ برأيه في هدوء.. أحسست منه أنه موافق على هذه القصة.. ولا يعتبرها كوميدية على الإطلاق.. قال في ثقة لا أعلم من أين جاءت له: "حكاية الثورة دي كلها على بعضها كده خطة ومدبرة.. اوعى تكون مش واخد بالك؟"..

- "لا والله.. بس أحب إنك تقول لي!!"..

- "يعني ما تستبعدش قوي كده إنها تكون مؤامرة.. ما احنا ساكتين على طول ومش بتوع تخطيط عالي كده.. ما تستبعدش يكون فيه حد وراها وتكون علامة فعلا.. ليه لأ؟ تقدر تنفي ده؟"..

- "بس 25 يناير 2010 يعني قبلها بسنة كان فيه برضه وقفة احتجاجية لنفس السبب.. كانت على أصغر شوية وما كملتش.. برضه كان اتفاق؟"..

- "وإيه المانع؟"..

- "طيب يعني شركة (...) هي اللي عملت الثورة؟"..

- "وانت إيه عرفك مين اللي وراهم؟"..

- "مين؟"..

- "أمريكا وإسرائيل طبعا زي (...) ده ما قال.. وما تقوليش مين عرفك.. دول ما يهمهمش غير مصلحتهم.. وأكيد مش مصلحتهم إن مصر تبقى مستقرة"..

- "طيب وهم مصلحتهم إيه إن حكم مبارك يقع؟ ما هو كل اللي عايزينه منه بيحصل.. مصالح إسرائيل في المنطقة زي الفل.. التطبيع شغال من تحت لتحت.. حتى الغاز بياخدوه ببلاش ومصر شغالة وسيط بينهم وبين العرب.. وحتى مبارك اعتبروه (كنز استراتيجي) لهم.. حسب ما نتنياهو قال.. والفزاعة

بتاعة (يا إما مبارك يا إما الإخوان) كانت معششة في دماغ أمريكا جامد جدًّا.. حتى أثناء الثورة ما كانوش مع الثورة من أول لحظة.. لأ.. كانوا مع النظام ثم ضده ثم معاه تاني.. ولما بانت النهاية عملوا نفسهم مع التغيير وثبتوا على موقفهم.. أغبيا قوي.. لو كانوا بيخططوا لها وبيداروا.. لأنهم ما كسبوش إلا عداء الشعب بالشكل ده.. وده يرجعنا للسؤال تاني: مصلحتهم إيه إن حكم مبارك يقع؟"..

بدا عليه أنه تجاهل هذه النقطة.. أشار إليَّ في ضيق وهو يتناول رشفة من كوب الشاي أمامه في استمتاع يداري به تسارع أفكاره.. ليجهز الرد المناسب.. ثم أضاف: "إن مصر تبقى فوضى دي أحسن صورة هم عايزينها.. ثم تعال هنا: انت ما عرفتش إن العيال بتوع 6 أبريل اتدربوا على الثورة بره؟ دول خدوا تدريبات في صربيا وأمريكا وإسرائيل.. إزاي يقوموا المظاهرة.. وازاي ينرفزوا البوليس.. وازاي يعملوا قلق.. وبعد كل ده تقولي ثورة؟ فلوس يا بني.. فلوس وخيانة"..

– "طيب لو قلنا إنهم كانوا مدفوعين.. على الرغم من إنهم في الحالة دي يبقوا كانوا بيتدربوا على إسقاط نظام فاسد.. بشهادة أي حد عاقل.. وأظنك مش هتعارضني في ده.. الثورة نفسها بقى.. إيه المشكلة فيها؟"..

– "يا بني إحنا ما ينفعش معانا غير النظام ده: بوليس ما يرحمش وقمع وبطش زي ما بيسموه.. الناس مش واخده على جو الحرية والكلام الفاضي ده.. أديك شايف البلد والبلطجة والحرامية في كل مكان.. ثم ثورة إيه؟ كل اللي حصل إن

شوية صيع وبلطجية هاجموا أقسام البوليس وحرقوها.. كانوا يسكتولهم؟ ظابط قاعد في القسم وناس بتهجم عليه.. يقعد ساكت ولا يدافع عن نفسه؟ وتقول لي ثورة!"..

- "طيب والشهدا اللي ماتوا دول؟ والملايين اللي خرجت ترفض قمع البوليس.. وبطش الأمن اللي بتقول إنه ما ينفعش غيره معانا؟ كل ده ماله ومال 6 أبريل.. وماله ومال مين اللي خطط ودفع فلوس والذي منه.. ده لو كان كلامك صحيح؟"..

بدا عليه الغضب الشديد وعلا صوته لأول مرة منذ بدء حديثنا.. قائلا في عصبية:

"لو؟ لو كان كلامي صحيح؟ شعب همجي.. خرج للشارع في الزيطة والهيصة.. ملايين إيه؟ انت بتصدق؟ مين قال ملايين؟ انت عديتهم؟ دي كلها لقطات مقربة وحركات أفلام وشغل مخرجين.. وشهداء إيه؟ والنبي تسكت.. ما هو سهل قوي أعمل لك أي فيلم بـ"الفوتوشوب" وأصور لك فيه اللي أنا عايزه؟"..

- "ودليك إيه على الكلام ده؟"..

- "ودليلك انت إيه؟"..

- "أنا بدَّعي.. مجرد ادعاء.. وبحكم المقولة الفقهية المعروفة: البينة على من ادعى.. والبينة أو دليلي اللي انت بتطلبه هو عشرات الأفلام والبث الحي أيام

الثـورة.. عـشرات القنـوات: (الجزيـرة).. الـ(سـي إن إن).. الـ(بـي بـي سـي).. (الحرة).. (العربية).. كلها اتفقت علينا وذاعت أفلام معمولة بالفوتوشـوب.. فـين دليلك انت بقى؟"..

– "الجزيرة؟ CNN؟ BBC؟" وأشـاح بيـده في سخرية تـدعمها ابتـسامته الواثقة قائلاً في استهتار: "ده انت عامل نفسك مش عارف بقى القنـوات دي وراهـا مين؟"..

– "ماشي.. (الجزيرة) يعني قطر اللي مـا بتحـبش مبـارك.. والـ(CNN) والـ(BBC) يعني أمريكا.. وبالتالي إسرائيل.. و(الحرة) كذلك.. و(العربية) يعـني السعودية.. أكيد هتقول إن أمريكا مسيطرة عليهم هم كمـان.. لكـن كلـهم في لحظـة واحدة يذيعوا أفلام معمول لها فوتوشوب؟ فيـه علـى فكـرة كمـان قنـوات أوروبيـة ومراسلين من دول كتير أذاعوا لقطات تانية فيها ضرب نار في الميدان وعلى كـوبري قصر النيل.. طيب بلاش.. لقطات الموبايل اللي ملوا بها الإنترنت..."..

قاطعني في غضب: "هو حد جاب لنا (الكافية) غير النت؟ عايزني أنزل لك 100 فيلم على النت دلوقتي.. أي أفلام ملعوب فيها زي ما أنا عايز؟"..

– "يابني فيه شهود عيان.. وناس رجعت من التحرير.. وأنـا قعـدت مـع مجموعة منهم.. برضه كدابين؟"..

– "تلاقيهم بلطجية وهم مِن اللي حرقوا الأقسام.. ثم انت بتقول إن البينة

على من ادعى.. أنا بقى هقول لك: (واليمين على من أنكر).. والله العظيم ما كانت ثورة.. كل دي خطة.. وعليه العوض في البلد وعليك وعلى أشكالك!!".

قلت في إحباط وأنا أشير للـ"جرسون" بطلب كشف الحساب: "هو عليه العوض فعلا!".

- "انت زعلت؟"..

- "لأ.. عليه العوض في الحساب.. أنا اللي عازمك النهارده.. مش معقول دمك اتحرق معايا قوي كده وتدفع كمان!!".

- "والله أنا اتنرفزت عليك من خوفي عليك"..

قلت في بساطة متسائلاً: "لا أبدا.. لكني أريد أن أسألك سؤالاً"..

- "اتفضل.. كلي آذان صاغية"..

- "لو في يوم من الأيام الثورة نجحت.. يعني الكائن المشوه اللي انت مش معتبره ثورة ده.. طلع له راس ورجلين.. وبقى حاجة كده زي البني آدم من لحم ودم وله ملامح واضحة.. والبني آدم ده - ده اللي هو الثورة - أصبح يقود البلاد في سكة التقدم.. البلد في يوم من الأيام لقيناها ماشية على الطريق الصح.. بفرض إن ده حصل.. إيه هي أهمية مين اللي خطط ليها ومين اللي دبر ليها؟"..

- "وانت فاكر ان اللي خطط هيسيبك تعدل البلد وتظبط الدنيا كده؟"..

- "يعني إحنا ما نقدرش نستغل الثورة اللي جاتلنا بمخطط خارجي دي..

فنحاسب المفسدين.. ونحط دستور محترم.. وننتخب صح.. ونشتغل صح؟ هو حد هيمنعك من الكلام ده لو انت عايز؟"..

- "نظريًا لا.. لكن عمليًا..."..

اضطررت لمقاطعته قائلاً: "معلهش اسمح لي.. هو ده بالظبط اللي أقصده.. إحنا نقدر نحول الثورة اللي مش عاجباك دي إلى أحسن حاجة حصلت لنا في تاريخنا الحديث.. أما لو قلنا إحنا ما نقدرش.. يبقى نستاهل اللي يجرالنا.. وما نستاهلش الهدية اللي ربنا بعتهالنا.. واللي لو اشتغلنا عليها بوطنية وإخلاص مظبوط يبقى متهيألي انها ما تفرقش بقى مين اللي خطط ومين تآمر ومين نفذ.. لأننا طلعنا أذكى منهم يا حبيبي.. ده (لو) كان لديهم وجود.. ولو انك بتتضايق من (لو) دي!!"..

* * *

هذا نموذج موجود في تفكير الكثير من المصريين: مزيج من نظرية المؤامرة والتخوين اللذين ينتميان لنفس جذور المشكلة الأصلية.. سوء الظن الذي يقودنا إلى فقدان الثقة.. والبناء على ذلك حتى نفقد الرؤية والفهم تمامًا!!

الماضي الذي يكبلنا بقيوده..

فنشعر بالحنين إلى وقت وأيام ما كنا نحتاج إلى التفكير بعمق لنختار إلى أي الجانبين نقف.. فلقد كنا كلنا وقتها في صف واحد إلى جانب المقهورين الذين وطدوا أنفسهم على التعايش مع الفساد والظلم.. هذا الحنين إلى أيام الهدوء الفكري

الذي كنا نعيشه: فلا ضجيج للثورة ومن معها ومن عليها.. ولا زخم الحديث عن الانتخابات والدستور والمرشحين.. والبلطجية والاعتصامات والاقتصاد.. ولا شعور بالقلق على اليوم والغد والمستقبل.. فاللون الأسود الذي كان لا يميز أملاً من عمل بدا في أذهاننا وذاكرتنا أكثر إشراقًا.. من الحيرة التي أورثها لنا تعدد الألوان على بهجتها.. وحيرتنا من الاختيار فيما بينها.. وضرورة الإدلاء برأينا حولها.. نقول: إن هذا الحنين لذلك الماضي "المريح" صرف أنظارنا عن تقييم هذا الماضي تقييمًا موضوعيًّا.. فماذا فعل النظام السابق من محاسن وجهود لمحاربة الفقر والجهل والمرض.. حتى نكافئه بالدفاع عنه والادعاء أن حالنا كان أفضل؟ ما الجهود العبقرية التي قدمها لنا هذا النظام لنهضة البلاد وتقدمها؟ كيف تهون علينا كرامتنا.. ليس فقط إلى الحد الذي قبلنا منه سواء أحوال المعيشة من ملبس ومأكل ومسكن ومشرب واعتقالات وعشوائيات ومرض.. بل إلى الحد الذي اعتبرنا فيه الجمود السياسي والاقتصادي الذي عشنا فيه التفافًا عبقريًّا حول خيار الحرب.. يستحق من أجله النظام السابق أن نحمده ونشكر فضله.. فيكون الخيار إما الحرب وإما الجمود والتخلف؟ وهو مبدأ لم يختلف كثيرًا عن مبدئه غير المعلن وهو "الخبز مقابل الحرية" ومبدئه الذي أعلنه رأسه في خطاباته اليائسة إبان الثورة: إما الاستقرار وإما الفوضى.. وكان يقصد: إما أنا وإما الفوضى..

هذا الماضي يجب أن نتجاوزه.. يجب أن نرفع سقف آمالنا لأعلى.. نريد أن نعمل على أرض وطننا المصري.. لنستغل ثورة جاءت على طبق من ذهب.. من أين

جاءت ومن أرسلها؟ لا يهم لماذا الآن.. أو لماذا هكذا..

لا يهم.. كن أذكى.. كن أكثر دهاء..

انظر إلى ما ينفعك.. وهو ذاته ما ينفع وطنك..

هكذا لن نسيء الظن إلا بأهله..

وهكذا نعيش يومنا ليكون غدنا أفضل..

أجد نفسي مصدومًا من الاعتناق الشديد لنظرية المؤامرة حتى صرنا لا نستطيع أن نرى أي ميزة في أنفسنا.. بل لا نصدق حتى لو أقسم لنا الآخرون إننا فعلنا وفعلنا.. كيف يمكن أن تصل عدم الثقة في النفس إلى تهميش دور أمة بكاملها.. فتسلب إرادتك بيديك.. وتلغي دور قدرتك على التغيير لمجرد أنه "ما حدش هيسيبك تغير ولا تطور"؟!

هل هي نظرية المؤامرة؟ هل هو رفض التغيير؟ هل هي فقدان الثقة بالنفس؟ هل هي متلازمة "استوكهولم" التي كثر الحديث عنها.. والتي ترتبط بحب الجلاد.. لكننا طورناها كمصريين.. فتعاطفنا مع الجلاد.. وعصره ورجاله ونظامه وكل ما تعلق به.. أم أن ما يسيطر على هذا القطاع من المصريين – الذي تمثله هذه الأحاديث – هو مزيج من هذا كله؟

غير أن السبب الحقيقي لهذا النمط الفكري المضاد للتغيير والرافض للتسليم بالواقع ينبع من قيود الماضي التي تشدنا إليها.. كما نفهم من المثال التالي:

يحاكي واقعنا السياسي الذي نعيشه اليوم أحداث فيلم "سوق المتعة" الذي جسد رؤية درامية في نهاية القرن الماضي.. عاشها أحمد أبو المحاسن (محمود عبد العزيز).. بطل الفيلم الذي قضى عشرين سنة في السجن ظلمًا.. ولما خرج وامتلك حريته وثروة هبطت عليه من حيث لا يحتسب اكتشف أنه أصبح عاجزًا عن الاستمتاع بأي متعة إنسانية مهما كانت بسيطة بشكل طبيعي.. وذلك لأن سنوات السجن شوَّهت فطرته وقدرته على ممارسة الحياة الطبيعية.. في أول ليلة حرية لأبو المحاسن.. لم يستطع النوم في جناح الفندق الفخم على الرغم من إرهاقه الشديد.. فحمل فراشه.. وذهب لينام في دورة المياه.. التي فشل أيضًا في استخدام محتوياتها.. واصطدم بواقع الحرية والحياة المرفهة اللتين لم يتعايش معهما.. فقرر أن يشتري قطعة أرض بعيدة ليبني عليها سجنًا مشابهًا للذي كان محبوسًا به.. وأرسل في طلب كل زملائه السجناء وزعيمهم المفتري.. والسجانين ومأمور السجن.. ليوفر لنفسه الأجواء التي عاشها في السجن 20 عامًا.. الطريف حقًا والمثير للتأمل.. على خلفية الأزمة الفكرية المصرية تجاه سيناريو "تآمر الثورة" والتحمس لفكرة أن ما قبل الثورة كان أفضل.. هو أن "أبو المحاسن" أخضع نفسه.. على الرغم من أنه مالك السجن.. لأبشع أساليب التعذيب والمذلة من قبل من أرسل بطلبهم ليعملوا في سجنه.. وكان يشعر بنشوة وفرحة غامرة لتعرضه لتلك المعاملة التي اعتادها في محبسه.

لم يتخلص الرجل على الرغم من إطلاق سراحه من شذوذه وأمراضه.. بسبب سنوات السجن.. وأخشى أن يكون هذا هو مصيرنا.. على الرغم من أجواء الحرية التي نعيشها!

* * *

الكثيرون.. بمناسبة ومن دونها.. يلعنون اليوم "اللي حصل فيه ثورة" ويؤكدون أن أيام الظلم الماضية كانت أحسن.. تسمعهم يضيفون بعدها في رصانة وحكمة: "على الأقل البلد كانت ماشية.. على الأقل ما كانش فيه بلطجة.. على الأقل... إلخ".. المهم أن يخلصوا إلى لعن الثورة والحنين للماضي.. على الرغم من أنهم يتحدثون عمَّا لا علاقة له بثورة لم تصل إلى الحكم.. حتى تتهم بإفساد الحال والأحوال.. وعلى الرغم من أنهم يناقشون أمورًا "على هامش" الأحداث.. ولا يمكن إدراجها كنتائج للثورة.. بقدر ما تندرج تحت أبواب أخرى أكثرها تآمرية هو "الثورة المضادة".. وأشدها براءة هو المضاعفات المجتمعية الطبيعية.. التي تحتاج لحزم الأمن وصبر المواطن.. كثيرون منهم لا يشكون من أي من ذلك.. بل إن متطلباتهم كلها موجودة.. لكنها الروح التي تعودت القمع والتقييد واستكانت إلى الانقياد وارتاحت إلى عدم الاضطرار إلى التفكير.. والقرار والاختيار.. ثم الأهم.. وهو تحمل تبعات هذا الاختيار..

هذه الروح تحتاج مصر إلى أجيال للتخلص منها.. لنحصل على المصريين الجدد ممن يتجه تفكيرهم للمشاركة والتغيير.. ولكن إلى حين ذلك.. سيظل ذلك

الصراع بين جيل مدمن للتقييد وعدم المشاركة.. وجيل متجه للتغيير والمشاركة..

تريد دليلاً على كلامي عن الفارق بين الأجيال في التفكير؟ تريد دليلاً على تكبيل تفكيرنا بقيود الماضي والتعود على القهر واستمراء السلبية؟

هدى جعفر نزلت إلى شوارع القاهرة بعد ثورة يناير.. سألت عجوزًا جائلة تبيع الفطير "المشلتت" فأنكرت أن هذه كانت ثورة وحقرت منها في مقابل المثال الذي تحفظه ذاكرتها وهو ثورة 1952.. قابلت بعدها مجموعة من السيدات الأصغر سنًّا فاستطلعت رأيهن في إطار بحثها الميداني.. وجدتهن على اتفاق واضح بالمطالب المشروعة ومستقبل العمل المجتمعي.. ثم قابلت شابات مراهقات في مطعم صغير.. تقول هدى جعفر عن هذا اللقاء: "وجدت هناك مجموعة من الفتيات لا يتجاوزن السادسة عشرة.. عرفتهن بنفسي وبرفيقتي فرحبن بنا جدًّا.. توجهنا إلى المطعم وتحدثنا عن الثورة وأحلامهن ومخاوفهن.. وما سمعته أثار دهشتي بحق.. هؤلاء الطفلات لديهن وعي كامل بالثورة.. وقد ناقشنني بكل التفاصيل الخاصة بالمشهد السياسي المصري.. وقدمن تصورهن للأيام المقبلة.. وتحدثن عن المستقبل بكل أمل وشغف.. هؤلاء الفتيات منتعشات الروح لأنهن عشن عمرًا أقل تحت نظام (مبارك).. ولهذا كن أكثر تعافيًا من النساء الأكبر سنًّا.. وكانت نفسيتهن أكثر صحة من (المواطنات) اللاتي قضين سنوات أطول تحت النظام البائد.. إذًا ما قالته الحاجة أميرة ليس معاديًا للثورة.. لكن هذا ما تعلمته من نظام (مبارك).. حديثها كان نتاجًا لما تلقته من كذب وتدليس وتحطيم للروح المصرية المتسامحة والمحبة

للحياة.. فكلما كان العمر أطول تحت النظام الـديكتاتوري كانـت نظارتـك الـسوداء سميكة على الرغم من كل الفرح الذي يحيط بك".

(هدى جعفر – الحوار المتمدن – العدد: 3402 – 2011/6/20).

* * *

الماضي!!

أعتقد أن ذلك هو ما يكبلنا جميعًا ويمنع عقولنا من التفكير على نحو سليم..

الماضي كان ثقيلاً علينا جميعًا.. وأكثر من ثقل عليهم الماضي هم من عايشوه زمنًا طويلاً.. لذا نجد أن بعضنا لا يزال لا يصدق أننا على طريق التخلص من آثاره وجثومه على صدورنا بهذه السهولة.. وبهذا السيناريو المفاجئ الذي لا يزال يبدو.. ولكثير منا.. خياليًّا.. وأفضل من أن يكون حقيقيًّا.. فيصبح من السهل الانجراف إلى نظرية المؤامرة وسلوك "التخوين" وسوء الظن..

لكن المهم حقًّا هو أن نفهم أن الثورة هي فرصة مصر التاريخية للنهوض.. هذه الفرصة التي ربما لن تتكرر.. هذه المنحة الإلهية التي لا يقلل من عظمتها تخطيطها أو تدبيرها.. من شهد يومًا واحدًا من الأيام الـ18 للثورة يعرف ذلك.. يشهد بإحساس المدد الإلهي الذي غمر الجميع.. حتى سقط نظام اعتقدنا أنه دائم للأبد.. فإذا بالدائم والباقي هو الله.. وإذا بمصر تنهض من عثرة طويلة.. لا تستحق

منا معها سوى أن نمد لها يد العون بأن ننظر للأمام.. فنضمد الجروح.. ولا ننشغل بمن أمسك في يده السلاح وتسبب في الجرح من الأساس.. ناهيك عن الدفاع عنه أو التحسر على أيامه..

* * *

بعضنا يجعلك تتمنى في حديثك معه أن تهمس في أذنه كما يؤذن للطفل بعد ولادته.. فتتمنى أن تقول في أذنه مكررًا: "والله العظيم حصلت ثورة!!".

لكن الهدوء والتعقل وإعلاء مبدأ "انظر للغد.. وأخلص للوطن".. هي السبيل في نقاش المصريين اليوم.. وغدًا.. الذي هو لناظره قريب!!

الباب الثاني

أزمة الشخصية المصرية
بعد ثورة يناير

كنا قد ذكرنا في الباب السابق كيف أن الثورة أصيبت بالأنيميا.. وهي مجموعة من الأعراض الواضحة.. التي اقترنت ببطء التغيير.. وتشتت الجهد الفكري في مناقشات ونزاعات فرعية.. لا تقدم ولا تؤخر.. ثم بظهور مشاكل وأزمات كثيرة ومتلاحقة.. مختلفة الأسباب والنتائج.. أدى ذلك كله إلى كسر فورة التفاؤل.. والحد من دفعة الأمل الشعبي.. فيما نطلق عليه في فصل لاحق: سيناريو "حرق" أو "سد نفس" الثورة.. الذي تمثل في انتشار إحساس عام بأن الثورة تمت سرقتها.. أو إجهاضها بالفعل..

ننتقل إلى مرحلة رصد وتحليل الأسباب التي ساعدت على إصابة الثورة بالأنيميا.. ووصلت بها إلى نمط "التقفيل" المصري.. الذي أنتج ثورة في صورة مختلفة عن المأمول منها.. هذه الأسباب تتعلق بأزمات واضحة في الشخصية المصرية التي تلقفت الثورة بعد يناير..

* * *

أحاول هنا إبراز مجموعة من الأنماط السلبية للشخصية المصرية بعد الثورة.. تضافرت هذه الأنماط كلها معًا لتكوين إحساس مضاعف بأنيميا الثورة.. وأسهمت في عرقلة كثير من الحلول التي كانت ممكنة لكثير من المشاكل التي واجهتنا.. كما تسببت في زيادة إحساسنا بـ"سد النفس" و"إجهاض الثورة".. وعطلت من محاولاتنا الإصلاحية.. ومن استماتتنا في مواجهة أي مشاكل.. بل على العكس.. استسلمنا لكثير منها.. بدوافع كثيرة نوجزها في أزمات الضمير.. والفكر والسلوك..

أزمة الضمير المصري قبل يناير

عندما نذكر "أزمة الضمير" لا نعني بها ضمير السواد الأعظم من المصريين.. في تعاملاتهم اليومية من بيع أو شراء أو غيرهما.. ولا نشير إلى الصدق والوضوح وعدم المواربة في التعامل.. بل إننا نشير إلى أزمة الضمير الفكري والسلوكي لدى طبقتين مهمتين من المثقفين.. تمثلان أقوى تيارين سياسيين واجتماعيين بعد ثورة يناير.. وتمثلان أيضًا امتدادًا لنفس التيارين ما قبل الثورة.. ونعني بهما الليبراليين والإسلاميين..

لا بد أن نتفق في البداية على أن الفهم الصحيح للدين وإعلاء الضمير المستمد من القيم والأخلاقيات العامة كانا يقضيان بالثورة على الفساد في مصر بشكل أكثر فاعلية ومنذ سنوات طويلة.. لا نخفي سرًا ولا نذيع مفاجأة عندما نقول: إن ثورة يناير جاءت متأخرة لسنوات.. وإن أهم أسباب تأخرها هو استغراقنا في همومنا الحياتية.. التي كرسها وزاد من ثقلها النظام السابق.. كذلك بُعدنا الواضح عن الانشغال بمبادئ ديننا الواضحة.. التي لا تتعارض أيضًا مع مبادئ الأخلاق

العامة.. والقواعد الفكرية الليبرالية.. ولا تقتصر على عقل المسلم دون المسيحي أو العكس.. وأهم تلك المبادئ هي: العدل.. وضرورة رفض الظلم.. وقول الحق لدى سلطان جائر.. والخروج على الفاسدين والظالمين.. من دون الدخول في حلقات وغياهب الفكر الرافض لذلك بأسانيد ملتوية.. وأطروحات تتجاهل الواقع.. وتتشبث بقصص الماضي.. ودروس أهيل عليها التراب منذ قرون وقرون..

فإذا اتفقنا على أن الثورة كانت حتمية لأسباب "دينية".. أو لأسباب "ليبرالية".. فإننا لا يسعنا إلا أن نبدي دهشتنا و"ضيقنا" كذلك.. لأنها عندما قامت.. سواء في تونس أو في مصر.. فإنها لم تقم لأي من هذه الأسباب في الحقيقة.. نقولها ونشير بوضوح إلى عدم اختلاف الدوافع الدينية عن مثيلتها الليبرالية في هذا النطاق المحدد.. وهو نطاق الثورة من أجل الظلم والفساد وتدني أحوال البلاد والعباد.. وسبب ذلك "الضيق" من جانبنا هو أن هذه الجماهير العظيمة – سواء المصرية أو التونسية – عندما اختارت الثورة.. فإنها اختارت لنفسها "أيديولوجية" خاصة هي "أيديولوجية" الفطرة الشعبية المتأصلة فيها عبر سنوات وسنوات.. هذه الفطرة التي لم تجد – حقيقة – على أرض الواقع وميدان الثورة تيارًا يدعمها أو يفجر ثورتها.. وبالتالي يضمن تبعية هذه الجماهير له في المستقبل.. الفطرة التي اختارت أن تثور.. بعد أن فشلت كل جهود دعاة الدين ودعاة الليبرالية والفكر.. في تطبيق المبادئ العامة التي يملكها كل طرف.. والتي بدا – للأسف – كأنهم لا

يفهمونها ولا يستوعبونها قدر استيعاب شعوبهم النابهة لها.. ليكون مشهد الثورة هو مشهد الفشل الفكري للتيارين: الإسلامي والليبرالي.. لأنهما ببساطة لم يفهما معًا تعاليم دستوريهما.. ولم يستوعبا أصلاً التشابه بين هذه التعاليم في نقاط اتفاق.. كانت لتلعب دورًا في اتحادهما معًا لأجل الوطن ومصلحته.. والعباد وخيرهم.. فإذا بفهمهم السلبي للدين والليبرالية معًا يؤدي بهما لتثبيط ثورة الشعوب قبل انطلاقها.. والتردد عن اللحاق بركبها.. ثم التنافس على خطب ود هذه الشعوب وهؤلاء الثوار.. تنافسًا يصل إلى حدِّ النفاق وتغيير بوصلة المواقف 180 درجة.. ثم التنافس على السلطة والحظوة الجماهيرية بشكل سافر.. تجلت فيه بعد هذه الثورات أزمة الضمير مرة أخرى.. من خلال تحقير الآخر.. واللعب على وتر العاطفة الدينية أو السياسية.. أو التلويح بمخاطر مصادرة الحرية الفكرية أو الدينية.. لو انتصر ذلك الطرف أو ذلك..

هكذا فالجماهير لم تتبع تيارًا ما من منطلق ارتباطه بالثورة.. بل من منطلق قدرته على "تلميع" نفسه وتحقير الآخر..

وبذلك.. فما الضمانة لو انتصر هذا التيار أو ذلك أن يكون في مسلكه راعيًا لأهداف ثورة.. لم يؤمن في قرارة نفسه أصلاً بوجوبها.. ولم يجد في "ضميره" الشجاعة للإقدام عليها؟ بل وتردد طويلاً في الانحياز إليها.. وعندما فعل.. كان ذلك بعد ظهور ملامح النجاح.. وأملاً في "ركوب الأمواج" ونزعًا إلى السلطة.. ثم إنه

انشغل طوال الوقت بإثبات جدارته عن طريق إبراز عدم جدارة الآخر.. أكثر بكثير من إثبات وجاهة أفكاره هو نفسه.. هذه الأفكار التي ظلت لسنوات طليقة في مجتمع متفاعل بها.. فلم تنجح في تحريك ساكن.. أو إلقاء حجر في ماء البركة الآسن.. أو تحريك ثورة تستمد شرعيتها أساسًا من أفكار التيارين نفسها.

* * *

نتابع فيما يلي كيف تعاملت هذه التيارات مع ثورة تونس وثورة مصر..

على الرغم من اختلاف الشرائح المجتمعية في "تونس" عنها في مصر.. حيث يرتفع مستوى التعليم الجامعي في الأولى ليبلغ 98٪.. بينما لا تقل الأمية في مصر عن 40٪.. على أفضل تقدير.. فإن هناك تشابهًا قويًّا في قوة وتغلغل التيار الإسلامي في المجتمعين.. وفي وجود تيار ليبرالي مصري واسع الانتشار بين طبقة المثقفين.. يسانده تيار حكومي نظامي علماني "في تونس".. وشبه علماني "في مصر".. لذلك نجد أن المقارنة أو المشابهة تكون واجبة.. بل ومن المفيد أن نتأمل فيها: في "تونس".. وعند الإعلان عن واقعة "بوعزيزي" الشهيرة.. تنافس التيار الإسلامي هناك على مناقشة "حرمة" قتل النفس.. وعلى مصيره في الدار الآخرة.. وعلى الرغم من وجاهة نقطة النقاش.. فإن إهمال أسباب الحدث – على اعتبار أنه لا مبرر لقتل النفس أو الانتحار من المنظور الديني – كان أيضًا يتعارض مع المنظور الديني الصحيح لدرء الفساد ومقاومة الظلم المجتمعي لنظام يدفع شبابه إلى اليأس من حياته بهذا الشكل..

التيار العلماني في "تونس" لم يكن أفضل أداء.. فهُم أيضًا ركزوا على ما يهمهم وما قد يميزهم - من وجهة نظرهم - عن التيار الآخر.. وكأن الوقت كان مناسبًا لإبراز التميز.. وليس للبحث عن أوجه الاتفاق الوطني والتفتيش عن نقاط الاتحاد في وجه الظلم.. لمصلحة البلاد.. فجاء تركيزهم على واقعة "اليأس من الحياة بسبب الظلم".. وصاحب ذلك رفض شديد لإقحام الدين في الأمر.. من منطلق رفض "الرجعية" و"التخلف".. هذا النمط الفكري العلماني البغيض.. الذي يفوت أصحابه دائمًا نقطة بالغة الخطورة.. وهي أن فكرة مقاومة الظلم والفساد والثورة عليهما هي بالأصل فكرة دينية أخلاقية أصيلة.. وأن الانقلاب على الدين ودوره فيها هو انقلاب على صحيحه وفهمه القويم.. وليس انقلابًا على "تطرف" أو "مغالاة" بعض المنادين به.. ممن يفهمونه أيضًا بشكل غير صحيح..

عندما انطلقت شرارة الثورة في "تونس".. جاء تعليق التيار الإسلامي بعدم جواز دعم هذه الثورة لأنها "ليست ثورة من أجل الدين.. بل هي ثورة من أجل الخبز!!".. هذا الموقف تحديدًا هو ما يشير أكثر من غيره إلى ما نعنيه بأزمة الضمير.. ضمير إما أنه يعلم زيف ادعائه.. بأن الخبز والثورة من أجله "شيء آخر" غير الدين.. ويعلم زيف قناعته بأن الحاكم غير مسئول عن الخبز كامتداد لشرعية حكمه من خلال الخلفية الدينية.. وإما أنه لا يعلم ذلك.. ويقتنع بذلك الفارق فعلاً.. وهي مصيبة أكبر.. فكأن هؤلاء لم يستمعوا لصوت "الفاروق".. وهو يهدر عبر

الزمن.. يعلن تخوفه أن يحاسبه الله عن بغلة "عثرت" بالعراق.. وهو الذي لا يمتلك فضائيات ولا وسائل اتصالات حديثة تنقل إليه ما يحدث في كل مكان لحظة بلحظة.. أو قراره بوقف حد السرقة في عام الرمادة.. عندما انتشر الفقر..ولم يجد الناس "الخبز"!! أو ارتياحه لوجود من يقومه بالسيف لو وجد فيه اعوجاجًا!!

عندما نجحت شرارة الثورة في "تونس".. جاء الأسوأ..

فعندما بدأ التيار الإسلامي في النقاش بإيجابية عن الثورة وشرعيتها ووجاهتها.. وعن "تونس الحرة".. وعن أرواح الشهداء.. وكان في ذلك - على ما يبدو - يعتمد على ضعف الذاكرة السياسية التي يشتهر بها الشعب العربي عمومًا.. هذه الذاكرة القوية واقعيًّا.. التي عبر عنها المواطن التونسي البسيط في عفوية صادقة.. بدت وكأنها تخطت حدود النقاش بين الإسلاميين والعلمانيين.. لتصل في براعة ودقة مذهلتين إلى عين الحقيقة وكبدها.. ولترسم في وضوح زيف ادعاء انفصال الدين أو انفصال الليبرالية عن فكرة الثورة.. حينما قال قولته الشهيرة: "لقد هرمنا جميعًا لنرى تلك اللحظة التاريخية"! هذا هو الضمير السليم الذي فقدناه أيضًا في مصر.. هذا هو الضمير السليم الذي يرى بوضوح.. ويرصد في عدل.. فيصل إلى الحقيقة التي تتفق "بالصدفة" مع الفهم "الصحيح" للدين.. ومع الفهم "الصحيح" للحرية والليبرالية.. بل إن هذا هو الضمير السليم الذي يكاد يكون نبراسًا لكلا التيارين.. عسى أن يريا علامات الطريق.. ويتبعا لوحة الإرشاد التي تدل عليه..

أما في مصر.. فحدِّث ولا حرج..

ثـورة مـصر تـدرجت في مراحلـها بعـد نجـاح ثـورة "تـونس".. فعقـول الجماهير قارنت فورًا بين الفساد والظلم لديها.. وبين مثيليهما في "تونس".. ورأت – في إطار إحساس التفوق المصري على نظائره من العرب – أنها كانت هـي الأجـدر بالثورة.. ليس فقط من منطلق هـذا الإحـساس.. وإنمـا مـن منطلـق إحـساس تماثـل المواقف والظروف الظالمة.. بـدأت دعـاوى الثـورة ووقفـات الاحتجـاج أمـام مجلـس الشعب.. أحرق ثلاثة أنفسهم بالبنزين معترضين علـى همـومهم الحياتيـة المزمنـة وضيق الحال.. وبدأت دعاوى ثـورة الغـضب 25 ينـاير.. علـى صـفحة "كلنـا خالـد سعيد" على شبكة الإنترنت..

مواقف التيارات الإسلامية كانت أوضح من أن يتم إنكارها.. وكلها موثقـة ومسجلة..

فالإفتاء بحرمة قتل النفس مع إهمال التطرق إلى الفساد وظلم الحاكم اشتعل في كل منبر.. وكل برنامج فضائي وعلى صفحات الصحف.. ومـع اقـتراب الخـامس والعشرين من يناير.. أعلن الإخوان المسلمون أنهـم يرفـضون المـشاركة في مظـاهرات تعلن الخروج على السلطة.. كما أعلن "الأنبا شنودة" الأمر نفسه.. معللا ذلك بأنهم (أي: الأقباط) لا يدرون من وراءها.. أما الليبراليون.. ومنهم حزب "الوفد" كمثـال على حزب سياسي عريق.. فقد شاركوا في إعلان رفض الاشتراك في المظاهرات..

أغرب ما في الأمر أن هذه التيارات كلها – سواء الدينية أو الليبرالية السياسية – قاسى الأمرّين من هذا النظام.. ولاقى الأهوال التي تنوعت بين الإقصاء الفكري والسياسي.. والإيذاء البدني والتنكيل.. واختيار هذه التيارات لهذه الوضعية الرافضة للثورة لم يكن يعني للأسف إلا إيثار السلامة على المبدأ.. وتفضيل الأمن على الفكرة.. ويوحي بعدم استيعاب فكرة وجاهة الفعل الإيجابي.. والاكتفاء بالسلبية كمسوغ لاستمرار القدرة على البقاء.. ويا له من بقاء نراه مخزيًا.. معيبًا.. وبلا فائدة!!

ألمس هنا وترًا شديد الحساسية.. وأعلم ذلك جيدًا.. فالإخوان المسلمون يؤمنون بأن الثورة لم تكن لتنجح لولا صمودهم.. خاصة في جمعة الغضب وأربعاء موقعة الجمل.. ويتشدقون طوال الوقت بأن أي منكر لذلك يحاول التقليل من قدر الجماعة.. ويصمهم بما ليس فيهم..

بداية.. فإن هذه حقائق لا يمكن إنكارها.. فالإخوان المسلمون كانوا بالفعل دعمًا هائلاً لشباب الثورة في الميدان في الجمعة الأشهر 28 يناير.. والثاني من فبراير.. ولكن ما يعنينا هنا هو التفريق أو التمييز بين "الجماعة" و"شباب الجماعة"..

فالجماعة.. ككيان ديني يشتغل بالسياسة.. فشلت تمامًا في توجيه الفهم الديني الصحيح لطاقة تدعو إلى الثورة على الظلم.. بنفس الطريقة التي نجح فيها

شباب غير مسيَّس وغير منتمٍ لأي جماعة.. والجماعة فشلت أيضًا في إشعال شرارة الثورة.. بل إن الثورة لم تكن لها أي انطلاقة من وحي الدين بشكل صريح.. وإنما عن طريق الفهم الصحيح لما يدعو له الدين والحق والعدل والليبرالية معًا.. وكان التمسك بذلك كله ضروريًّا لاستمرار الثورة..

أعلنت الجماعة بعد ثلاثة أيام أنها "تستجيب" لمطالب الشباب بنزول الإخوان المسلمين إلى الميدان.. وهو أمر يشير بوضوح إلى من الذي كان بالفعل "يدعو" إلى التظاهر والثورة لتلبية مطالب معينة.. ومن الذي "استجاب" بعد انطلاق شرارة البداية.. ذلك يعني أن الجماعة – بكل ثقلها الديني وقوتها الاجتماعية – لم تنجح في إطلاق محرك الثورة من البداية.. بل إنها سارعت بالركض وراء الحق عندما اتضحت صورته وتجلت.. فلماذا لم تكن الأمور أوضح من ذلك في البداية؟ ولماذا لم تعتمد الجماعة هذا "الحق" قبل أن يصبح واقعًا يتبعه الجميع؟ هنا برز الفارق الأكبر بين الجماعة وشبابها؛ فبينما تفانى الشباب من الجماعة في القتال في الميدان.. ونظموا صفوفًا من الصراع المنظم مع رجال الأمن.. واستشهد منهم العشرات.. كانت الجماعة تتصرف بشكل "دعائي" على الفضائيات.. فتعتمد لهجة هادئة ذات سقف منخفض جدًّا للمطالب.. يكتفي بتغيير الدستور.. بل وعلى وجه الدقة: القيام بـ"إصلاحات دستورية".. وتوافق على إجراء حوار مع السلطة وهو الموقف المتخاذل نفسه الذي اعتمدته الأحزاب والتيارات الليبرالية.. الموقف الذي

رفضه شباب الميدان.. ومنهم شباب الإخوان.. بشكل جماعي.. ولم تفلح في تهدئتهم الحجة التي أعلنتها الجماعة: أنهم أحسوا بأن هذه الجلسات تقف خلفها "نية حسنة".. بل واستمرت دعاوى التهدئة من جانب هذه الأطراف الإسلامية والليبرالية.. موجهة لشباب الميدان.. ومدعومة بدعاوى الحرص على عدم التخريب.. وهو الأمر الذي أثار انطباعًا عامًّا دعمه الإعلام.. أن هناك تخريبًا متعمدًا يحدث في إطار هذه المظاهرات.. الأمر الذي اتضح عدم صحته في النهاية..

هكذا تناقض موقف الجماعة السياسي الذي لم يتمسك بالفهم الديني أو الليبرالي الصحيح لمعنى الثورة.. ومفهوم إصلاح الفساد.. تناقض مع الموقف المشرف لشباب الإخوان الذين زاد من نبل أدائهم رفضهم لرفع أي شعارات دينية في الميدان.. وتكرر موقفهم الواضح من المشاركة والتأييد مرة أخرى في الثورة الثانية يوم 27 مايو 2011.. عندما نزلوا في الميدان وسط رفض الجماعة لموقفهم.. وتورط الجماعة في وصف الثورة بأنها "ضد الشعب" وأنها "جمعة الوقيعة بين الجيش والشعب".. في موقف بدا كالعادة منفصلاً عن واقع الحياة وكيان الحق.. وضمير الشعب.. الذي يختار بفطرته.. فيجيء متسقاً مع الواقع والحياة والحق الضمير!!

أما موقف الدعاة والسياسيين والليبراليين.. فكان شديد الغرابة والخزي معًا.. ويدعونا للتساؤل عن سبب هذا المسار العجيب.. لاتخاذ موقف ما.. ثم الهرولة وراء موقف معاكس بالحماس نفسه.. الذي لا يفسره أي مبدأ ثابت لدى

صاحبه.. والأدهى من ذلك أنه يدل على نقص فهم معاني الحق.. والتمييز بين الظالم والمظلوم كما يعرفها الدين.. وكما تصفها مبادئ الإنسانية الحقة..

فوجئنا جميعًا مع انطلاق المظاهرات واحتدام النقاش حول شرعيتها.. وحول معنى ووجاهة فكرة الثورة.. فوجئنا بالتيار السلفي.. ممثلاً في الشيخ "محمد حسان".. الذي عُرف عنه تحريمه للخروج على الحاكم وتجريمه للتظاهر.. فوجئنا بنزوله للميدان معلنًا غرضه وهو تهدئة الشباب ودرء نيران "الفتنة".. وهي مرادفات عقلية لإجهاض الثورة.. أعقب ذلك الحديث الباكي للشيخ "خالد الجندي" على الهواء مباشرة.. وكلامه عن "الفتنة" التي استشرت وسط الشباب.. وطلبه المباشر منهم أن يبقوا في منازلهم.. ثم كلام "مصطفى حسني" عن افتقاد الشباب الذكاء العاطفي.. والمقارنة بين صورة مبارك وصورة الأب في ضمير المسلم وعقل الإنسان القويم (!!).. حتى شيخ الأزهر لم يخرج عن هذا الخط.. بل وندد بالفتنة والإيقاع بين الناس بالخروج على الحاكم.. وكلام آخر كثير عن التخريب.. ثم جاء رموز الليبرالية ومدعو الحرية.. لنفاجأ مرة أخرى بعمرو أديب.. الذي رحب كثيرًا بخطاب مبارك العاطفي عشية موقعة الجمل.. واعتبره حلاً مقبولاً.. كما دعا قبلها الشباب صراحة إلى "التفاوض" وتوطيد أنفسهم على "قبول أمور معينة".. وأسهب في حديثه عن "أن السياسة هي فن الممكن".. وشارك شقيقه "عماد أديب" الذي لم تشفع له تحليلاته السياسية المنطقية في أن نغفر له تورطه بالدعوة لإيقاف

التظاهر بحجة أننا "لدينا اختيار من اثنين: يا نعيش.. يا نعيش".. واعتبر أن هذين الاختيارين في النهاية هما اختيار واحد: هو ترك الميدان لدفع "حال البلد" للأمام.. كما انغمست الأحزاب في "حوار" مع السلطة.. واندفع الكثير من الفنانين ورموز المجتمع في مهاجمة الشباب.. وإبداء الاندهاش من الانقلاب على النظام.. ذلك كله كان يقف على طرف النقيض الكامل من وضوح الرؤية وصلابة الموقف الثوري لمرتادي ميدان التحرير.. الذين رفضوا هذه المواقف "السياسية".. وتمسكوا بموقفهم الذي التزم أكثر من منتقديهم بالصحيح والحق والعدل.. رافعين جملة واحدة لا تتغير: "الشعب يريد إسقاط النظام"!!

* * *

التأخر أو التباطؤ في تأييد الثورة والاندفاع مع تيارها.. والاقتناع بشرعيتها وجدواها من قبل التيارات كلها.. ممثلة حتى في بعض الرموز الدينية مثل د. محمد سليم العوا ود. صفوت حجازي ود. محمد عمارة.. ورموز ليبرالية كثيرة مثل د. عمرو حمزاوي والموسيقار عمار الشريعي وغيرهما.. على الرغم من أنها كلها جاءت كعلامات إيجابية فإن ذلك الفارق في "شجاعة" الاندفاع لتأييد الشرعية أكد ما جاءت الثورة لإيضاحه.. وهو أن الشعب حسم أمره من دون اللجوء لمرجعية تيار دون الآخر.. لا المرجعية الدينية ولا الليبرالية.. وهو أمر يبعث على الحزن.. لأن المتدثرين بهذه المرجعيات أنفسهم لم يفطنوا إلى أن سطور دساتيرهم كانت في الأصل هي الأجدر بالتشجيع على الثورة.. والحفز على الانتفاض في وجه الظلم والخروج

على الفاسدين.. لكنهم لم ينشغلوا إلا بإبراز جدارتهم كفكر.. ووجاهة آرائهم التي لم يهتموا بترجمتها إلى فعل أو عمل.. ولم ينتقلوا بها لمرحلة التفعيل.. ولا أرض الميدان!!

كان المتوقَّع أن تتعلم هذه التيارات من الدرس.. كان المفترض أن يستوعب هؤلاء نقطتين مهمتين.. الأولى: أن هناك نقاط اتفاق كثيرة بينهم وبين التيار الذي بدا طوال الوقت مخالفًا لهم.. الدليل على ذلك هو توحد الكل خلف الثورة وضد الظلم ولمصلحة الوطن.. النقطة الثانية هي أن الخلافات بين التيارات وإن كانت حتمية.. تفرضها ظروف الواقع السياسي.. لا يجب التعامل معها على أساس إثبات الوجاهة.. عن طريق إبراز العيوب في التيار الآخر أو المنافس.. فذلك هو عين أزمة الضمير.. وسبب فشل المتلقي في انتقاء الأصلح.. وذلك لدخول عوامل كثيرة في اختياره تعتم على نظرته للأمور.. وتجعل الصورة غير واضحة..

* * *

وجدنا هذه التيارات – للأسف – لم تستوعب هذه الدروس.. أم لعلها استوعبتها ولكنها آثرت التركيز على الاختلاف لدى كل منها.. ذلك الاختلاف الذي دفع كل تيار بجدارته بالاتباع.. عن طريق حشد الحجج المؤيدة له.. والتقليل والتحقير من شأن التيار الآخر في الوقت نفسه.. لعل الجماهير تجد في ذلك الاختلاف سببًا للسير وراء تيار معين حرصًا على قيمة فكرية.. أو حرية عقائدية.. أو تحقيقًا لفكر سياسي بعينه.. اختفت نغمة الاتفاق على مصلحة

الوطن.. والاختلاف على وسيلة خدمته.. وظهرت مكانها نغمة الاختلاف على زعامة هذا الوطن.. والاتفاق على رفض الآخر حتى لو تلاقت الثوابت الفكرية والعقائدية.. نوضح أكثر فيما يلي:

لماذا يصر الإخوان المسلمون على التمادي في إبراز دورهم الثوري في يناير.. على الرغم من أننا لا نستطيع إنكار نبل هذا الدور الذي لعبه شبابهم؟ لماذا يصرون على الإيحاء بأنهم آباء للثورة.. على الرغم من أننا نعلم جميعًا أنها ثورة ليس لها أب واحد؟ لماذا يصرون على إبراز أنهم "جند الله".. يوحون بها في أحاديثهم.. وحتى في أناشيدهم التي تقول إن الله هو غايتهم.. والرسول قدوتهم؟ في مجتمع متدين مثل مصر: من الذي يجرؤ على مخالفة "جند الله".. إلا إذا كان من "جند الشيطان"؟ لماذا يحرص دعاتهم في المساجد على مهاجمة الليبرالية ووصفها بالكفر؟ هذا هو ما يعمق الخلاف بين "غير الإخوانيين" و"الإخوان المسلمين": دفع الشعار الديني إلى صدارة مشهد الحديث الوطني والسياسي واعتماد المرجعية الدينية.. التي تجعل كلام صاحبها مقدسًا.. لا يصح الاعتراض عليه ولا يستقيم الخلاف معه.. وإلا أصبح خلافًا مع الله.. خاصة أن تعاليم الدين في النهاية لا تتعارض ولا تختلف عن المعاني السامية للحرية والحق والعدل.. وعن الدساتير الليبرالية – والإسلام دين ليبرالي بالأساس – التي تنادي بالمساواة بين الناس في الحقوق.. وبالدولة المدنية التي تتفق مع مبادئ الدين والليبرالية معًا.. وليست تلك التي تبيح التصلب

في الرأي باسم الدين.. ولا تلك التي تبيح الفساد والفسق والخروج عن الآداب والشرع باسم الحرية الشخصية.. وكلاهما في الواقع لا يقبله الناس.. ولا يقبله الإخوان ولا يقبله الليبراليون.. ولا أي مصري..

ما يستقر في وجدان معارضيهم هو أن الإخوان بهذا الفكر الذي يحرص على إعلاء نغمة الدين.. على الرغم من أن مرجعية الدين لا تختلف عن المرجعية السليمة للحرية والحق والمساواة.. وباشتراكهم بذلك في الحياة السياسية.. إنما يرسخون لشيء واحد هو: اللعب على وتر العاطفة الدينية.. والتعاطف مع من يتحدث باسم الدين ومن هو من "جند الله".. غير أن من يكون ضدهم ليس بالضرورة أن يكون من "جند الشيطان".. بل إنه يمكن أن يكون لله جنود آخرون.. يعملون بدينه أيضًا.. ويؤمنون بتعاليمه بنفس الحرص.. ويعلون مبادئه "الليبرالية" بنفس القوة والحماس..

غير أن هذا المشهد الذي نشير به إلى أزمة الضمير لدى الإخوان لا يبرئ ساحة الليبراليين من وجود الأزمة نفسها لديهم..

* * *

لماذا يصر الليبراليون على وصف الإسلاميين بالرجعية ورفض مبادئهم؟ لماذا يصرون على رفض المرجعية الدينية.. على الرغم من أنهم يعلمون أن مرجعية الإسلام في أحكامه ومبادئه لا تختلف في جوهرها عن مبادئهم الليبرالية؟ لماذا يحرصون على التأكيد أنهم الوحيدون الذين يعتمدون ويؤيدون حقوق المساواة

والمواطنة والعدل.. على الرغم من أنهم يعلمون أنها مبادئ إسلامية بالأساس؟ لماذا يوحون بأن خصمهم لا يؤيد ذلك.. على الرغم من أنه يفعل طالما اتخذ لنفسه الدين منهاجًا ومرجعية؟

أغلب الظن أن الليبراليين ليسوا على قلب رجل واحد.. فمنهم من يفهم الليبرالية بشكل غربي منفلت.. لا يلتحم بعادات ولا تقاليد المجتمع.. يربط هؤلاء في ذهنهم بين التقدم الحضاري الحديث الذي تشهده مجتمعات غربية لا تبالي بالحرية المنفلتة.. وبين اعتماد تلك الحرية كمنهاج مجتمعي.. ويربطون بين التخلف الذي تشهده مجمعاتنا العربية والإسلامية.. ووجود الدين في حياتنا كلاعب أساسي في الحوار المجتمعي.. ويغفلون عن عمد أو جهل أن الدين إنما هو نبراس حياة.. يدعو إلى التمسك بكل العوامل التي تدفع الحضارة إلى الأمام.. وتؤدي إلى تقدم ورفعة الشعوب والمجتمعات.. فالدين سبق التشريعات الحديثة والمجتمعات الغربية في الدعوة إلى العمل والإتقان فيه.. وإلى الإخلاص في التنمية.. وإلى العدل في الحكم والمساواة بين الناس.. والدين لا يدعو إلى التواكل.. ولا إلى الكسل ولا إلى الغش ولا إلى الظلم ولا إلى الكذب.. وإنما إلى نبذ ذلك كله.. حتى صارت تلك المجتمعات الغربية بتطبيقها – في حقيقة الأمر – لتعاليم الدين باسم "حقوق الإنسان" تارة.. وباسم "المواطنة" أو "الليبرالية" أو "التشريعات" تارة.. هي "إسلام بلا مسلمين"..

* * *

نظرة هؤلاء إلى الدين في رأيي تتشابه مع نظرة الغربيين إلى المسلمين..

حينما كنت أقيم في "ألمانيا" للدراسة.. كانت تتوطد علاقاتي بأستاذي وأقراني من الباحثين والأطباء.. تصل العلاقة الاجتماعية بعد فترة من الحذر المتبادل إلى صداقة متينة.. واحترام شخصي وفكري متبادل.. ويأتي اليوم الذي لا مفر فيه من سؤالهم لي عن زملاء سبقوني إلى المكان نفسه للدراسة ورحلوا عائدين لمصر منذ سنوات.. أو أشخاص من بلادي أو بلاد مسلمة شقيقة.. فيسردون قصصًا مروِّعة عن المسلم الذي يكذب.. والعربي الذي يتخذ لنفسه "صديقة".. أو الذي لا يفقه في تخصصه شيئًا فيصير أضحوكة المكان.. أو الذي يطلب من رئيسه الألماني تحرير شهادة مزورة ليقدمها إلى بلاده ليتفادى مخالفة قوانين البعثة.. أو الذي يصلي في المسجد وقت ذروة العمل فقط.. وإذا كانت هناك راحة ما فإنه لا يصلي..

يسردون هذه القصص في دهشة.. لأن بعضهم يعلم من قراءاته واطلاعه أن الإسلام لا يدعو إلا لعكس ذلك على طول الخط.. يسردونها وهم يقارنونها مع سلوكي الشخصي الذي لم يرصدوا فيه هذه المظاهر.. وفي ذهنهم أن سلوك هؤلاء لا بد أنه يعكس جوهر الإسلام بشكل ما.. وأنه دين لا بد أنه يدعو إلى سلوكيات متخلفة.. ويدعم نفاق السلوك واعوجاج الفكر.. فيكون ردي عليهم دائمًا من جملة واحدة.. أحسب أنها تلخص الرد على هذه الفئة الليبرالية فيما سبق: "نحن واجهة سيئة للإسلام"!!

هذه هي أزمة الضمير لدى هذه الفئة من الليبراليين الذين إما أنهم – كما أشرنا سابقًا – لا يعلمون جوهر الدين الذي سبق شرائعهم المتحررة بقرون طويلة.. وإما أنهم يعلمون ذلك ويخرجون بنظرية من صنع خيالهم: "لنتمسك بالفريق الناجح – هيًا بنا نتبع خطى المجتمعات التي حررت نفسها من قيود الدين فنجحت".. وينسى أو يتناسى هؤلاء المنادون بتلك النظرية أن هذا "الفريق الناجح".. إنما نجح بفضل تمسكه بهذه "القيود".. واعتماده للمبادئ السماوية من إخلاص وعمل وعدل وحق.. مع فارق واضح واحد هو أنهم لا يعلنونها باسم "الدين" بل باسم "الإنسانية" و"الليبرالية" و"الحضارة"..

* * *

غير أن هناك فئة أسوأ من الليبراليين..

انظر من فضلك إلى المثال التالي لتفهم ما أوحي إليه..

هب أنك تعيش في مجتمعنا.. وتحيط نفسك بأصدقاء شديدي الالتزام الديني والخلقي.. غير أن ما يميزك عنهم هو شيء واحد.. هم جميعًا ملتحون.. وأنت غير ملتحٍ! ! يأتي إليك أصدقاؤك ويجلسون إليك ويسألونك في تحفز: "لماذا تزيل لحيتك ولا تطلقها؟"..

إما أن تعتذر وتقر بأنه مظهر مهم فعلاً.. وأنك أهملته لخطأ منك.. ثم تطلق لحيتك فورًا.. وإما أن ترفض سؤالهم هذا بحجة حريتك.. أو عدم أحقيتهم في

هذا التدخل أو أن اللحية غير واجبة أصلاً..

لسنا هنا في مجال الدفاع أو التحيز لأمر إطلاق اللحية من عدمه.. فهذا واجب الفقهاء والدعاة.. وهو ليس موضوعنا.. وإنما نحن في مجال مناقشة الفعل ورد الفعل.. فربما كان السؤال يحمل لهجة عدائية أثارتك فرفضت فحواه.. وربما – وهذا هو الأخطر – أشعرك السؤال بنقص عقائدي فيك.. فجاء رد فعلك عنيفًا برفض الأمر كله.. ترفضه بعدوانية لا يبررها إلا شعورك الحاد بالنقص.. الذي تحاول إخفاءه بنفي هذا النقص.. ونفي وجود مشكلة أصلاً.. وربما إنكار الأمر كله..

من أجل هذا الأمر.. وهو رد الفعل الإنساني الذي يميل إلى العند والعزة بالإثم – ولا نقصد أن نتطرق إلى حكم إعفاء اللحية هنا باعتباره إثمًا حتى لا تختلط الأمور – من أجل ذلك أظن أن الله أمرنا بأن ندعو برفق إلى أمور ديننا كما في قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ).. حتى لا تكتسب عداء من تحدثه رغبة منه في التغطية على نواقصه.. وإظهار عيوبه بمظهر الحرية الفكرية والشخصية.. والدخول – دون أن تدري – بغلظتك وقلة حلمك في دائرة العند الشخصي لمن أمامك.. فلا تستطيع إقناعه.. ضرب الله لنا النموذج الأمثل للنقاش بأن نطرح أطروحاتنا "بالحكمة".. وأن نستعين في ذلك "بالموعظة الحسنة".. وليس الاستعلاء بحجة أنني أفضل أو أتحدث عن الصواب مع من جانَبَه الصواب..

ويستحق لذلك أن يستمع وهو صاغر.. مطيع متحمل لنبرة من يصحح الخطأ.. ويقوم الاعوجاج!! ضرب الله لنا المثل في قواعد الحديث عن رأي يهمله وفكرة تود الإقناع بها.. ولعله مثال يصلح في كل الأمور ومناحي الحياة حتى النقاش السياسي والاجتماعي في مصر بعد الثورة التي أجد أنه ينقص منها هذا الجانب بوضوح!! ربما نتناول ذلك بشكل أكثر تفصيلاً تحت بند أزمة السلوك حينما نتطرق إلى "طول اللسان"!!

نعم.. بعض الليبراليين لا يعتمدون الدين كفكرة.. بعضهم لا يلتزمون بتعاليمه أصلاً.. لسنا – لا سمح الله – في مجال تكفير أحد.. نعوذ بالله أن يكون هذا مقصدنا.. إنما نعني بذلك من لا يلتزمون بالعبادات بشكل كاف فيدرءون عن أنفسهم شبهة عدم الالتزام بوصم من يلتزم بالتخلف.. وإرجاع التخلف إلى الالتزام في حد ذاته.. كمبرر لعدم التزامهم هم أنفسهم.. ويعتمدون حجة رفض التيار الديني كستار يحميهم من مواجهة سلوكهم الشخصي البعيد عن الدين.. مما يدعم سلامهم النفسي.. لأنهم بذلك "غير مخطئين".. ولأنهم بذلك لخصوا الدين في "المعاملات" و"الحق" و"الصدق" وارتاحوا لفكرة أن "الليبرالية" و"السياسة" اللتين يعتمدونهما "لا تتسقان مع الدين في شيء".. وأن "الإسلاميين" لا يتبعون تلك التعاليم من "معاملات" صحيحة و"حق" و"صدق".. وأن "الإسلام" لا يصلح لتطبيق تعاليم تلك "السياسة" ودساتير تلك "الليبرالية".. ويتناسون الأمر الذي لا بد أن

يكون واضحًا لديهم كما هو واضح لدينا.. أن أي ممارسة خاطئة من "الإسلاميين" هي واجهة سيئة ومشوهة للإسلام!!

* * *

ما يستقر في أذهان معارضيهم هو أن الليبراليين ضد الدين.. وأنهم دعاة للعلمانية التي ترفض الدين كمنهاج حياة.. وأنهم رافضون للإسلاميين من منطلق "الكفر".. يساعد على ذلك عدم فهم الإسلاميين لتطابق مبادئ الليبرالية مع مبادئ الدين العامة.. والخطاب الليبرالي.. كما يساعد على ذلك غرابة الخطاب الليبرالي الذي يقول دائمًا: "نرفض المرجعية الدينية.. بل ننادي بالليبرالية".. عوضًا عن قولهم: "ننادي بالليبرالية التي تنبع من الدين".. وهو فارق كبير.. يرجع غالبًا لانتمائهم فكريًّا إلى فئة من الفئتين اللتين أتينا على ذكرهما بأعلى: المنبهرون بالغرب (دون فهم).. أو الرافضون للدين فعلاً..

* * *

كانت هذه هي أزمة الضمير لدى التيارين الإسلامي والليبرالي.. قبل وفي أثناء ثورة يناير..

ونفتح الآن ملف هذه الأزمة بعد الثورة..

"إحنا آسفين يا مصر.. اتأخرنا عليكي"
أزمة الضمير بعد ثورة يناير

الشجاعة!! الصدق مع النفس!!

هما الدرسان الخفيان اللذين استفدناهما جميعًا من ثورة يناير.. خرج الثوار إلى الميادين في شجاعة.. قاتلوا ضد الرصاص وهم عزل من السلاح في "شجاعة".. صمدوا ورابطوا.. اعتصموا في الميدان في أسوأ الظروف في شجاعة.. وكانت لديهم شجاعة الاعتراف بخطئهم.. وفضيلة صدقهم مع أنفسهم.. حينما تراوحت تصريحاتهم في الفضائيات ولوكالات الأنباء بين "إحنا آسفين يا مصر" التي عبرت عن كونهم جزءًا من مشكلة فساد النظام بسكوتهم طوال هذا الوقت.. وبين "اتأخرنا عليكي يا مصر".. التي جسدت في عبقرية اعترافهم بهذا الخطأ في براءة فطرية وتعبير عن ضمير وطني مخلص..

* * *

لا نجد تجسيدًا لهذه الشجاعة أو ذلك الصدق مع النفس في التعبير عن

القناعات الشخصية في صورة كيان واقعي على أرض مصر.. لا نجده في سلوك "النخبة" من المثقفين والليبراليين.. ولا في سلوك "الإسلاميين".. وكلاهما لم يفلح في إطلاق شرارة الثورة.. بل اضطروا إلى اللهاث خلفها.. وحاول كثير منهم في جرأة مدهشة أن ينصب نفسه راعيًا لها في حاضرها.. وداعيًا لها منذ زمن طويل.. إلا أن أزمة الضمير هذه استمرت بشكل أكثر شراسة بعد تنحي مبارك وبدء حالة "السيولة السياسية" في البلاد.. فأخذت أشكالاً كثيرة تميزت بنقص الشجاعة في الاعتراف بالخطأ.. والبعد عن الصدق والشفافية اللذين كانا درسًا آخر لا يقل أهمية ووضوحًا عن درس الشجاعة.. واللذين تمثلا أيضًا في الإصرار على الموقف والتفاني من أجله دون سياسة ولا تسييس.. لثوار ظلوا ثمانية عشر يومًا على إصرارهم أن "هو يمشي.. مش هنمشي".. وعلى أنه وببساطة ووضوح "الشعب يريد إسقاط النظام"!!

ما مظاهر هذه الأزمة بعد الثورة؟

كان المفترض أن نستوعب جميعًا الدرس العظيم الذي أهدته لنا الثورة: كن شجاعًا وصادقًا مع نفسك أولاً ومع الآخرين ثانيًا.. كن إنسانًا أفضل وارجع إلى الحق والصدق والإخلاص.. فأنت وأنا كنا جزءًا من المشكلة بسكوتنا عن الحق.. وكان وقوفنا إما مع الظلم وإما على الحياد السلبي.. أخلص في عملك وقولك.. كن صادقًا في نيتك ولا تعتمد مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة".. ارجع إلى الحق فهذه فرصتك التي ربما لن تتكرر.. هذه الأجواء أجواء الحق.. هذه الروح هي روح عودة الأمل في غد كنا قد يئسنا منه فلم نسترد حقنا في الحلم به إلا عندما قلنا قولة الحق وخرجنا من شرانق الخوف وكهوف الرعب وبيوت الأمان الزائف.. قل الحق ولو كان فيه هلاكك.. فهلاكك الحقيقي كان في سكوتك.. وعندما تكلمت نجوت.. عندما صرخت هلك الظالم.. عندما صدقت مع نفسك زلزلت الأرض فلم يبقَ إلا الصادقون.. ولم ينجُ غير الشجعان..

لكن تأمل معي ما حدث:

1- أسماء الأحزاب المصرية الجديدة بعد الثورة:

انطلقت مجموعات الأحزاب المصرية بعد الثورة وبدأت حرب التسابق مع الزمن على إعلان الأحزاب ومبادئها.. غير أنه سادت ظاهرة واضحة في هذا السباق لا يمكن أن نغفل عنها.. فالأحزاب المصرية الحديدة اختارت لنفسها أسماء.. اشتركت أغلبها في تعبير "الحرية" بأشكال مختلفة.. وهو اختيار على الرغم من أنه ينبع من وحي الفترة التاريخية نفسها.. التي ميزها حصول المصريين على حريتهم.. فإن إهمالها جزءًا آخر لا يقل أهمية عن ذلك.. وهو روح الفترة الثورية وهدفها الرئيسي وهو إصلاح البلاد ودفعها إلى التنمية والنهضة.. جاء كمؤشر واضح على اختيار لفظة "الحرية" لضمان دغدغة مشاعر الجماهير واللعب على عاطفتها.. دون النظر إلى "ضمير" الأمة وصالحها الذي كان يقتضي التطلع إلى النهضة والإصلاح كشعار لا يغني عنه تضمين آلياته في برنامج الحزب نفسه.. وجاء قصر أسماء الأحزاب على لفظة الحرية وكأنه لسان حال هذه الأحزاب الذي بدا وكأنه يقول: "لنضمن السلطة أولاً ثم لنرَ ماذا نفعل بها لاحقًا"!! وهي للأسف أزمة ضمير أخرى لا تراعي الهدف من السلطة.. ولا تنظر إليها باعتبارها مسئولية حقيقية.. وتنفصل بذلك التوجه عن روح الثورة التي قامت من أجلها.. من أجل الثورة على ظلم من تعامل مع السلطة على أنها تشريف لا تكليف.. وعلى أنها عبء لا بد أن نحمده من أجله.. وكلمات الرئيس المخلوع الشهيرة مثل "المسئولية تقيلة"

و"هنعملكوا إيه؟" ما زالت ماثلة في الأذهان.. فقامت الثورة ليس فقط من أجل "حرية" التعبير.. بل من أجل تفعيل ذلك للتخطيط لمستقبل أفضل لهذه البلاد و"لنهضة" الأمة و"لتنمية" ثروتها..

انظر للأسماء من فضلك: "الحرية والعدالة" وهو ما يقابله في تركيا "التنمية والعدالة".. و"المصريين الأحرار".. و"الحرية".. و"مصر الحرة".. و"مصر الحرية".. و"العدل".. وغيرها.

لا نغفل هنا أسماء أخرى مثل "المصري الديمقراطي الاجتماعي".. و"الوسط".. لكن خلوها أيضًا من مفهوم التنمية والنهضة جاء – للأسف – تأكيدًا على فقدان معنى الإلمام بأهداف الثورة الحقيقية.. فلم تكن الحرية هي الغاية.. لكنها بالأحرى كانت الوسيلة الوحيدة للوصول لوطن أفضل.. وبلاد أقوى.. وعباد يعيشون حياة يحصلون فيها على الخبز "بكرامة".. سيقول قائل إن برامج الأحزاب هي الفيصل بالحكم على توجه الحزب.. وليس اسمه ولا شعاره.. ونحن بدورنا نسأله: فما فائدة الاسم والشعار إذًا؟ ما فائدتهما إذا لم يكونا عنوانًا للحزب ودليلاً على فحوى فكره؟ بل ونسأل سؤالا آخر: ما ضير أن يتسق الشعار مع المحتوى؟ إلا إذا كان العنوان يتم تصديره للمستمع والمتلقي على أنه رسالة في حد ذاته.. رسالة يراد لها أن تمس وترًا مهمًا في نفوس المتلقين الذين يسعدون بالحرية.. ويعتزون بما اكتسبوه منها ويأملون في آثارها.. ويراد لهم أن يميلوا بمشاعرهم لمن يرفع

شعارها.. ويوحي لهم بأنه متسق في فكره مع مشاعرهم وعواطفهم.. وبالتالي آمالهم في غدهم ومستقبلهم.. حتى لو لم تكن هناك وراء ذلك رغبة حقيقية.. أو قدرة فعلية!

2- الاستفتاء على الدستور:

جاء الاستفتاء على تعديل المواد الدستورية في التاسع عشر من مارس كعيد للحرية والديمقراطية.. مشاركة المصريين السابقة لهذا الاستفتاء في أي انتخابات كانت لا تزيد على 4 - 5٪ من مجموع الناخبين.. كان دائمًا ما يسود شعور عام بعدم جدوى المشاركة؛ لأن الأمور محسومة مسبقًا.. والنتيجة معروفة سلفًا.. عبَّر عن ذلك الموسيقار "عمار الشريعي" في اتصال بمنى الشاذلي في برنامج "العاشرة مساء" حينما قال: "الانتخابات الوحيدة اللي شاركت فيها قبل كده هي انتخابات النادي الأهلي.. كنت بقول لأخويا: هو أنا صوتي هيفرق؟"..

في التاسع عشر من مارس خرج ثمانية عشر مليونًا من المصريين.. يمثلون قرابة 40٪.. ونحو 10 أمثال العدد المتعارف عليه من قبل.. خرجوا إلى صناديق الاقتراع في سعادة حقيقية واحترام كبير لطوابير الاستفتاء التي سدت الشوارع خارج اللجان.. ونظام فطري جاء على النقيض من انطباعنا بأن المصريين يفتقدون النظام في أفعالهم.. رأيت بعيني رأسي في اللجنة التي ذهبت إليها بإحدى المدارس القريبة من منزلي شابًا يبدو من حداثة سنه أنه استخرج بطاقة الرقم القومي

حديثًا.. ورجالاً ونساء من الأطياف كلها.. يلبسون الجلباب والحجاب والنقاب.. الملابس القصيرة وتصفيفات الشعر المنمقة.. البدل الرسمية والملابس الملونة والداكنة.. التي اشتركت مع مظهرهم في إضفاء روح "العيد".. لست أدري إذا كان هذا انطباعي وحدي.. لكني أحسست بأجواء من الاحتفال وكأنهم يلبسون الجديد ويخرجون للاستمتاع والتنزه وليس الاستفتاء.. بل رأيت شيوخًا لا يقدرون على المشي.. يتحركون بصعوبة ويفسح لهم الناس الطريق.. ويخرج قاضي اللجنة ليطلب ممن يسبقون الشيوخ في ترتيب الطابور أن يسمحوا لهم بأن يتخطوهم في "الدور" ويدلوا بأصواتهم قبلهم.. فيرحب الناس في حماس.. وأحدهم يقول: "إذا كنا مش هنعمل كده يبقى إحنا ما نستاهلش الثورة!!".. فيؤمن على كلامه الواقفون.. سمعت بأذني حديث الواقف خلفي وهو يقول في حماس: "أيوه أنا رُحت الاستفتاء.. ما هو مش ممكن ماروحش.. أمال يعني هنسيب البلد كده؟ ما خلاص البلد رجعت بتاعتنا تاني.. ولو مش هنصوت إحنا أمال مين اللي يصوت؟".. التفتُّ وأنا شبه متأكد أنه قد تسلل مراسل إخباري للجنتنا يجري حديثًا مع مواطن.. فإذا بي أفاجأ بالمواطن يدلي بـ"حديثه" إلى سماعة جهازه المحمول يحادث من خلاله صديقًا!!

التفتُّ إلى ما أمامي وقد بدأت غدتي الدمعية في الاستيقاظ.. ليباغتني مشهد للشيخ الذي بجانبي.. والذي كان صوت تنفسه الثقيل يوحي لي بأسئلة ملحة عن

السرعة التي قد نصل بها إلى قسم الاستقبال العام بالمستشفى إذا اضطررنا لذلك فجأة.. وعن مدى وجاهة توافر أسطوانات "أكسجين" في لجان الاستفتاء (!!) وعن أشياء أخرى كثيرة.. إذا بي أفاجأ به يسألني في صوت واهن متقطع عن الساعة.. ليضيف تنبيهًا آخر لغدتي الدمعية قبل أن ينادي عليه القاضي ليدخل في خطوات متثاقلة إلى اللجنة وقد استند على شاب يبدو أنه من أولاده.. ويبدو عليه الاطمئنان لقدرته على الوصول للمستشفى في سرعة مناسبة إذا احتاج الأمر!!

انظر كيف يكون لدينا شعب بهذه العظمة.. وهذا الوعي.. وهذا الانتماء والحب للوطن.. وانظر ماذا فعلت به "النخبة" من التيارات المختلفة..

ففي الكنائس انتشرت مقولة التصويت بـ"لا" حتى يتسنى إلغاء المادة الثانية من الدستور.. وكأن الاضطهاد أو التمييز (اللذين لا ننكرهما مما يتعرض له الأقباط).. كأن ذلك كله هو مشكلة مع "الإسلام كمصدر رئيسي للتشريع".. كأن مبادئ الإسلام تختلف عن مبادئ الحق والعدل والمساواة.. كأن ذلك التمييز هو سلوك وفعل استمد شرعيته من الإسلام.. وكأنه لم يكن آلية اعتمدها المسلمون الذين لم يفهموا الإسلام.. والذين مثلوا واجهة سيئة لدين "ليبرالي" في الأساس.. دين عادل يساوي بين الناس في الحقوق ويحترم الآخر وينكر ظلمه أو تهميشه قرونًا طويلة قبل أي دستور وقبل أي تشريع.

وفي المساجد.. دعا الأئمة والمشايخ بل وحتى الأزهر نفسه إلى التصويت

بـ"نعم" من أجل الحفاظ على المادة الثانية نفسها.. علـى الـرغم مـن أن الاسـتفتاء لم يكن عليها.. وليس له علاقة بها.. وعلى الـرغم مـن أن الانـسياق وراء رد الفعـل لم يكن ليحميها كما رأينا بعد ذلك من إعلان دستوري تم الإعلان عنه قبـل الاسـتفتاء قاطعًا الطريق حول أي اجتهادات غريبة.. وعلى الرغم من أن هـذا التحـزب للمـادة الثانية دون فهم معناها العادل يوحي بمزيد من التمييز ضد الأقباط..

ثم خرج علينا الشيخ "محمد حسين يعقوب" فرحًا بنتيجة الاستفتاء وأنـه جاء بـ"نعم للإسلام".. ودعا مستمعيه إلى التكبير بتكبيرات العيد ابتهاجًا بالنـصر في "غزوة الصناديق".. ثم أسهب سيادته في أن من لا يعجبه "فليرحل ويترك البلاد إلى الغرب".. وأفاض في شرح ذلك استفاضة لم يصلح من شأنها اعتـذاره بعـد ذلـك.. وقوله في بساطة مدهشة إنه "لم يكن يقصد"..

انظر كيف سمح الضمير لنفسه بالتحيز لـرأي علـى أسـاس غـير صـحيح.. يعلم هذا الضمير أنه غير صحيح.. وكيف رد عليه ضمير الآخر بـرد فعـل مـضاد.. لمجرد رد الفعل وهو يعلم أيضًا أن هذا غير صحيح.. فلـم تكـن "لا" تـضمن تغـييرًا للمادة الثانيـة.. بمثل ما كانت "نعم" لا تبقي عليها..

لكنها أزمة الـضمير.. الـتي أدخلتنـا في متاهـات فكريـة لا لـزوم لهـا.. لا وجود لها.. ولا طائل من ورائها..

3- تصريحات التيارات المختلفة ونغمات الاقتصاد الفكري:

حدث ولا حرج عمّا حدث في مصر بعد ثورة يناير من نغمات الإقصاء الفكري التي نبعت من رغبة أصحابها في "تحقير" فكر الآخر.. والوصول بذلك إلى إعلاء شأن فكرهم.. وهي وسيلة غير مباشرة في رأيي.. فالوسيلة المباشرة تقتضي أن تطرح فكرك أنت دون أن تتطرق إلى عيوب أو مساوئ قد تراها في فكر معارضيك أو منافسيك.. إلا أن "غير المباشرة" في الوسيلة هي دائمًا أسهل وأيسر وأبسط.. فما الضامن لو شرحت لك أفكاري أن تقتنع بوجاهتها؟ أليس الأسهل أن أبرز لك أن غيري ومنافسي أفكارهم بها عيوب ونواقص؟ هي أزمة ضمير أيضًا.. ضمير سمح لنفسه أن يهرب من المواجهة وسيطرت عليه قواعد تفكير المقهور.. ولم يستوعب قواعد التفكير الحر.. التفكير الشجاع الذي لا يخشى النقد.. التفكير الشجاع الذي يعلن أفكاره ومبادئه.. ويبرز وجاهتها في إطار النقاش المنضبط الذي لا يعتمد تجريحاً ولا إهانة للآخر.. والذي يريد من خلال النقاش "اكتشاف" نواقصه والتعلم من ذلك لتحسين أدائه.. ثم يعترف بنواقصه ويعمل على إصلاحها.. ويعترف بمحاسن ومميزات الآخر ويدرس أسباب قوته ليضيف منها لنفسه وأفكاره.. التفكير الشجاع والضمير الحي السليم الذي يفعل ذلك كله من أجل المصلحة العامة لأنه يؤمن بأن أفكاره لو لم تكن فعلاً مناسبة وسليمة ومقبولة فلا مكان له.. وإلا أضر بهذه المصلحة العامة.. وليس الضمير الذي يسعى للفوز والنصر على جثة الآخر.. واعتمادًا على "حرقه" و"تحقيره".. فلا يبقى على الساحة إلا رأيه هو وفكره هو.. ووجوده هو..

والأمثلة على ذلك كثيرة..

المهندس نجيب ساويرس أعلن بعد تأسيسه حزب "المصرين الأحرار" أنه لو أن الإخوان وصلوا إلى الحكم فسوف يترك مصر كلها ويرحل!! هو تصريح يتشابه مع قول عمرو أديب قبل الثورة بسنوات.. ومع قول المخرجة "الجريئة" إيناس الدغيدي بعد الثورة.. لكن خطورة تصريح ساويرس أنه أتى من رجل يعتزم العمل بالسياسة.. ويفترض فيه أنه يمثل مبادئ معينة لحزب ليبرالي.. فهل هذه هي مبادئ حزب سياسي: الإقصاء؟ لم نفهم كثيرًا من هذا التصريح ماذا ينوي الحزب فعله للنهوض بمصر.. لم نستوعب خطة الحزب للتنمية.. ولم تصلنا رسالة الحزب في دعم الإنتاج وتحسين الاقتصاد؛ لأن هذا التصريح في رأينا يركز على أن الإخوان أناس "سيئون".. وهي ليست دعاية حزبية.. وليست خطة عمل قومي.. هي ليست سوى وسيلة غير مباشرة للقول "إننا مختلفون.. فإذا كنت تبحث عمن هو ليس (إخوانيا).. فنحن اختيارك الأمثل!!".. وهو قول - ببساطة - غير صحيح..

لم يخبرنا السيد ساويرس ولا عمرو أديب ولا إيناس الدغيدي عمَّا يأخذونه فكريًّا على "الآخر".. لم نفهم مآخذهم على خططهم التنموية.. ولا مشاريعهم الاقتصادية.. لم نعرف ماذا يفعل هؤلاء الذين يرفضون الإخوان أيضًا في حال وصول الإخوان إلى الحكم.. فليسوا كلهم بالطبع ممن يملكون ترف أن "يتركوا

البلد" ويرحلوا.. وليس كلهم بالضرورة يعتمدون هذا الاختيار.. فهل خطة الحزب ومنهج هؤلاء "الليبراليين" هي "إما نحن.. وإما لا"؟!

"رفض المرجعية الدينية" هو قول مستفز آخر رفعته الأحزاب الليبرالية جميعًا.. وهو قول يغفل – كما أوضحنا سابقًا – تطابق مبادئ الدين الأصلية مع الدساتير الليبرالية المنضبطة.. إلا أن "رفض المرجعية الليبرالية" الذي رفعته التيارات الإسلامية كشعار.. كان أيضًا يغفل الشيء نفسه.. إلا أن تصريحات ومواقف أكثر تفصيلاً تواترت في هذه الفترة بعد يناير 2011..

حينما صرح المحامي الإخواني الشهير "صبحي صالح" في مؤتمر الإخوان بالعباسية يوم 30 مايو 2011 بأن "الإسلام لا يعترف بالمسلم اليساري ولا الليبرالي ولا اليميني" وأن زواج الإخوان من غير الإخوان لا يجوز على خلفية الآية الكريمة (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).. كان ذلك تلاعبًا بمفاهيم الدين وإقصاءً فكريًّا غير معقول.. إلا أن الأسوأ جاء عندما سُئل في برنامج فضائي هو "العاشرة مساء" في تفسير ذلك فأجاب: "يعني ما هو مش معقول يروح يتجوز واحدة من الشارع!!"..

والحقيقة أن المرء يقف فاغرًا فاه في دهشة من هذا النمط الفكري.. فلا تدري بماذا تصفه.. تسابق الكثيرون في وصف هذا الموقف بـ"النرجسية".. أو "التزمت والفهم الخاطئ للدين".. لكني أراه أيضًا تجسيدًا لفكر "المقهور" الذي لم

تصل إليه روح الحرية بعدُ: فكر يرى في إقصاء الآخر إبرازًا لوجاهة فكره الشخصي.. ويهرب من الاندماج في المجتمع لأنه سيحرمه ميزة التفرد.. ويتهرب من طرح فكره لتجنب النقد.. ويرى في تسفيه الآخر الوسيلة "غير المباشرة" الناجحة في الوصول إلى تأكيد توضيح جدارته هو بالقيادة والاستماع إليه واتباعه دون غيره من "الذين تم وصمهم بغير الجدارة وتم تسفيه كيانهم وتهميش أهميتهم"..

هل تريد الاستماع إلى الأغرب والأسوأ؟ انظر إلى الدفاع عن تصريحاته على لسان أحد الكتاب المنتمين إلى جماعة الإخوان حين قال في دفاعه عن فكرة زواج الإخوان من الإخوانية إنه "ماذا في ذلك؟ فالأغنياء يتزوجون من بعض.. والليبراليون من بعض!!".

وهي أزمة ضمير واضحة.. فليس ذلك هو صدق ما يحدث.. وليس الدافع لحدوثه – لو كان حقيقة – هو الانحياز لفكر معين وإقصاء غيره.. بل هو تفضيل طبقة اجتماعية لبعضها من حيث التفاهم أو المال أو المصلحة.. وهي أمور لا تصلح لأن نقيس عليها تفضيل فكر سياسي لمن يشبهه وإقصاء الآخر عن طريق تحقيره واعتباره أنه "أدنى".. بل والاستشهاد على صحة ذلك من القرآن الكريم!!

بين يوم وليلة.. طلع علينا الشيخ "سعيد عبد العظيم" في برنامج فضائي بقوله إن الديمقراطية هي اختراع يوناني ليس من الشرع الإسلامي في شيء..

ووصف الديمقراطية بالفكر الظلامي الرجعي المتخلف.. كما أشار – دليلاً على ذلك – إلى أن الحريات في الديمقراطية تقتصر على الربا والشذوذ الجنسي والكفر.. وبناء على ذلك كان من غير المستغرب أن يصف الديمقراطيين بقوم "لوط"!

وبين يوم وليلة أيضًا.. فوجئنا بأن نغمة "الإقصاء" و"حرق" الآخر قد امتدت للحرب المبكرة بين مرشحي الرئاسة.. حتى في الفترة التي سبقت فتح باب الترشح.. التي كان يتم فيها وصف كل منهم بالمرشح "المحتمل".. تزامنت حملات التشهير بكل مرشح دائمًا مع وجود مؤشر على زيادة مؤيديه ولو زيادة طفيفة.. ومع ارتفاع الإعجاب به حتى ولو بين فئة محدودة.. وجاءت هذه الحملات دائمًا من أطراف تحسب نفسها "منافسة" أو "مضادة" لهذا المرشح أو ذاك.. دون أن تنشغل هذه الأطراف المهاجمة – كما كان يجب أن تفعل في رأيي – بإبراز ميزات مرشحها الذي تتحزب معه.. أو إظهار وجاهة برنامجه الانتخابي أو جدارته بالرئاسة من حيث الفائدة المرجوة للبلاد.. في شكل بدا اعتمادًا السياسة "غير المباشرة" في الدعاية التي تعتمد على حرق الآخر.. فلا يبقى سواك كاختيار وحيد!!

رأينا في ذلك اتهام البرادعي بأن ابنته مسيحية.. وأنها تزوجت من مسيحي.. وأنه شاذ جنسيًا.. ثم هدأت فورة الاتهامات ضده زمنًا.. لنفاجأ بعد إعلانه وثيقة حقوق الإنسان "فوق الدستورية" وتقدمه في استطلاع مرشحي الرئاسة

الذي أجراه المجلس العسكري على الـfacebook.. نفاجأ بقضية مرفوعة ضده في القضاء الإداري بعد ذلك الإعلان بأقل من أسبوعين تطالب بإسقاط الجنسية المصرية عنه على اعتبار أنه يحمل معها جنسية أجنبية.. وهو أمر تم حسمه والرد عليه مبكرًا ساعة الإعلان عن الإعلان الدستوري في أبريل 2011.. وتم نفي ذلك الأمر بشكل قاطع وتأكيد حقه في الترشح للرئاسة.. لأنه لا يحمل سوى الجنسية المصرية.. فجاءت القضية التي تم رفعها مجددا بالاتهام نفسه دليلاً آخر على الرغبة في إضفاء نوع من "الضجيج الفكري" الذي يدعم حرق و"تحقير" الآخر مرة أخرى!!

ما حدث مع البرادعي حدث أيضًا مع السيد عمرو موسى الذي ما إن أعلن احتمالية ترشحه للرئاسة حتى ظهرت الكثير من مقاطع الفيديو التي يدعو فيها إلى انتخاب مبارك مرة أخرى وكلها قديمة ومعروفة.. وكأن أصحاب تلك المقاطع لم يجتهدوا للعثور عليها إلا عندما صار "المنافس" جادًّا في خوضه سباق الترشح.. وعندما هدأت ثورة الهجوم عليه.. وأظهر الاستطلاع أيضًا تقدمه في السباق بنسبة كبيرة.. ظهر ادعاء تورطه في عقد الغاز لإسرائيل!! على الرغم من أن هذه القضية تحديدًا كان قد تم فتح ملفاتها بصورة مستمرة منذ يوم تنحي مبارك.. واتُّهمت فيها أطراف كثيرة معروفة من رجال أعمال ووزراء سابقين وغيرهم.. وكان الحديث فيها مسهبًا بشكل أجد معه شخصيًّا أنه من الصعوبة بمكان أن أصدق

"اكتشاف" ضلوع طرف جديد فيها بعد أربعة أشهر من البحث المستفيض.. وأن أصدق أن هذا "الاكتشاف" يأتي عن طريق وثائق سرية واجتهادات ناشطين على الإنترنت.. إلا إذا كان افتعال "الضجيج الفكري" المعتاد مقصودًا.. على الرغم من اعترافنا بأن التحقيق العادل والتيقن المستنير من أي اتهام هو واجب قبل إصدار أيّ حكم.. ولكن منذ متى كان المصريون لا ينشغلون بالانطباع الأول؟ منذ متى لا يؤثر فينا عنوان الخبر فنترك تفاصيله ونغفل عن صدور تكذيب له بل ونشكك في صدق التكذيب ونجنح إلى تفسير "نظرية المؤامرة" الشهير؟!

لم يكن د. محمد سليم العوا أسعد حظًّا من د. البرادعي والسيد عمرو موسى.. فما إن أعلن د. العوا ترشحه للرئاسة في مؤتمره الشعبي.. وقبل مرور 48 ساعة وعلى الرغم من أن الإعلان لم يكن مفاجأة.. والقوة الفكرية المنتظرة للرجل في الشارع كانت معروفة.. خاصة وسط المثقفين المتعقلين.. فإن الهجوم على الرجل لم يبدأ إلا بعدها.. فظهرت كالعادة مقاطع فيديو له يمتدح فيها فكر "الشيعة".. بما يفترض معه أن يصم الرجل بأنه ضد "السنة"!!

الأمر لم يسلم أيضًا من طرافة.. كان باعثها تصريح توفيق عكاشة على قناة "فراعين" الفضائية.. فقد أجرت القناة استفتاء بين مشاهديها على من سينتخبونه لرئاسة الجمهورية.. كان ذلك في شهر يونيو 2011.. اشترك في الاستفتاء قرابة الثلاثمائة مشاهد فقط (!!) وجاء توفيق عكاشة في المركز الأول.. بصرف النظر عن

جدية الاستفتاء واحترامنا للفكرة ولشخصية بعض المرشحين وجدية الإقبال على التصويت.. وعوضًا عن صدور حديث من القناة يوضح نسبة الإقبال الضعيفة على التصويت.. واقتراح حلول لذلك.. منها زيادة الدعاية للاستفتاء أو مد فترته أو ما إلى ذلك.. إذا بتوفيق عكاشة يعلن اعتزازه بالنتيجة.. وفخره بتفوقه على الشيخ محمد حسان واعتزازه بالتقدم على البرادعي.. معربًا عن اعتقاده أن ذلك أمر طبيعي ومفهوم؛ حيث إن "عكاشة أقرب إلى مشاكل الناس اليومية من البرادعي".. مضيفًا أن الأخير "لا يعرف شيئًا عن تزغيط البط ولا تكاليف وقوف (البهايم) في السوق يوم الخميس"!!

ومرة أخرى.. هل هو الضمير السليم الذي يتكلم هنا أم هو ضمير يعاني أزمة الصدق.. فيخترع لنفسه ميزات لا أصل لها.. وينفي عن غيره وجودها.. ويوحي بأهمية هذه الميزات.. وكأنها هي الطريق إلى نهضة الوطن وإعلاء البلاد.. ويخفي هدفه وهو الهجوم غير المباشر كوسيلة بديلة لشرح ميزاته.. التي يفترض فيها أن تكون ذات علاقة بغد الوطن وخيره.. وصالح البلاد والعباد؟

* * *

د. عبد المنعم أبو الفتوح أيضًا لم يسلم من ذلك الهجوم.. فانتشرت على صفحات الإنترنت مقاطع من حديث له مع التليفزيون الإسرائيلي.. وهي تهمة ضمنية بالتعاون مع العدو الصهيوني.. قام د. أبو الفتوح نفسه بالرد عليها.. وأورد ضمن رده خلال مؤتمره الدعائي في القاهرة أنه الوحيد من مرشحي الرئاسة الذي اعتقل ودخل السجون..

قالها بلهجة حماسية تضمنت للأسف إيحاءً لا يمكن إغفاله بأن "غيره لم يدخل السجن".. وهو أيضًا أسلوب "غير مباشر".. يتجنب طرح أفكار صاحبه.. ويسلك الأسلوب "الأسهل".. فإذا كنت أنا الوحيد الذي تم اعتقاله – لشجاعة واستقامة فيه ولا شك – فمن البديهي أن الآخرين لا يمتلكون مثل تلك الشجاعة ولا هذه الاستقامة.. ومن ثم فهم لا يصلحون.. وبالتالي.. فمن يصلح غيري؟!

أصحاب هذا المنهج يؤذون الوطن.. لا شك في قناعتي بذلك..

هم يرسخون دعائم "اللاموضوعية".. ويدعمون أسس "اللامنطق" في النقاش.. يؤدي ذلك كله إلى نتيجة قريبة.. هي: عدم القدرة على التمييز بين الصالح والطالح.. ونتيجة بعيدة.. هي: العودة إلى ما قبل 25 يناير.. وطن تصبح السيطرة على مقدراته وحكمه هي الهدف والغاية.. وليست الوسيلة لرفعته وصالح أبنائه!!

أدعوك معي للعودة للخلف والاتكاء على مسند مقعدك الوثير.. أدعوك إلى تناول حبة من عقار علاج الضغط المرتفع قبل قراءة السطور المقبلة..

فنحن نتناول الآن أزمة الضمير في الإعلام المصري..

مستعد؟

4– أزمة الضمير في الإعلام المصري:

عند تنحي مبارك عن سدة الحكم كان أبرز "تحول" إعلامي سيبقى عالقًا في

أذهان المصريين لفترة طويلة هو عنوان جريدة "الأهرام" العريقة صبيحة 12 فبراير الذي يحمل اللون الأحمر وهو "الشعب أسقط النظام".. جاء هذا العنوان معاكسًا لاتجاه التغطية الصحفية العامة في هذه الجريدة وغيرها من الصحف الحكومية التي تعاملت مع الثورة بصفتها "خروجا على الشرعية" ومظاهرات محدودة تقودها "أصابع خارجية وقلة مندسة" ويحركها الإخوان المسلمون والموساد وأمريكا وإيران وغيرهم من القوى التي لا يمكن تخيل اتحادها سويًّا..

هذا التحول الإعلامي الفج صاحبه تحول مماثل في اتجاهات أقلام كتاب بارزين عارضوا الثورة في عنف.. وطلبوا من الشباب العودة إلى منازلهم.. وساندوا النظام حتى آخر نفس.. كما صاحبه انقلاب إعلامي مماثل في التليفزيون المصري الرسمي الذي اشترك بالتضليل المتعمد في تغطية كاذبة وغير أمينة.. إبان المظاهرات والاعتصامات وتغطية موقعة الجمل المضحك.. والزج باتصالات زائفة من قلب الميدان.. واستغاثات وهمية تنخلع لها القلوب من ربوع مصر لتضخيم ظاهرة البلطجة ونشر الرعب في قلوب الناس حتى يلزموا بيوتهم..

الظاهر لنا أن المشكلة كانت تستمد جذورها من التبعية للنظام والاستماتة في خدمته بالباطل خوفا من يده الباطشة.. فيما اصطلح على تسميته "التوجيهات العليا".. لكن استمرار المشكلة بعد الثورة في شكل تغطية تآمرية للأيام الأولى من ثورة ليبيا.. التي تفرد التليفزيون المصري – كالعادة – في إطلاق وصف "المجرمين" و"العناصر المندسة" على ثوارها.. متفوقًا على "القذافي" وإعلامه.. أضف إلى ذلك

اعتماد التليفزيون الرسمي نغمة التهليل للمجلس العسكري في شكل برامج شبه يومية.. يفرد لهم الساعات للإشادة بدورهم في حماية الثورة.. ذلك كله جاء تلميحًا واضحًا.. لافتقار القائمين على هذا الإعلام للضمير المهني.. وللواقعية في تناول الحدث.. وللرؤية السليمة لمصلحة البلاد..

بمرور الوقت بدأنا نحس أن الإعلام المصري – وعلى قمته التليفزيون – شرع في تناول أخبار ومواضيع الثورة بشكل يحبو تجاه الموضوعية.. غير أن هذا الإحساس على الرغم من أنه كان يوحي بأمل في التغيير المنشود لجهاز إعلامي يرجى منه أن يعود إلى صفوف المصريين عوضًا عن صفوف "الحاكم".. هذا الإحساس تضاءل وتلاشى في كل اختبار حقيقي تعرض له هذا الجهاز.. الذي يصر على تقزيم دوره.. وتهميش واجباته المنوطة به.. ففي مليونية الجمعة 27 مايو.. كانت كاميرات التليفزيون تركز على تجمعات قليلة وأماكن خالية ولم تنقل التزايد التدريجي لأعداد المتظاهرين الذي تم على مدى ساعات طويلة.. وفي جمعة الإصرار يوم 8 يوليو.. وبينما كل الفضائيات تعلق عليها بتصريحات وتعليقات تدور كلها في فلك "المتظاهرون يطالبون بسرعة المحاكمات لرموز الفساد وبالقصاص لدم الشهداء".. وهي مطالب لا خلاف على شرعيتها وثوريتها.. وأيضًا وضوح عدم اكتمال حدوثها.. إذ بالتليفزيون المصري في غرابة تثير الضيق والشك في توجهات القائمين عليه يعلق على ذلك بشريط ثابت في أسفل مشاهد النقل الحي يقول: "المتظاهرون في ميدان التحرير يطالبون بالحفاظ على مكتسبات الثورة"!!.. وهو قول

ينافي الحقيقة ويوحي بالتهدئة على حساب الواقع.. ويشي بعجز القائمين على الإعلام إما عن إدراك الحقيقة والتواصل مع نبض الشارع وروح الثورة.. وإما بقناعتهم بالاكتفاء من الثورة "بالمكتسبات" المزعومة ومعارضتهم الخفية لأي تغيير.. بل واحتمالية معارضتهم لفكرة الثورة نفسها في إطار سياسة "التغييب" التي رأى الكثيرون أنها امتداد واضح لإنكار مظاهرات **25** يناير أصلاً.. والتركيز على لقطة الشارع الهادئ والمتحف المصري.. الأمر الذي دفع بالثوار في جمعة **8** يوليو إلى طرد مراسل التليفزيون المصري من الميدان بتهمة التغطية غير الأمينة للحدث وعلى خلفية تلك الممارسات الفكرية الإعلامية المريبة.. وغير الأمينة!!

وبمرور الوقت أيضًا ظهر أن مرجعية الإعلام المصري القائمة على "التهليل للحاكم" لم تتغير كثيرًا بعد الثورة.. ففي الأسابيع الأولى كان التهليل للشباب ودورهم وفكرهم المستنير نتيجة طبيعية لبروز دورهم ووجودهم في قلب دائرة الضوء.. وعندما بدأ دورهم وصوتهم يخفت تدريجيًّا.. بدأت الإشادة بالمجلس العسكري بصفته السلطة الحاكمة في مصر.. وذلك مع فراغ المحتوى الإعلامي من أي معانٍ أو قيم تدفع البلاد للأمام.. وظهر ذلك في عزوف معظم البرامج عن مناقشة الأهم وهو ماذا نفعل في غدنا.. وماذا نعتمد من خطوات إصلاح الفكر والسلوك.. وأهمها توجيه نظر المواطن إلى الارتقاء بالمعاملات وانعكاس فساد الأخلاق على صالح الوطن.. وإلى تلاشي الحاجز الوهمي بين الوطن والمصلحة الشخصية.. وكلها رسائل سلوكية من صميم عمل الإعلام.. وكيف ننهض بمصر.. وهي مبادئ الثورة

وروحها غير المكتوبة.. لكن الأخطر من ذلك تجلى في أزمة الضمير المهني في التغطية التليفزيونية للأخبار وأشهرها تأليب الشعب على بعضه يوم التاسع من أكتوبر وأحداث ماسبيرو.. والنداء الشهير الذي أطلقته مذيعة التليفزيون المصري تحث فيه الشعب أن يدافع عن الجيش .. كذلك أزمة الضمير المهني الصحفية في نقل ومتابعة وتحليل الأخبار.. كما سنرى فيما يلي..

* * *

جريدة "المصري اليوم" هي مثال على الصحف المحترمة التي أدت الثقة الشعبية في مصداقيتها إلى ارتفاع أعداد ومعدلات توزيعها بشكل لافت في أثناء وبعد الثورة حتى تفوقت على الصحف الرسمية التي انخفضت معدلات توزيعها إثر ضياع مصداقيتها كثيرًا.. مما فتح باب العمل أمام الجميع لاكتساب جماهيرية واستقطاب قراء جدد.. بدا واضحًا أن الناس يتلهفون لقراءة أخبار الثورة ويتابعون أخبار القبض على الوزراء السابقين ورجال الأعمال بشغف.. كما بدا واضحًا اهتمامهم برصد تصريحات المسئولين ومقالات الكتاب.. إلا أن الضمير المهني للصحف كان جديرًا به ألا يستوعب هذا النجاح الجديد على أنه فرصة للمنافسة.. بل كان يقتضي الظرف التاريخي استغلال ذلك فيما يفيد المجتمع ووحدة صفه وسلوكه وتوجهاته.. وليس فيما لا يقدم ولا يؤخر.. كان يجب أن يعلو صوت "الضمير" المهني.. الذي يعلي مصلحة الوطن على مصلحة الصحيفة.. والأخيرة لا جدال على مشروعية العمل من أجلها.. لكن ليس في فترة تاريخية مثل تلك الفترة؛

حيث تتوارى أولويات الفرد أو المؤسسة بجانب مصلحة الكل.. عاش الناس في مصر فترة ذهبية بعد الثورة كانت حواسهم فيها على أهبة الاستعداد لتلقي التوجيه الفكري الصحيح وكان المناخ فيها مهيأً لكل صاحب فكر إصلاحي إلى دفع الناس سلوكيًّا للأمام.. ونشر دعاوى التعاون والعمل والإنتاج.. وبث روح الإخلاص والتفاني في خدمة الوطن والتدبر في صالحه وفيما يعلي من قدره..

لكن تأمل معي ما حدث على أرض الواقع وعلى صفحات الجرائد في مصر..

تبارت الصحف المصرية.. على اعتبار أنه "موسم" للأخبار.. في التنافس بينها على نشر الأخبار الملتهبة والعناوين الجذابة.. اشتركت العناوين وفحوى الأخبار في سمة أساسية هي الكذب.. فالعناوين جاءت في الأغلب الأعم بعيدة عن المحتوى.. مما كان يوحي برغبة ناشرها في الإثارة.. والأخبار صارت موضع شك طوال الوقت.. بل وصار نفي الخبر في اليوم التالي مباشرة حدثًا عاديًّا.. وكأن الهدف من رفع نسبة التوزيع أن يفوق أهمية صدق النقل الصحفي.. وكأن ضمير الصحفي لا يعلم أننا في مصر قد نقرأ العنوان ونترك التفاصيل.. وإذا قرأنا التفاصيل فإننا لا نقرأ التكذيب.. وإذا قرأنا التكذيب فإننا غالبًا ما نشك في كذب الخبر وتميل عقولنا – التي تسيطر عليها فكرة المؤامرة – غالبًا إلى تصديق الخبر الذي قد يكون كاذبًا فعلاً.. فأي ضمير هذا الذي لا يبالي بنشر الكذب.. وإثارة البلبلة؟! وأي ضمير هذا الذي أشاح بوجهه بعيدًا عن روح الثورة وفرصة الوطن في أن ينهمك

أبناؤه كلهم في لحظة ملهمة تاريخية في التنافس على التدبر في صالحه وصالح غدهم ورفعة بلادهم؟! فإذا بذلك الضمير يدفعهم دفعًا إلى الغرق في مناقشات فرعية مثل "ثروة الرئيس".. وتفاصيل جرائم المال العام حتى غير الضرورية أو الجوهرية منها.. ثم الاستغراق في أوهام تعلي من جشع الفرد وتصرف الاهتمام عن الصالح العام وخير الوطن.. إلى الانشغال بنفسه وقوته ومصلحته الشخصية.. مثل فرضية توزيع الأموال المنهوبة على أفراد الشعب.. والقول المثير للسخرية إنها لو وزعت على الشعب لكان نصيب الفرد منها كذا وكذا.. ذلك النقاش الخبيث الذي ساعد على إشاعة شعور كسل لا داعي له.. وصرف الأذهان عن التدبر في إعلاء قيمة البلاد والنقاش حول زيادة الإنتاج وتفعيل المشروعات المعطلة.. خاصة في حوارات ونقاشات الطبقة البسيطة من سواد المصريين..

عندما اندلعت أحداث الفتنة الطائفية في "إمبابة".. جاء عنوان جريدة "الفجر" صادمًا حيث حمل كلمات "سقوط الدولة في مصر".. كما كانت هناك صورة لشخص غاضب ملتحٍ يحمل سيفًا في يده.. وتصفه الصورة بأنه أحد السلفيين الذين هاجموا وأحرقوا الكنيسة.. اتضح فيما بعد أن الصورة لشخص أردني.. ويرجع عمرها لعامين فائتين وأن هذا الشخص ينتمي لجماعة "جيش محمد"!!

وحينما تم القبض على الجاسوس الإسرائيلي "إيلان" في القاهرة.. نشرت جريدة "الأهرام" الخبر بعنوان "الجاسوس حاول الاتصال بالإخوان المسلمين"..

ويتضح في تفاصيل الخبر أنه بحث عن أرقامهم ولم يتصل فعليًّا.. ولكن بعد أن أوحى العنوان للقارئ بأن هناك اتصالات بين الإخوان وجاسوس لإسرائيل!!

المواطن القبطي الذي تم قطع أذنه في مشاجرة مع السلفيين في قنا.. أوحت الأخبار التي نشرتها الصحف بأنه كان اعتداءً سلفيًّا باسم الدين.. غير أن الحقيقة تتلخص في وجود شخص سلفي واحد فقط وسط مجموعة المعتدين.. وأن قطع الأذن لم يكن تنفيذًا لأي حد من الحدود.. بل جاء نتيجة للاشتباك العنيف بأسلحة بيضاء.. هذه الحقيقة لم يذكرها أحد.. وجاء تكذيبها محدودًا بشكل لم يشعر به أحد حتى أشار إليه الكاتب الكبير فهمي هويدي في مقاله بـ"الأهرام"!!

الشيخ محمد حسان لاقى أيضًا نصيبه من الافتراء الإعلامي في الصحف.. ربما لأنه وضع نفسه بتصريحاته المسجلة عن "غزوة الصناديق" في بؤرة الاهتمام الجماهيري والشغف الشعبي بتتبع أخباره وجعل بذلك من نفسه مادة إعلامية خصبة للإثارة من وجهة نظر الصحف..

جريدة "الجمهورية" نشرت عنوانًا خياليًّا على لسان الشيخ قالت فيه إنه يريد في مصر (80 مليون لحية).. كما نشرت جريدة "اليوم السابع" عنوانًا يقول إن الشيخ صرح بأن الذين يهاجمون المجلس العسكري (كالمرتدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم).. وكان الشيخ قد تطرق في خطبة الجمعة في معرض حديثه عن المرتدين إلى النقد.. لمن يعارضون المجلس العسكري دون إبداء أي علاقة أو التلميح

بالتشابه أو الربط بينهما.. أعقب ذلك اعتراف الصحيفة إثر عتاب الشيخ لها بأن "هذا الربط جاء مبالغًا فيه ومتعسفاً من الصحفي المسئول عن تغطية هذه الخطبة!!"..

مجلة "روز اليوسف" نشرت في عددها الصادر يوم 2 مايو 2011 عنوانًا نصه "الإخوان جماعة تضطهد النساء".. وجاء في تفاصيل الخبر – التي بلا شك تفقد الدافع إلى قراءتها بتمعن إذا جاء بعد عنوان بتلك الإثارة – أن المجلة تنتقد عدم وجود قيادات نسائية في حزب الحرية والعدالة.. غافلة أو متغافلة عن إقحام "الإخوان" بدلاً من "الحزب" في العنوان.. وعن شيوع المشكلة نفسها في بقية الأحزاب التي لم ترشح أي قيادة نسائية في تكوينها!!

* * *

ما بين الرغبة في افتعال إثارة صحفية تضع أرقام التوزيع نصب أعينها.. وبين نقص حاد في توخي الدقة والأمانة في نقل الحدث.. لا نستطيع إعفاء الصحافة والإعلام المصريين من سوء النية.. وعدم الصدق ونقص الشفافية.. وهي كلها روافد أو منابع لأزمة الضمير التي ظهرت بوضوح في مصر الثورة.. مصر التي وضعها القدر ودماء الشهداء على أول الطريق إلى النهضة والرفعة.. ويصر البعض على أن الطريق لا يبدأ بإعلاء الضمير وإخلاص الفكر وتقويم السلوك.. وأنه لا طريق سوى ما يسلكون من إغفال لمبادئ الحق والصدق والإخلاص.. وهذه في حد ذاتها أزمة كبرى.. أزمة ضمير أبناء وطن يستحق الأفضل.. وينتظر الأحسن..

أما عن الأخبار التي لا يكاد يتم الإعلان عنها إلا ونفاجأ بتكذيبها.. حتى فقد الكثيرون الثقة في كل ما يحدث حولهم.. مما أضر كثيرًا بالدفع المعنوي للجماهير الذي بدأ هادرًا بعد يوم التنحي.. مما كان يوحي بانطلاقة هائلة للوطن.. ثم خبا هذا الدفع رويدًا رويدًا.. تحت أثر مثبطات الثورة وعوامل "سد نفسها" كما سنأتي على ذكرها لاحقًا.. ومنها الأخبار الكاذبة الكثيرة.. أما عن ذلك فالأمثلة كثيرة وشديدة الإحباط..

عندما تغيرت الحكومة في أعقاب جمعة 8 يوليو 2011.. نشرت جريدة "اليوم السابع" خبرًا عنوانه "قيادي إخواني: شرف عرض علينا 5 حقائب وزارية ورفضنا".. في اليوم التالي كنا على موعد مع جريدة "الأهرام".. وعنوانها "الكتاتني ينفى تلقي (الحرية والعدالة) عرضًا من مجلس الوزراء بحقائب وزارية".. وأتركك عزيزي القارئ مع التوصل للحقيقة.. التي لا تقدم ولا تؤخر كثيرًا من واقع أزمة الضمير التي نحن بصددها.. هل هو ضمير الإثارة الصحفي لدى إحدى الصحيفتين.. أم هو ضمير الإثارة السياسي لدى واحد من أصحاب التصريحين؟

* * *

في مستشفى شرم الشيخ الدولي.. حيث كان يحتجز مبارك تحت العلاج قبل محاكمته.. وفي ظل حراسة مشددة للقوات المسلحة وتحت قواعد صارمة تمنع دخول وخروج أي شخص غير مسموح له بالدخول.. وبالذات الصحفيون.. يثور تساؤل مشروع عن الكيفية التي يمكن لجريدة ما أن تدعي سبقًا صحفيًا لنفسها عن

حياة الرئيس المخلوع وقرينته.. كيف نتصور تسويق خبر مثل ذلك إلا إذا كان اعترافًا ضمنيًّا بتلفيق الخبر وزيف فحواه؟ على الرغم من ذلك وجدت الكثير من الصحف في نفسها الجرأة – أو لنقُل الصفاقة – في أن تنشر أخبارًا عن اكتئاب الرئيس وأنه احتفل بعيد ميلاده وصبغ شعره على يد مصفف شعر تم تحديده بالاسم.. ثم أخبارًا عن منع "سوزان ثابت" لطبيب من الدخول على مبارك لأنه التقط له صورًا بهاتفه المحمول.. وأخبارًا عن تفاصيل للحوار بين مبارك ود. لبيب السباعي كبير الأطباء الشرعيين السابق قبل إقالته وحينما ذهب لتوقيع الكشف الطبي عليه.. وغير ذلك الكثير والكثير..

ثم يتم نفي ذلك كله في الأيام التالية..

تجميد أرصدة فلان.. لا.. لم يتم التجميد بعدُ.. منع فلان من السفر.. لم يتم منعه من السفر.. ثروة مبارك تقدر بكذا.. لا.. تصحيح: كذا.. لا: كذا.. آخر كلام: كذا!!

وما بين هذا وذاك.. وبين كذا وكذا.. ضاع التفكير في الأهم: غد مصر.. مستقبل الوطن.. الذي قامت من أجله الثورة.. واستشهد من أجله الشهداء.. وليس من أجل هذا وذاك.. وبالطبع ليس من أجل كذا.. أو كذا!!

5- أزمة الضمير لدى الشرطة المصرية:

تصاعدت تصريحات أفراد الشرطة المصرية بأنهم يحسون بالانكسار وأن

الجماهير تعاملهم بتبجح وغير احترام بعد الثورة وأن هذا يستتبع بالضرورة غياب الشرطة عن الشوارع والميادين ويبرر شيوع البلطجة والإجرام وانتشار الفوضى الأمنية في كل مكان في مصر.. تزامن ذلك مع حوادث فردية للاعتداء على الشرطة ثم تضخيمها إعلاميًّا في ظل إصرار كل طرف (الشرطة والشعب) على أحقيته ووجاهة رأيه.. تزامن أيضًا مع تصريحات الشرطة ممثلة في الكثير من أفرادها على صفحات التواصل الاجتماعي.. هذه التصريحات التي كانت تفيض بالتشفي في الناس المرعوبين من البلطجة وحوادث السرقة والاعتداء.. التي صارت تتم جهارًا نهارًا.. وتمتلئ بالتوعد بمزيد من الانفلات الأمني.. وتزامن كذلك مع الأنباء المتواترة عن الكشف عن هوية بعض البلطجية ممن أمسك بهم الأهالي واكتشاف وجود بطاقات هوية كمخبرين في الشرطة أو أعضاء الحزب الوطني المخلوع.. مما أضفى إحساسًا بتواطؤ الشرطة في هذه المشكلة..

أزمة الضمير هنا كانت في "استحلال" الانقطاع عن أداء الواجب و"عدم المهنية" في تنفيذ المطلوب.. مما ميز هذه الفترة الصعبة بعد الثورة.. وأرى وسأظل أرى ذلك أن مرجعية "الحق" و"العدل" الغائبة عن نفوس أفراد الشرطة جعلتهم يحجمون عن أداء دورهم في حماية المواطنين وحفظ الأمن.. بل والتشفي في الحوادث لدرجة جعلت أحد الضباط بالإسكندرية إثر تلقيه بلاغ عن اعتداء بلطجي على سيارة بها أربعة أفراد ومقتلهم جميعًا يقول ما معناه إنه ماذا تفعل الشرطة؟

فعندما نهاجم البلطجية تقولون إننا نهاجم الثوار.. وهو قول حق.. في إطار الخلط بين شهداء الميدان وبلطجية الأقسام.. إلا أن الباطل المراد منه يكاد يكون أوضح من الحق الذي يتدثر بغطائه في صفاقة!!

يقودنا هذا أيضًا إلى مقولة "بلطجية الأقسام" التي تغفل الدور الخفي الذي لعبته أطراف لا تزال غير معلومة في فتح الزنازين لهروب المساجين.. كما تغفل "شهداء الميدان" الذين لا يمكن بحال من الأحوال إغفال وجودهم الذي شاهدناه وهم يقتلون على الشاشات.. بالعصي ورصاص القناصة.. وسيارات الشرطة وسيارات مجهولة أخرى.. وقنابل مولوتوف.. تغفل هذه المقولة وجودهم في جرأة مذهلة.. فلم تمر على الثورة شهور بعد.. شهور قليلة لا تسمح بالجرأة في التزييف.. ولا تسمح بإطلاق لقب "بلطجية الأقسام" على كل من هاجم القسم في ضراوة وإجرام ليس لهما ما يبررهما ولا ما يربطهما بالثورة ولا الوطنية – وهؤلاء الانتهازيون يستغلون أي فوضى وأي ثورة في أي مكان وأي زمان – وامتداد هذا المسمى إلى من أطلق عليه الرصاص وهو في الميدان يتظاهر من أجل الوطن.. لدرجة أن بعض الأصوات امتد ليعلن أنه لا يوجد أصلاً "شهداء".. بل إن كلهم "بلطجية".. ومن الخطأ إطلاق لفظة "الشهداء" عليهم.. بل إن اللفظة تصلح فقط لتنسحب على شهداء الشرطة.. الذين على الرغم من عدم إنكار وجودهم من جانب أي مخلوق فإنهم بالتأكيد ليسوا وحدهم!!

التلويح بنزع صفة "الشهيد" عمَّن استُشهد ضحية لنظام وحشي بوليسي.. وحصر الصفة على شهداء الواجب الذين ما زال منهم عدد ربما اشترك في قمع المتظاهرين.. لم يشفع له سوى "التزامه" بأوامر رؤسائه.. هذا "الادعاء" جاء شديد الاستفزاز لكل محلل لضمير الشخصية المصرية بعد الثورة.. ممثلة في الشرطة المصرية وبالتحديد بعض – وليس كل – أفرادها.. إلا أن قمة الاستفزاز جاءت في ضمير سمح لنفسه باستغلال جهل وعوز أهالي الشهداء.. حينما تواترت أنباء عن ضغوط يتعرضون لها من ضباط متهمين بقتل المتظاهرين.. والتلويح بالترهيب تارة والأموال تارة أخرى.. حتى خرج علينا من يقص قصصًا موثقة عن دفع مبلغ من المال كتعويض مقابل التنازل عن البلاغ.. وهو إجراء غير صحيح.. في مقابل المنتظر وهو دفع التعويض مع تسجيل ذلك في بلاغ رسمي.. ليقوم ذلك مقام الاعتراف بالقتل في حالة دفع التعويض دون الحصول على تنازل.. وكان حريًا بمن أوكل إليه العمل على تنفيذ القانون ألا ينزلق إلى ذلك المنعطف "الإجرامي" فيواجه الأمر بشجاعة.. إما بالاعتراف وإما بالمحاكمة والمضي فيها لنهايتها إذا كان مؤمنًا ببراءته! ! لكنه الضمير الذي يكيل بمكيالين.. فلا يعرف الحق إلا إذا كان يطبقه على الآخرين.. ولا يعتمد العدل إلا إذا كانت نتيجته هي البراءة لنفسه.. ولا يرى في نفسه مخطئًا أو مجرمًا مهما فعل.. ومهما اقترفت يداه من آثام أو أزهقت من أرواح! !

لا يقلل من خطورة حديثنا ما قد يتواتر من حديث معاد مكرر بأن الشرطة

ليست كذلك كلها.. وأنه هناك من الشرفاء الذين يحملون أرواحهم وحياتهم على أكفهم.. فهذا أمر لا علاقة له بمحاسبة المخطئ.. ولا صلة بينه وبين محاكمة القتلة والفاسدين.. ولا رابط بينه وبين اعتماد الحق والعدل كمرجعيتين لضمير آثر إهمالهما.. والتعامل بمنطق القوة السلطوية التي لا ترى في نفسها إلا راعيًا لرعية منقوصة الأهلية والحقوق.. وحاكمًا تستوجب مكانته احترامه.. مهما فعل.. ويستلزم الحفاظ على هيبته غض الطرف عن جرائمه.. بدعوى أنها حالات فردية.. نادرة أو قليلة.. أو انتظارًا لحساب كل المخطئين في الكون وصولاً إلى هذه الحالات التي لا بد أن توضع في ذيل قائمة الأولويات بحجة شيوع الفساد في كل الفئات وأصحاب الوظائف.. فلماذا الشرطة بالذات؟! بل إننا نجد أنه من اللازم أن نستكمل ردنا على هذه الأحاديث المعادة والمكررة.. برد معاد ومكرر هو الآخر.. بأنه من الأولى على من يرعى القانون ويدافع عنه ويبطش بالخارجين عليه.. أولى به أن يلحق العقوبة بمن يجترئ على هذا القانون نفسه.. بل ومن الطبيعي أن يحتل حدث مثل هذا بؤرة الاهتمام بأكثر مما يحتله حادث سرقة بالإكراه.. أو طعن بمطواة في خلاف على مال يسير.. أو تعد على أرض مملوكة للغير.. بل إن تساوي الحساب والعقاب في الطرفين إذا تمت إدانتهما لهو في رأيي إجراء منقوص على الرغم من عدالته الواقعية.. فالعدالة "الشعرية" كانت تقتضي أن تغلظ العقوبة للقائمين على ردع الجريمة إذا أخطأوا.. بدلاً من المناداة بالرحمة أو ادعاء براءتهم المزعومة من أفعال تم تسجيلها بالصوت والصورة!!

كانت هذه هي ملامح خاطفة من أزمة الضمير لدى المصريين بعد يناير..

كنت أظنها الأكبر والأصعب.. لكنني عندما تأملت في ملامح أزمة الفكر.. أدركت أنني كنت واهمًا!!

ولكن هذا موضوع آخر.. في فصل آخر!!

حديث مع ليبرالي

حصلت على دعوة لحضور اجتماع دعائي حزبي.. لأحد الأحزاب الليبرالية الجديدة الناشئة على ساحة المشهد السياسي في مصر بعد الثورة.. كان الاجتماع المقرر عبارة عن جلسة تجمعنا مع رئيس الحزب الذي يقوم بجولة لعدة أيام في محافظات الصعيد.. وكان قادمًا إلينا من جولته الانتخابية بالمنيا أمس.. أتبعها بزيارة لأحد مراكز أسيوط في الصباح.. ليجتمع مع من سماهم الداعون للجلسة "المثقفين والنخبة".. في نادي أعضاء هيئة التدريس بالجامعة.. يلي ذلك مؤتمر شعبي في ميدان الأزهر بأسيوط..

جلسنا في القاعة ونحن طوائف مختلفة.. أساتذة للجامعات.. معظمهم من الليبراليين ذوي الصوت العالي.. وأغلبهم متحمس - بغير عقل - ضد التيارات الإسلامية.. ويرفضهم بشدة ودون أسباب منطقية في الغالب.. سوى خلفية الصراع الفكري معهم في الثمانينات الذي تميز بالعنف والصدام والتكفير حتى داخل أسوار الجامعة.. وبعضنا من طلاب الجامعات أو من ذوي المهن الحرة.. وفينا المسلمون

وفينا الأقباط..

حضر رئيس الحزب الشاب.. بدأ في تجاذب أطراف الحديث ثم طلب من كل منا أن يعرف نفسه بالاسم والوظيفة.. لنبدأ الحوار والنقاش..

بعد أن أوشك هذا الجزء الممل من الاجتماع على الانتهاء.. بدا واضحًا أنه لديه حضور قوي.. وذكاء اجتماعي كبير.. فبدأ يدير حديثه بشكل موجّه للجميع.. وبتقدير لاتجاهات الحاضرين.. فكلما تكلم عن أعضاء هيئة التدريس وجه نظره لكل واحد منهم.. وكلما أتى على ذكر تساوي الحقوق والمواطنة المطلوبة للجميع.. أقباطًا ومسلمين.. ورفض التمييز كأساس لسياسة حزبه.. وجه نظره وحديثه إلى من لاحظ في اسمه وهو يقدم نفسه انتماءً للأقباط مثل "مايكل" أو "مينا".. وكلما تصادف أن التقى بصره بمن يهز رأسه مقتنعًا بأفكاره التي يطرحها.. ركّز معه.. ووجه حديثه إليه وحده لمدة نصف الدقيقة أو يزيد.. كنوع من كسب الود والتأييد.. فيما يعرف في فن المحاضرة والحديث بالـ"eye contact" وهي قدرة على جذب المستمع أو المشاهد.. ربما اكتسبها من ظهوره على الشاشات أو من عمله كمحاضر سياسي ناجح..

بدأت أسئلة وتعليقات الحضور تفضح أفكارهم.. فالغالبية العظمى كانت من الليبراليين الذين – كما قلنا – كانت اعتراضاتهم على التيار الإسلامي تنم عن رفض أهوج للحوار معهم.. أو قبول فكرة حصولهم على الأغلبية.. وربما نبع ذلك من انتمائهم لبعض الأماكن التي تسود فيها أغلبية إخوانية معروفة.. حتى إن

أحدهم سأل رئيس الحزب عن السبب في ألا تتحد جميع الأحزاب الليبرالية معًا في تيار واحد وكتلة قوية "يسير وراءها الشعب كله".. فكان السائل بسؤاله الذي يهرب إليه من استبداد الإسلاميين وإلغائهم للتفكير أو الحوار دليلاً على الاستبدال بالديكتاتورية أخرى وبرفض الحوار أحادية التفكير.. سؤال استجاب له رئيس الحزب في سرعة ودقة في الإجابة وتوضيح الفارق بين الائتلاف والاندماج والاتفاق.. و"عن ضرورة تقدير الوزن النسبي لكل حزب أولاً بعد مرحلة الانتخابات".. إجابة منمقة ودقيقة.. جعلتني أشعر أنه "مذاكر كويس" وأن محدثنا بالفعل من "محترفي" السياسة.. استغرق بعدها في شرح برنامج حزبه الذي بدا رائعًا وشاملاً.. وفي توضيح فكرة أنهم – ويقصد بذلك الليبراليين – يطالبون بأن تكون مرجعية الدولة هي المدنية وليست المرجعية الدينية.. وأن تكون الفيصل في أي نزاع.. والحكم في مسألة المساواة ومنع التمييز.. سواء بين الرجل والمرأة أو بين المسلم والمسيحي.. وأن "هذه هي الليبرالية".. ثم ضرب أمثلة في ذلك: فإذا جاء رئيس الجمهورية قبطيًّا لم تكن المرجعية في قبوله أو رفضه هي الدين.. لأنه مسيحي والدولة مرجعيتها إسلامية.. لكن يجب أن تكون المرجعية هي المرجعية المدنية.. فإذا كان كفؤًا.. فليكن هو الرئيس.. أيًّا كان دينه أو جنسه..

استمر الاجتماع على هذا المنوال بين شرح لمعاني الليبرالية والمدنية.. وتوضيح الأهداف وبرنامج الحزب.. وطلبت الكلمة وجاء دوري..

قلت له: أرجوك تحملني وإن بدا أنني سأطيل عليك.. فاطمئن أنني لن أفعل.. عم "إبراهيم" عامل "البوفيه".. لدينا عنده حس عالٍ جدًا.. فيعرف على طول أنا إمتى وصلت مكتبي.. ويحضر لي القهوة.. من غير أنا ما اطلبها منه.. لذلك يسمح لنفسه أن يكلمني في أي شيء.. سألني ذات مرة عن حال البلد فبادرته بسؤال فضولي: وانت يا عم إبراهيم هتنتخب مين؟ قال في ثقة: "لما نشوف الإخوان في البلد هيقولولنا ننتخب مين!".. هذا ما أقصده: معظم الناس برضه مش فاهمين يعني إيه ليبرالية ولا ليبراليين.. وكل اللي عارفينه إنه معناها "ضد الدين".. أنا عارف إن حضرتك أكيد دلوقتي بتقول في سرك: أمال أنا كنت بقول إيه بقالي ساعة ونص؟

لمحت ابتسامة خفيفة من الضيف.. فتابعت في توضيح: "المثقفين ومنهم اللي قاعدين في القاعة هنا.. فاهمين.. ويستمعون باهتمام لكلامك ولبرنامجك.. لكن الشعب المصري وأهم قواه السياسية هي هذه القوة السياسية الصامتة زي عم إبراهيم.. وهم أكتر ناس نزلت الاستفتاء بتاع الدستور وأكتر ناس هتنزل أي انتخابات جاية.. هم ناس ليهم ميزة أساسية مهما كانوا وحشين.. فهم ليهم شرط واحد في الشخص اللي هينتخبوه.. هو يمكن تلخيصه في كلمتين.. إنه يكون (يعرف ربنا).. يعني مثلاً إيه اللي يحسسني إن حضرتك كده؟ فيه مظهر بسيط لكده.. مثلاً إنك بتصلي أو تعرف ربنا"..

بدا الاهتمام على وجهه وهز رأسه موافقًا.. فتابعت: "هو بيقارن بين الموجودين على الساحة.. لو فيهم حد ما حققش الشرط ده.. أساسًا مش هيبص له ولا هيسمع كلامه عن برامج الحزب أو أهدافه.. هو مؤمن – عن حق أو غير حق – إن اللي (يعرف ربنا) هيعمل كل حاجة صح.. لكن ده بيمثل حاجز **(barrier)** بينه وبين الاستماع إليك.. فلا يصل أبدًا لسماع رأيك في الاقتصاد ولا الزراعة ولا الصناعة ولا الصحة ولا التعليم ولا تحسين مرافق بلده نفسها.. وبصراحة حضرتك.. الليبراليين في ده عندهم مشكلة".. سألني في اهتمام مشوب بالتحفز: "ليه؟"..

أجبته في وضوح: لأنكم تعرضون أفكاركم بشكل معكوس: "إحنا بنقول لازم نعمل كذا وكذا وكذا.. لأن دي هي الليبرالية.. وعلى فكرة يا جماعة.. ده لا يتعارض مع الدين".. ما دام الأمر كذلك لماذا لا تقولون بالعكس: "الدين بيقول نعمل كذا وكذا وكذا.. وعلى فكرة هي دي الليبرالية"؟

بدا عليه الحماس والسرور الشديد لجملتي وقال: "رسالة واضحة وذكية جدًا.. فعلاً إحنا المفروض ساعات نتكلم كده"..

تابعت قبل أن يتوه مني أو يعطي الكلمة لغيري ولا أنجح في توصيل باقي الفكرة: "وبذلك.. فلا مكان لكلمة (رفض المرجعية الدينية) التي تنحصر بذلك في أمور محدودة جدًا.. ويتضح التطابق بين المفاهيم المدنية للدين والمدنية نفسها..

وساعتها ممكن أن يقرأ الناس برنامجك.. ويأخذوا فرصتهم في الحكم عليك.. لك أو ضدك"..

وأكملت بابتسامة مقصودة: "إلا إذا كنت فعلاً رافضًا للدين من الأساس.. ودي بقى مشكلة تانية.. ويبقى الناس كده لها حق ما تسمعكش فعلاً"..

سارع بهز يديه نافيًا وقائلاً: "لا طبعًا.. الدين لا خلاف عليه.. ولا على الشريعة الإسلامية"..

قلت في هدوء: "موضوع أخير.. هو موضوع الاحتكام للمرجعية المدنية وليست الدينية عند ترشيح أو انتخاب رئيس جمهورية قبطي.. وهذا مثال مستفز.. بينما الخلاص منه سهل: حضرتك بتقول إن عندك في الحزب أزهريين ورجال دين.. صح؟ يستطيع هؤلاء أن يعطوك سندا صحيحا أن (الإسلام يولي الأصلح).. وأن المرجعية المدنية في الحكم هي وجهة نظر دينية أصلاً.. ولا داعي للتصادم ولا سوء الفهم الذي يؤذي نواياك ما دامت سليمة.. ويشوه أفكارك ما دامت لا تتعارض مع الحق الذي يدعمه الدين"..

* * *

شكرني كثيرًا بعد اللقاء.. وتوجه بحديث مشابه يحمل هذه المعاني في مؤتمره الشعبي الذي أقيم بعدها.. وكتب مقالاً في جريدة يظهر بها أسبوعيًا بهذا المعنى..

ويبقى السؤال: هل الليبراليون مدركون حقًّا لهذا الفارق بين مقصدهم وبين ما يقولون؟ والسؤال الأهم: هل هذا الفارق موجود فعلاً كما افترضت حسن النية.. أم أن المشكلة بالفعل أعمق من ذلك.. والإسلاميين على حق في مزاعمهم ضد نية الليبراليين ومقاصدهم.. التي تقترب من العلمانية الكلية ورفض الدين كعقيدة.. وليس فقط كمرجعية وحيدة؟

لم أرتَح كثيرًا لاعتناق قناعة من الاثنين.. ولا أعرف ما هو رأيك!

أزمة الفكر والمصريين بعد يناير!!

"مصر دولة غنية.. لكنها تدار بعقلية فقيرة".. د. صبري الشبراوي "الجمهورية"..

أزمة الفكر لدى المصريين بعد يناير.. لا بد – منطقيًّا – أن تكون امتدادًا طبيعيًّا لأزمتهم قبلها.. لم يفصل الرحلتين سوى حالة التوحد الفكري والنفسي التي جمعت هذا الشعب على عقل رجل واحد خلال الثورة.. فلما هدأت نيران المظاهرات وبدا وكأن هدفًا مهمًّا للثورة قد تحقق (ونعني به خلع مبارك).. وبدا وكأن الأمور عادت لطبيعتها.. من انتظام للأحوال اليومية.. وهدوء في الميادين.. وتوحد ظاهري في اتجاهات الفكر.. عادت الخلافات بين الفصائل السياسية والمجتمعية المختلفة بشكل غير صحي.. لتبرز معها عورات الفكر وتطل برأسها في وضوح.. وتتعدد وجوهها بشكل صار إما متعمدًا (ويستمد جذوره من أزمة الضمير التي سبق أن ناقشنا مظاهرها).. وإما عفويًّا نابعًا من قلة الثقافة.. واعتياد اللامنطقية أو اللاموضوعية.. أو عدم القدرة على أو الرغبة في إدراك – ومن ثم

مناقشة – الوجاهة الفكرية لأي طرح.. على خلفية الوطن والمصلحة العامة.. وليس الخاصة أو قصيرة المدى!!

نحاول فيما يلي تلمُّس مظاهر أزمة فكر المصريين والبحث عن جذورها..

1- الصراع الفكري بين القديم والجديد:

قامت الثورة.. وبانطلاق شرارتها ووضوح رسالتها الأقوى: نحن لن نخاف أحدًا أو شيئًا بعد اليوم.. أرست بذلك مبدأً مهمًّا.. استقر بقوة في عقول المصريين.. على الرغم من أنه لم يكن هو المبدأ الوحيد: "هذا عهد جديد وسُحقًا للعهد القديم".. انقسم المصريون تلقائيًّا وتبعًا لذلك المبدأ إلى قسمين: المؤيدين للعهد الجديد.. والمؤيدين للعهد القديم.. المؤيدون للعهد الجديد نهجوا في ذلك نهجًا فكريًّا رفض كل شيء يمت للقديم بصلة.. داسوا في سبيل ذلك – للأسف – على الكثير من القيم والمبادئ التي كان لا يمكن في أي فكر متعقل أن تصنف على أنها ذات صلة بالنظام.. لأسباب كثيرة.. منها مبدئيًّا: أن النظام نفسه لم يكن يدعمها ولا ينتجها.. فكرًا ولا سلوكًا.. بل ربما كان يتشدق بها طوال الوقت لأسباب دعائية بحتة.. ومنها أن هذه المبادئ لا غنى عنها في أي مجتمع ولا منبع لها إلا من قيمه الأصلية ودساتير دياناته وأخلاقه.. من تلك المبادئ التي داس عليها المؤيدون للعهد الجديد وهم يعلمون أو لا يعلمون: الاحترام للمناصب الأعلى مقامًا والاحترام للقانون.. رأى كل مرءوس في رئيسه مبارك مصغرًا.. تجب الثورة عليه

فورًا بل ومعاملته بما "يستحق" من قلة الاحترام والتطاول الفظ والسلوكي اللذين وصلا في بعض الأحيان إلى حد التشابك بالأيدي.. فرأينا مديرًا لشركة كبيرة في "المحلة الكبرى" تنشر الصحف خبر وفاته إثر إصابته بأزمة قلبية عندما اقتحم عليه موظفوه المكتب.. ورأينا ثورات طلابية وموظفين وصغار العاملين على مرءوسيهم في الجامعات والمعاهد.. تضمنت هذه المطالب روحًا عدائية لم يكن لها في كثير من الأحيان ما يبررها.. أو يبرر التخلي عن "الانضباط" في أسلوب وسلوك الاعتراض والالتزام بالاحترام.. أو ما يبرر الثورة على الكثيرين ممن تمتعوا "حقيقة" بالنزاهة وحب المرءوسين لنزاهتهم وعدلهم كمسئولين في مواقعهم.. أو ما يبرر الثورة على من يطبق القانون أو لا يملك بيده مفاتيح الإصلاح.. فهو وإن كان "رئيسًا" فليست سلطته كالرئيس المخلوع.. إنما هو في ظل "مؤسسية" الدولة التي لا نثور عليها بكل تأكيد.. إنما هو "مرءوس" أيضًا.. أو ما يبرر الثورة على من لا ذنب له سوى أنه تصدر إليه الأوامر وينفذها.. أو أنه على رأس منظومة تدار بحزمة قوانين عاجزة ولوائح فاشلة.. يخرج عن سلطته تعديلها وفي بعض الأحيان حتى الاعتراض عليها.. وإنما تقتضي "الحرفية" و"العدل" ألا يقضي بغير تلك القوانين أو اللوائح في محيط عمله.. وأن يلزم بها نفسه وغيره.. وبعض الأمثلة من المديرين والرؤساء يشهد لهم مرءوسوهم بتلك "الحرفية" في الأداء من قبل الثورة.. فإذا بحرفية أدائه تصير الآن موضع تقريع وليس مديح..

نسي هؤلاء أو لم يدركوا لماذا كان النظام يختار أناسًا بأعينهم.. ليس لعدم كفاءته.. ولكن لأنهم كانوا يقبلون "التعاون" مع أي جهة أمنية و"التفهم" لكسر القوانين باسم القوانين.. مستغلين في ذلك العباءة الواسعة للوائح المؤسسات المختلفة.. نسي هؤلاء أو لم يدركوا أن التغيير الأوجب كان في المطالبة بتكريس وجود نظام للعمل تحكمه لوائح عادلة تطبق على الجميع دون استثناء.. وقوانين تربط المثالية بالواقع.. وتحفز الأداء وتدعم الاجتهاد.. وتعمل لمصلحة المؤسسة أيًّا ما كانت.. هذه القوانين واللوائح وتفعيل هيبة احترامها كانت الأوجب بالمناقشة والتفعيل.. فهي الحارس على أي ظلم مستقبلي أو فساد في أي موقع عمل في مصر.. وهي التي يمكن معها أن تستأمن أيًّا ممن تتوافر لديه خبرة الإدارة على منصبه.. دون أن نصدع رءوسنا كثيرًا بمشكلة كونه من "الفلول" أو من "الذيول".. فقوة وهيبة احترام القانون تحت ضغط الإرادة الجماهيرية من العاملين بأي مؤسسة لن تسمح له إلا أن يعمل بقواعد اللعبة التي يمليها عليه القانون وليس التي تنبع من أهوائه الشخصية أو رغبته في التقرب لذلك الطرف أو مجاملته لذاك!!

أما المؤيدون للعهد القديم.. ولأسباب لا داعي لشرحها والخوض فيها.. فقد تحزبوا أيضًا للعكس.. فظهرت دعاوى اعتبار الثورة مسئولة عن كل شيء سلبي في البلاد.. وإبراز الضرر الرهيب الذي تلحقه الاعتصامات بسير العمل.. دون التطرق في أي مرة إلى السبب الرئيسي وراء ذلك الاعتصام أو غيره.. فكم مرة سمعنا تحليلاً

واقعيًّا لسبب أي اعتصام ما يخرج عن التحليل القصير الموجز: عمال شركة كذا يطالبون بزيادة أجورهم.. كم مرة سمعنا كم تبلغ هذه الأجور؟ أو كم كانت معرضة للزيادة في آخر عشر سنوات؟ أو ما الأسباب التي تقف وراء هذا أو ذاك؟ إنه التعمد لإظهار الجانب السلبي للاعتصام.. وتعمد الإيحاء لعقولنا بقدر عدم المنطقية في المطالبات.. ومن ثم إلقاء اللوم على الثورة و"انتهازية" البعض في استغلال الحرية لمصلحة شخصية.. دون التعرض للأسباب التي قد تضفي على المطالب شرعية ما.. أو تزيد من التعاطف مع قضية أصحابها..

امتد هذا الفكر إلى ساحة الوطن على نطاق أوسع يفصله خط واضح.. يفرق بين معسكرين: الثورة.. والثورة المضادة.. فالمنادون بالثورة وتفعيل مطالبها ينادون مع ذلك بتحطيم كل ما هو قديم.. والحجة واحدة في الأحوال كلها: "الانتماء للنظام السابق".. والواقفون في معسكر الثورة المضادة ينادون برجال ورموز تنتمي لهذا العصر.. دون الاعتراف بوجاهة الاعتراض على انتمائهم الوطني.. أو التخوف من أدائهم المهني.. وكلا المعسكرين يهمل أن الأداء المهني والانتماء الوطني تحكمهما قواعد صريحة وقيم واضحة هي الحق والعدل والمصلحة العامة وإعلاء قيمة إخضاع الجميع للقانون "العادل".. يفترض كلاهما توافرها فيمن يتحزبون لهما دون الانشغال بما هو أهم: الإصرار على ضمانات تحرس هذا الأداء وتمنع انحرافه.. وإرساء الشفافية في الأداء ومناقشة مسوغات الرجال المنوط بهم الحكم.. قبل

الانجراف أو التحيز لـ"الجديد" أو "القديم" على أسس الثورة و"العهد الجديد" أو "الخبرة والاحترام والانتماء لمنظومة من خبر الحكم وعرف المحكومين"!!

يقودنا هذا إلى أن نضع أيدينا على السبب الذي نحسبه مسئولاً عن هذه الفرقة.. فالعجز عن تصور آليات جديدة توصلك لأسباب النهضة بمعنى التقدم للأمام.. مع اعتماد أصول القيم والمبادئ "القديمة" في الوقت ذاته.. تشبثًا بأسباب النجاح.. هذا العجز هو المسئول عن هذا الصراع الفكري بين دعاة القديم والجديد.. شيء من ذلك لمحناه في بروز الخلاف الحاد بين دعاة السلفية ودعاة التيارات الدينية الأخرى.. وشيء من ذلك لمسناه أيضًا في الخلاف بين دعاة الانتخابات أولا بدعوى سرعة الاستقرار.. ودعاة الدستور أولا بدعوى تطبيق النظم الحديثة.. وشيء من ذلك نحسه أيضًا ونحن نتفكر في المظهر المقبل لأزمة الفكر.. الذي نطرحه في العنوان التالي..

2- التعارض الفكري بين مبدأ المواطنة ومبادئ الدين:

يتم تسويق مبدأ المواطنة في مصر على مذهب من اثنين: إما أنه مضاد للدين.. ويقوم المنادون به بتهميشه واعتبار أنه مبدأ يرسي مبادئ العلمانية.. عذر هذا الفريق الذي يصم "المواطنة" بذلك هو السمعة السيئة التي اكتسبها هذا التعبير من تطبيقه في دول ترفض الدين كمرجعية أو "بارا – أيديولوجية" في الحياة.. ولا تكتفي باعتماد الدولة المدنية (وهي في الحقيقة يؤيدها الإسلام).. لكنها تتعدى ذلك

إلى اعتماد وتطبيق مبادئ العلمانية الكلية.. التي نكاد تحتقر الدين بدعوى عدم مناسبته للحياة والسياسة وانفصاله في جوهره عنهما.. وهو أمر لا يتفق مع طبيعة المصريين وعقيدتهم "المتدينة" على اختلاف انتماءاتهم.. هذه الدول التي يصل بها تهميش الدين – بغرض عدم تداخل الهوية الدينية مع مبدأ المساواة والعدل بين الجميع وبغرض تعميم شعور وقوف الجميع على قدم سواء أمام القانون – إلى إلغاء الهوية الدينية من بطاقات المواطنين وتجريم التمييز على أساس الدين..

الفريق الثاني الذي يقوم بتسويق المواطنة في الصحف والإذاعات هو الفريق الذي يسوقها من خلال تعبير آخر اكتسب سمعة سيئة هو الآخر.. وهو تعبير "الليبرالية".. ورفض الهوية الدينية.. ومن خلاله رفض الدين.. وتبني نماذج الغرب في إلغاء الديانة من بطاقة التعريف الشخصية.. عذر هذا الفريق هو تخوفهم من التمييز على أساس الدين مما لا نقبله أيضًا ولا تقبله – بالمثل – جموع المصريين في قرارة أنفسهم على الرغم من دعاوى "الفتنة الطائفية" و"الاحتقان الطائفي" اللذين وإن كانت صداماتهما على مستوى الجماعات لا يرقى إليها الشك إلا أنها على مستوى الأفراد لم تنجح في زرع القطيعة أو الكراهية بن جار مسلم وجار قبطي في أي مكان من ربوع المحروسة.. وكالعادة فإن أزمة الفكر أصابت الفريقين.. ولنبدأ فنرَ أين يقف الإسلام.. الدين الوسطي.. من مبدأ المواطنة الذي نراه – أساسًا – امتدادًا لمبدأ التسامح الديني.. وإن تطرف في شأنه في الغرب.. وتطرف في التهميش

منه لدينا هنا.. في الشرق!!

بداية.. فإن الإسلام استطاع تحويل مبدأ التحزب في أي دولة يحكمها المسلمون من تحزب بين حزب يضم أصحاب دين الدولة - وهم المسلمون - وبين آخر يضم من لا يدينون بالإسلام إلى مبدأ أكثر اتساعًا وحضارة.. باحتضان للجماعات تحت راية وطنية واحدة.. وهو مبدأ ضم الجميع: من يدينون بالإسلام ومن لا يدينون به.. في جماعة واحدة أو حزب واحد.. الجميع فيه متساوون في الحقوق والواجبات.. بل إن الذين لا يدينون بالإسلام قد استمدوا الكثير من الحقوق الزائدة على التي تكفلها لهم شرائعهم الخاصة ودياناتهم.. فكانوا يستمتعون بها ويتقاضون بينهم بها دون لوم أو تدخل من أحد.. هذه الجماعة الواحدة التي تضم الجميع مسلمين وغير مسلمين يتقاضون.. ضمها الإسلام تحت مظلته لتكون حزبًا ضد من يعادون حضارة الإسلام كثقافة شعب وأمة ودولة.. وليست كفكرة دينية أو أيديولوجية.. دعم الإسلام ذلك بآيات من القرآن الكريم نوهت بحرية الدين بوضوح شديد وبشكل تكرر.. لكن جاءت المشكلة في وقت تطبيق هذه المنظومة سهلة الفهم.. التي اصطدمت مع الفكر الإنساني المستقبل لهذه التعاليم.. خاصة الفكر العربي والمصري.. فظهرت وكأنها صعبة التطبيق على أرض الواقع.. فتداخلت العصبيات مع الانتماءات الدينية.. واختلطت التقاليد بالتعاليم الدينية.. وكان من نتائج ذلك أن استقر في وجدان الكثيرين ممن لا يدينون بالإسلام في بلادنا وعبر التاريخ أنهم لا يتمتعون بالمساواة نفسها أمام القانون.. بدليل حرمانهم من الكثير من حقوقهم

السياسية إما بشكل ممنهج وإما بإقصاء شعبي.. بدا – خلافًا للأصل – وكأنه يستمد جذوره من تعاليم ما.. أو خلفية دينية معينة.. وبدليل حرمانهم من الترقي في سلم الوظائف وتمييزهم سلبًا في المنح والإعطاء في المؤسسات والوظائف..

كان لهذا الاعوجاج الفكري أبلغ الأثر في تنبه مفكرين إسلاميين على مستوى متعمق من الثقل الفكري إليه.. فأصدر الأستاذ فهمي هويدي كتابه القيم "مواطنون لا ذميون".. الذي يحمل معنى المواطنة الإسلامي إلى الأمام في تناسق مع روح العصر الذي يشهد صراعًا للحضارات يتطلب تقوية صفوف "الوطن" من خلال توحيد "حقوق" هذه الصفوف.. هذا التطوير الذي نراه يحمل في جوهره معنى المساواة القانونية والتسامح السياسي كضمانتين لتقدم ورقي المجتمع وتجسيد حقيقي لمعنى المواطنة الذي يجعل صفوف "المواطنين" تجذب إليها – بالتبعية – المبدعين.. كل في مجاله.. من كل الأطياف التي لا بد أنها – حين تستشعر العدل والتسامح في صورة المواطنة – سوف تشعر بالانتماء الطبيعي لهذا "الوطن" الذي يضمن لها حقوقها ويحمي وجودها دون تمييز ودون نغمة "أصحاب البلد" أو "ضيوفها".. فيذوب الفارق بين معنى "البلد" و"الوطن".. ومصر!!

من أنتم؟

حينما قامت الثورة الليبية في السابع عشر من فبراير 2011.. خرج علينا "الأخ" العقيد معمر القذافي بخطاب طويل ينعت فيه الثوار بـ"الجرذان" ثم يسألهم في استنكار: "من أنتم؟"..

كان العقيد غالبًا يقصد أن يقول "من أنتم حتى تثورون عليَّ؟".. وهو سؤال مضحك.. يغفل طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم التي تنظمها فكرة "مسئولية" الأول عن الثاني.. ويتجاهل أسباب الثورة ودوافع الثوار للقيام بها في لا موضوعية وافتقاد تام للمرجعية في النقاش.. يحمل في طياته معنى أكثر جدية: هل لو كان للثوار صفة ما تعجب العقيد ويقبلها فكره.. هل كان لهم الحق في هذه الحالة أن يثوروا عليه؟

سؤال العقيد "من أنتم؟" كان يحمل هذا المعنى في خفاء دون أن يصرح به.. وعلى الرغم من أنه – وبالتأكيد – لا يقصد هذا المعنى.. فإن شيئًا من هذا المعنى نلمحه في مصر بعد يناير: "مناقشة الرجل وراء الفكرة وإهمال الفكرة ذاتها"..

فكما أن "القذافي" لم يناقش بسؤاله أسباب الثورة.. ولم يحاول استطلاع وجاهتها أو تفنيد مزاعم الثوار.. لكنه اختصر الطريق: "أنتم لستم أهلاً لأن تثوروا عليَّ من الأساس.. ما أنتم إلا محكومون وأنا حاكمكم وولي نعمتكم".. الفارق بين سؤال "العقيد" وبين ما يجري في مصر أن المختلفين في الآراء والمتراشقين بوجهات النظر لا يعامل أحدهم الآخر على أنه حاكم أو محكوم.. لكن أن "خصمه" مختلف عنه من حيث خلفيته الفكرية أو العقائدية أو السياسية.. ويستتبع ذلك بالضرورة للأسف – ولا تسألني لماذا "بالضرورة" – رفض أي أطروحة أو فكرة من جانب ذلك "الخصم".. والتشكيك في أفكاره ونواياه.. وإلصاق أي نقاش بهذه الخلفية الفكرية دون تدبر في المعاني.. أو إعطاء فرصة للتوضيح..

تلمح هذا المبدأ حتى في نقاشات المثقفين من جميع التيارات.. وتستطيع أن تجرب بنفسك هذه "اللعبة الفكرية" البسيطة.. إن لم يكن هذا الموقف قد حدث معك بالفعل من قبل: اطرح فكرة عامة على لسان أحد الشخصيات المعروفة بانتمائها لحزب ما.. أو تيار ما.. أو فكر ما.. شريطة أن تكون فكرة عامة ليست لها مآرب خبيثة واضحة لا نختلف عليها: فكرة مثل تطوير المناهج التعليمية.. أو استصلاح المزيد من الأراضي الزراعية أو تحديث المصانع.. هي أفكار عامة لا يمكن ربطها بهدف حزبي خبيث.. أو مأرب تيار معين.. برأيك: كم من الحاضرين سيقول لك ما معناه: "أصل فلان ده معروف.. ده راجل علماني".. أو "ده راجل إخوان مسلمين".. أو "ده راجل تبع كذا".. فيما يدشن به حملة هادئة لرفض الفكرة

برمتها؟

هكذا تاهت أفكار كثيرة في مصر.. هكذا تم حرمان الوطن من توافق سهل أضاع وقتًا طائلاً.. وبدد جهدًا كان أولى به الكثير من العلل.. والمشاكل والنوازل المعروفة..

مثال صارخ على ذلك ما حدث على الهواء مباشرة في قناة "On TV".. برنامج "آخر كلام"..

كان موضوع الفقرة هو التنازلات التي يجبر ضباط الشرطة أهالي الشهداء على توقيعها.. في مقابل الحصول على تعويض مالي ويحرر ذلك كله في محضر رسمي بما يسقط التهم ويبرئ الضباط في الوقت نفسه.. استضاف مقدم البرنامج يسري فودة واحدًا من أهالي الشهداء في البرنامج ليحكي قصته ثم قرر سؤال أحد رموز السلفية في مصر لاستطلاع رأي الدين في ذلك.. بدأ الاتصال وديًّا.. ثم لخص يسري فودة المشكلة.. بعد أن أفتى الشيخ بجواز التعويض في صورة "دية".. قال يسري فودة ما معناه: إنه يتم إجبار أهالي الشهداء على التنازل عن المحضر في مقابل المال.. وعلق على ذلك قائلاً: "دم الشهداء لا يباع".. وسأل الشيخ تحديدًا لا عن شرعية الدية ولكن عن جزئية "الدية مقابل التنازل"..

وكانت هذه هي الطامة الكبرى..

فالشيخ انفجر في غضب عارم: "الدية حلال شرعًا.. والشرع لا يعارض.. أنتم قناة ليبرالية فلتقولوا ما تشاءون.. لكن الشرع لا يمس ولا يعارض".. فوجئ يسري فودة بما حدث.. وحاول بمزيد من الصبر والهدوء مقاطعة الشيخ.. ونجح بعد جهد كبير في توضيح وجهة نظره في نقد ربط الدية بالتنازل.. وحينما استوعب الشيخ ما حدث.. وافق على عدم جواز ذلك الربط.. وقال ضاحكًا في رده على سؤال يسري فودة عما إذا كان الآن قد فهم أن رأيهما بشأن الدية غير متعارض: "أيوه خير إن شاء الله"!!

انظر كيف لا نعطي لأنفسنا فرصة التريث لاستيعاب الفكرة.. كيف أن حساسية "الشخص" وراء الفكرة التي تجعلنا نضع كلامه وفكره كله في "نمط" واحد في عقولنا.. تمنعنا أحيانًا من استيعاب المعنى؟

وانظر كيف أن خلافنا يكون في بعض الأحيان وهميًّا!!

أسلوب "تقطير الفكرة":

الشاعر الفلسطيني مريد البرغوتي.. أستعير منه تعبيرًا جميلاً هو "تقطير الفكرة".. قصد به الأسلوب الذي ينتهجه الإعلام العربي في عرض فكرة ضخمة وشديدة الأهمية.. جديرة بأن يتم نقاشها على مستوى الوطن العربي كله للوصول إلى حل مناسب.. وتصور ملائم لفهم أبعادها بشكل صحيح.. ضرب البرغوتي مثلاً لذلك في قضية "حماس وفتح".. وقال إن الفكرة بدلاً من أن تطرح بشكل واسع وواضح بشرح خلفية كل منهما وفكره.. وأهدافه وتكوينه وعيوبه وميزاته.. وطبيعة الصراع بينهما.. فإن الفكرة يتم "تقطيرها" من خلال "قمع" بحيث تكون مناقشتها "قطرة.. قطرة".. فنناقش مرة شيئًا عن "حماس".. ثم تارة شيئًا عن "فتح".. وفي النهاية تصبح الفكرة الكبرى.. وهي الصراع والخلاف القائم بينهما.. فكرة تافهة مملة.. أقل أهمية وجاذبية من أن تناقش مناقشة واضحة كما يدب الملل منها في نفوس المتسمعين.. وكان البرغوتي يعتمد في ذلك نظرية المؤامرة في تفسير هذا المنهج الإعلامي الغريب..

شيء من هذا نلمحه بوضوح في مصر بعد الثورة.. هي ليست دعوة لانتهاج فكرة "المؤامرة" في الترويج لأسلوب التقطير.. لكن الواقع يسوق لنا أمثلة على ذلك "التقطير" كثيرة.. وغزيرة..

عندما قامت أزمة حرق كنيسة "إمبابـة" المعروفـة.. وجـدنا أن عمـوم النـاس وتقريبًا كل وسائل الإعلام.. بدأت في نقاش الفكرة والحدث بأسلوب تقطـير المواقـف.. فمرة تجد النقاش محتدمًا عن الفاعل الحقيقي وهل هم الـسلفيون أم غيرهـم.. ثـم عـن إطلاق نار من داخل الكنيسة.. وعن وجود أسلحة داخل الكنيسة وعن اشتراك عناصـر مسيحية في إشعال الموقف.. وعن أزمـة الاحتقـان بـين عنـصري الأمـة.. وعـن غرابـة الموقف.. وكيف أن أهـل المنطقـة متحـابون.. ولا يوجـد فـرق بـين مـسلم ومـسيحي.. وبعض الوجوه البلهاء تطلع علينا في الإعلام لتشيد بالمحبة والترابـط اللـذين يربطـان أهل الحي مع بعضهم.. في صور أعادت للأذهان مشاهد الوحـدة الوطنيـة الزائفـة بعـد أحداث الإرهاب وسنوات سابقة.. وكيف يتعانق الشيخ والقس ويسهب كـل منهمـا في احترام الآخـر والإشـارة بالتعـايش الـسلمي معـه.. ثـم الانـشغال بتـأخر الـشرطة في التدخل ومناقشة أسلوب الجيش في فض التجميع وتهدئة الحشود في الحـي..

كانت هذه النقاط تناقَش كل منها على حدة.. ولا تناقش الفكرة كلها أبدًا.. جاء ذلك كالعادة على خلفية إعلام يفتقد النظر الأوسع.. والحكمة الأشمل.. والقدرة على التقاط المشهد عن بعد.. فيما لا بد أنـه ينتمـي بـشكل مـا إلى مـا يـصطلح عليـه بـ"المهنية".. وجاء ذلك كله أيضًا على خلفية جماهير تعودت على النقاش السطحي وألفت التعايش مع التفاهات الإعلاميـة الـتي عودتهـا عليهـا بـرامج "التـوك شـو" التافهـة غالبًا.. باستقبالها بأسلوب "القطعـة" ومنهج "الـتقطير" الـذي ينـاسب جـو

الإثارة.. ولا يبحث بنفس القدر من الحماسة عن الحل أو الفهم لما يجري من أحداث..

ربما وجد الإعلام أن هذا المنهج من "التقطير" في تناول الفكرة يضمن إثارة أكثر وبالتالي إقبالاً أفضل.. ربما وجد الإعلاميون أن الجماهير – وقد تعودت على هذا المنهج من تناول أخبار صراعات الرياضة ومشاحنات مشجعي الأندية وأخبار الراقصات وأشباه النجوم – ترتاح أكثر لهذا الأسلوب من ارتياحها لأسلوب مناقشة الفكرة كاملة.. والبحث عن جذور المشكلة وطرح حلول وتصورات مناسبة لأبعادها.. وربما كان القائمون على الإعلام أنفسهم.. وهم جزء من هذه الجماهير.. قد تعودوا على أن أسلوب التقطير هو أسلوب سليم لطرح الفكرة.. فلا يجدون في ذلك المنهج غضاضة ولا خطأ ما.. بل هم في الأغلب يظنون أنهم يحسنون بذلك صنعًا ويقدمون أداء إعلاميًّا راقيًا يغطي كل جوانب الحديث ويُعنى بكل الآراء المثارة حوله.. وهم في ذلك يتصورون أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان.. ولا يدرون كم هم مقصرون في التغطية.. وكم جانبهم الصواب في الوصول إلى روح التغطية الإعلامية للمصائب والأحداث.. هذه الروح التي تتلخص في عرض الفكرة كاملة.. من دون أجزاء منقوصة.. لتمكن الاستفادة من كل أجزائها في الوصول إلى الفهم الصحيح.. والأهم من هذا كله: منع أو تفادي تكرار المشكلة مستقبلاً..

فماذا كانت الفكرة الكاملة في أحداث إمبابة؟ ماذا كان يبدو عليه المشهد

غير المنقوص وغير المعيب بأثر "التقطير" الغريب؟

هو احتقان موجود في الشارع لأسباب اجتماعية واقتصادية.. هو سلاح انتشر في أيدي المواطنين بشكل زائد على الحد وفي انفلات أمني غير مسبوق.. وبشكل لم تكافحه الشرطة ولم يقف ضده الأمن.. هو موقف زاد من نيرانه وجود تيارات جديدة.. إما أنها تتحلى بأفكار غير منضبطة.. وإما أن آخرين يستغلون وجودهم وانتماءهم في ترويج هذا الانطباع.. وأسهم الغياب الأمني في ذلك أكثر وأكثر.. كلها عوامل ثابتة في الحدث.. وإذا أردنا تكراره كان يجب علينا مناقشتها في وضوح وشفافية.. عوضًا عن تقطيرها كما حدث.. فكم مرة سمعت من يعرض الفكرة كاملة بهذا الشكل للنقاش المفتوح؟ لكن بدلاً من ذلك انتهت المشكلة إلى نتيجتين ومطلبين لا علاقة لأيهما بالأحداث: المسيحيون يطالبون بالتوسع في بناء دور العبادة.. ويبدءون الاعتصامات أمام ماسبيرو للمطالبة بقانون العبادة الموحد.. والمسلمون بدءوا يطالبون بضرورة التفتيش على الكنائس.. وكلا المطلبين لا علاقة له بروح الحدث.. وكلاهما بالتأكيد لا يمنع تكرار الاحتقان أو الانفجار مرة أخرى.. ومرات كثيرة..

مثال آخر أكثر وضوحًا.. تمثل في موقعة "الموتوسيكلات" في الثامن والعشرين من يونيو 2011.. التي بدأت أحداثها بزحف مجموعة من أهالي الشهداء إلى مسرح البالون.. واشتباك أمن المسرح معهم ومع مجموعة من البلطجية قامت بإثارة الموقف.. وتصعيد الأمور إلى تجمهر واعتصام بميدان التحرير.. ثم اصطدام

بالأمن واعتداء متبادل من المتظاهرين والشرطة.. وانفجار الموقف ليتلخص في توافد بلطجيـة وثـوار علـى الميـدان.. وتـزاحم الموتوسـيكلات والأوتوبيـسات المحملـة بالبلطجية.. لينتهي الأمر باعتصام يطالب بحق الـشهداء.. ويندد بموقـف اعتـداء الأمن..

كيف تمت مناقشة الأمر على مستوى الإعلام والجماهير؟

الناشط السياسي الكبير "جورج إسحاق" كان من القلائل الذين لخصوا الموقـف من دون "تقطـير" أجزائـه.. فقـال في بـساطة: إن الاحتقـان المتراكـم في صـدور أهـالي الشهداء من تباطؤ الحكومـة في إجـراءات تعويـضهم.. ومـن بـطء المحاكمـات.. ومـن استفزاز محامي الضباط المتهمين.. ذلك كله أدى إلى سهولة اسـتغلال أطـراف بعينهـا لذلك الاحتقان في إحداث هـذه الفوضـى.. وقـال في اتـصال بالقنـاة الأولى المـصرية إنـه "يجب على الحكومة فورًا أن تخرج على الناس ببيـان وافٍ عـن إقامـة آليـة واضـحة لتعويض الشهداء والتعهد بوضوح بتعويضهم وعدالة المحاكمات".. وهـو الأمـر الـذي انتظرت الحكومة عدة أيام ليقدم رئيس وزرائها على القيام به.. وكان بالفعـل ناجحًـا في تهدئة المعتصمين!!

أما الإعلام والجماهير.. فانحصر دورهم كالعـادة في تقطـير الفكـرة.. فرأينـا تساؤلات محمومة.. وساعات طويلة في برامج حوارية.. تخصَّص للتساؤل عمـن يكـون هؤلاء من راكبي الموتوسيكلات.. ومن هم أهالي الشهداء وهل هؤلاء فعلاً "هم".. ولماذا

يعتصم الشباب الآن.. وكيف يضر ذلك باقتصاد البلاد.. وتعطيل "عجلة الإنتاج" الشهيرة.. بل وعن وجاهة إلغاء "مباراة الأهلي والزمالك" التي أعلن الإعلام أولاً عن قرار الداخلية بإلغائها.. ثم العدول عن قرارها وإقامتها في موعدها.. كل فكرة من هذه الأفكار كانت تناقش وكأنها ليست فقط هي لب المشكلة.. بل وكأنها منفصلة تمامًا عن الأفكار الأخرى.. ثم ينتهي الحوار – وكالعادة – بتراشق مستمر وعنيف للاتهامات من كل الأطراف.. فشباب الثورة يتهمون البلطجية بمسئوليتهم عن الشغب.. والإعلام حائر بين اتهام للشباب بإثارة ضجة يرونها "غير مبررة".. وبين التعاطف الأدبي مع أسر الشهداء.. وفي خلفية التفكير الإعلامي تلمح البحث عن استغلال هذا التساؤل إعلاميا دون النظر لـ"فائدته".. وأسر الشهداء يتهمون الحكومة وفلول النظام بمسئوليتهم عما حدث.. والأغلبية الصامتة تعبر عن سخطها لعودة الاضطرابات والاعتصامات وحالة "وقف الحال" وتلقي بغضبها في المداخلات التليفونية على الثورة ككل.. والشرطة تنسحب من الميدان تفاديًا للاحتكاك مع المتظاهرين.. وكأن هذا هو البديل العلمي السليم للوجود الأمني.. فبالله عليك متى سمعت رأيًا واحدًا خالصًا بعد مناقشة الفكرة كلها؟ ومتى طلع علينا من يعرض الأمر في صورته الكبيرة والحقيقية دون "تقطير"؟ متى خرج في إعلامنا من يقول في هدوء ونظام: "تأخرت الحكومة كثيرًا في حسم قضايا الشهداء.. أسهم محامو المتهمين باستفزازهم لأسر الضحايا في زيادة الاحتقان.. ساعد الانفلات الأمني غير المسبوق.. وغير المبرر والذي لا يبدو له نهاية على المدى القريب.. ساعد في تضخيم المشكلة.. حتى إن أيًّا ممن تسول له نفسه إشعال

الموقف بإرسال مجرمين وبلطجية إلى الميدان يجد بيئة نفسية وميدانية خصبة لذلك.. ولا يجد من "يصده".. فأرجوكم يا شباب الثورة الأعزاء ويا أسر الشهداء المحترمين.. تنبهوا إلى من يحاول استغلالكم.. ولتعلموا أن الشرطة والحكومة لن تعتدي أبدًا على أحدكم.. فلا تنساقوا وراء الشائعات.. ولتعلموا أن الحكومة ستعمل على أن ينال المفسدون والمجرمون جزاءهم بعد محاكمة عادلة.. وستعمل الحكومة على ضبط الانفلات الأمني الحاد وإيقاف ومحاسبة المتسبب فيه مهما كان.. بشكل يستشعره المصريون في غضون أيام قليلة..

لكن سيادة أسلوب "تقطير الفكرة" في الإعلام ليس جديدًا علينا.. فحتى ثورة يناير نفسها.. في بداياتها وفي أوج مظاهراتها التي سبقت التنحي.. تعرضت لمحاولة "تقطير" فكرتها وأحداثها.. فالإلحاح المستمر لفكرة "ماذا يفعلون في الميدان؟ ألا يكفي ذلك؟" على عقول الجماهير.. وألسنة الإعلاميين وأقلام الصحف.. هذا الإلحاح الذي كان ستارًا لقبول "المكاسب" التي وصفها المتحمسون لـ"التقطير" بـ"الكافية".. كان مستمرًّا طوال الوقت بشكل عجيب.. حتى تحطم المنطق الداعي لذلك تمامًا بعد موقعة الجمل.. كان التقطير في أبشع صوره.. يتمثل في تحليل الثورة تاريخيًّا من منظور واحد من اثنين لا ثالث لهما: إما أن ما تحقق يكفي.. وإما أنه لا يكفي.. يضاف دائمًا للمنطق الأول دعامة "الزعيم الأب".. الذي لا تصح "إهانته".. أو دعامة "الوطن الذي يعلو فوق مهمة أي شخص مهما كان.. ومهما علا قدره": حتى لو كان "الزعيم أو الأب".. يصرخ بأحد المنظورين شخص هنا وشخص هناك..

دون أن نناقش الفكرة كلها أبدًا : "وطن تهمنا مصلحته ورأس نظام لا يخدم تلك المصلحة"!!

"تقطير" أي فكرة هو وسيلة ناجحة لمناقشة أجزائها كل على حدة.. وهو يؤدي بالضرورة إلى استنتاجات منقوصة.. وأطروحات غير مكتملة ويفرز صورة غير معبرة عن الحقيقة.. وبذلك لا نصل أبدًا إلى الحل.. فلا نصل في الأمثلة السابقة إلى جوهر مشكلة الاحتقان الطائفي المبنية على عدم العدل وعلى التمييز وعلى الفهم الخاطئ للأديان وإهمال التسامح الديني.. ولا نفهم لغز الانفلات الأمني ولا نسعى لحله في موقعة الموتوسيكلات ولا نلقي بالاً لمشكلة الشهداء.. ولا نستوعب أبدًا أن الثورة قامت على أسس شرعية.. نبيلة.. وطنية ومخلصة.. ربما أكثر من وطنية وإخلاص من قامت ضدهم وضد نظامهم.. حتى لو كانوا "آباء" أو "زعماء"!!

أسلوب اختزال الفكرة

اختزلت فكرة الوطن في صورة "الرئيس".. عشنا ذلك لسنوات طوال.. وليس تعبير "مصر السادات" أو "مصر مبارك" ببعيد عن الأذهان.. لعب الإعلام المصري كالعادة دورًا كبيرًا في ذلك الاختزال.. فصار الرئيس معادلاً للوطن والوطن يعني الرئيس.. وبالتالي ترتب على ذلك مفهوم القائد الزعيم والأب الذي "يتعطف" على شعبه باتخاذ القرارات الحازمة والحاسمة.. في توقيتات يتحمس لها هذا البوق الإعلامي أو ذاك.. ذلك الاختزال الذي أصبح شبيهًا بالرمز المتطابق بحيث يتشابكان ويتطابقان في اللاوعي كتطابق صورة الأم مع الحنان.. وصورة البندقية مع الحرب..

كنا نظن أن هذا الاختزال يلعب على أوتاره الإعلام فقط.. إلا أن الأيام التي تلت الثورة أثبتت عكس ذلك.. وأن الكثيرين تعلموا اللعبة.. ربما بتراكم خبرات "اللاوعي" على مدار السنوات..

فالتيارات السياسية المختلفة التي ظهرت بعد الثورة.. وحصلت على فرصتها

في التعبير بحرية.. ربما لأول مرة.. عن توجهاتها وآرائها.. والإفصاح عن رؤيتها السياسية لمستقبل الوطن.. تورطت أيضًا في نفس أسلوب الاختزال المشار إليه.. فوجدنا الجميع يبحث عن إقناع الناس بأن رؤيته الخاصة لمستقبل البلاد وصالح مصر.. هي أيضًا الرؤية الصحيحة لمصر.. نجد أن أطروحات القوى السياسية تتم بشكل شديد العصبية والتحزب للفكرة.. دون الرغبة الحقيقية في إقامة حوار حقيقي حولها.. بشكل يوحي أيضًا باختزال مصلحة الوطن في الرؤية الخاصة والمصلحة الخاصة لهذا التيار أو ذاك..

ليس أدل على ذلك الاختزال أو التعصب للرؤية الخاصة من الخلاف حول المبادئ فوق الدستورية: فعندما رفض كل من القوى الليبرالية والإخوان المسلمين وثيقة الآخر.. واجتمع ممثلون للتيارين في برنامج "العاشرة مساء" على الهواء.. إذا بالجميع يجمع في ذهول على عدم وجود خلاف "حقيقي" بين الوثيقتين.. وعلى أن الاتفاق أقرب من الخلاف..

هذا "الاكتشاف" الذي حدث على الهواء لماذا لم تتوصل إليه هذه القوى قبلها؟ إن هذا "الاكتشاف" يوحي - بالطبع - بحالة من رفض الحوار.. على أساس الاختزال للرؤية الخاصة في صورة الرؤية العامة.. دون اللجوء إلى استكشاف البدائل.. التي لعلها تتفق مع المصلحة الوطنية أكثر من رؤية خاصة.. قد يضيق أفقها عن الإلمام بمصلحة وطن.. هو أوسع من أي تيار بعينه وأكبر من أي حزب

معين..

نسوق مثالاً للتدليل على موقف سياسي على الرغم من بساطته إلا أنه يدلل على السعي وراء المصلحة العليا للوطن بأكثر مما تفرضه النظرة الضيقة للرؤية الخاصة..

في ألمانيا.. وعقب انتخابات البرلمان عام 2005.. نجح الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان يقوده "شرودر" – مستشار ألمانيا وقتها – في الحصول على نسبة معقولة في مقابل الحزب الديمقراطي المسيحي الذي تقوده "ميركل".. لكن كلا الحزبين كان يحتاج إلى الائتلاف مع حزب ذي نسبة صغيرة من النجاح.. وبينما ائتلف حزب "ميركل" مع حزب الخضر.. بقي على "شرودر" أن يوافق على الائتلاف مع حزب الشيوعيين.. مما كان يضمن له أغلبية مناسبة لتشكيل الحكومة والسيطرة على البرلمان.. وبينما ارتفعت أصوات من داخل حزبه بسرعة إتمام جلسات الاتفاق مع الحزب الشيوعي والاتفاق على تقسيم الحقائب الوزارية.. وبينما بدأت بعض تصريحات الغزل واللقاءات الثنائية بين مسئولين بارزين في كلا الحزبين.. إذا بـ"شرودر" يرفض هذا المبدأ تمامًا.. وكانت حجته في ذلك كما قال: "لن يشهد التاريخ أنني سمحت للحزب بالتخلي عن مبادئه والائتلاف مع الشيوعية.. ذلك لن يحدث في عهدي.. سنواصل العمل من أجل مصلحة ألمانيا حتى من موقع المعارضة.. إن السيطرة على البرلمان وتشكيل الحكومة ليسا الوسيلة الوحيدة لنخدم الأمة الألمانية!!"..

لم يكن غريبًا أن ترتفع بعدها شعبية "شرودر" وحزبه إلى عنان السماء.. لكن الانتخابات كانت قد انتهت.. وسيطر على الحكومة حزب "ميركل" التي صارت مستشارة ألمانيا بعدها.. استقال "شرودر" وفقد حزبه الأغلبية.. لكنه دون شك دخل التاريخ لأنه فضل مصلحة الوطن العليا على رؤيته الخاصة.. ولم يسعَ لتطبيقها بأي وسيلة.. حتى لو كانت ضد مبادئه أو تلتف عليها!!

السؤال الذي يحتاج حقًا إلى الإجابة عنه في مصر.. والذي لا بد أن يطرحه على نفسه كل من يسعى لمنصب.. أو يدعي زعامة.. أو يمثل تيارًا سياسيًا ما: هل أنظر للسلطة والحكم على أنهما مسئولية لخدمة الوطن والاضطلاع بأعباء المواطنين وهمومهم.. أم أنهما "هدف" في حد ذاتهما؟ هل نعتبر مصلحة الوطن هي الهدف.. وتولي المسئولية هو السبيل إلى ذلك؟ هل المسئولية في عيوننا تكليف ثقيل يجب أن نكون أهلاً له؟ رأى "شرودر" علامة هذه الأهلية في اختيار الشعب له.. في إطار الوعي ببرامجه السياسية التي تشرح وسائله في الجدارة بهذه الأهلية.. أما نحن في مصر فما زلنا نرى هذه الأهلية تتحدد باتفاق مصلحة التيار مع مصلحة الوطن.. و"نختزل" المصلحتين في فكرة واحدة.. فلا نرضى إلا بفرض الهيمنة الفكرية.. بادعاء الجدارة من منطلق عدم جدارة الطرف الآخر.. ونعمل في سبيل ذلك على إبراز مساوئ هذا "الآخر" وعيوبه.. والتخويف من وصوله إلى السلطة كما يفعل الإسلاميون والليبراليون مع بعضهم.. دون اهتمام حقيقي لإبراز إجابة السؤال الأهم: "ماذا نحمل في جعبتنا نحن حال وصولنا للحكم؟".. وما برامجنا في مناحي

الحياة المختلفة من اقتصاد وزراعة وصناعة وغد أفضل للمواطن؟ كما لا نهتم بتوجيه ضمائرنا بفكرة أهم: إن تلك الزعامة التي نبحث عنها ونجد في السعي إليها مسئولية تقتضي منا أن نعي ثقلها فنسعى لتفعيل أهدافها وهي خدمة المواطن والوطن..

"شرودر" أدرك ذلك.. وأعلن أنه يستطيع خدمة الأمة حتى من موقع المعارضة.. أما نحن فيبدو أننا لم نفهم ذلك بعدُ.. لذلك نسعى لتحويل كل من عدانا إلى معارضين!!

ولكِ الله يا مصر!!

التفريط والإفراط

تبدو ظاهرتا التفريط والإفراط كأنهما تعبيران غريبان على أسماعنا.. إلا أن شيوع الظاهرتين ووجود أصل لغوي وتفسير مستمد من التفسيرات الفكرية للدين لكليهما ينفيان وجود ذلك.

أولاً: الإفراط هو الغلو في الدين.. والتشدد حتى مجاوزة الحد: قال تعالى (لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ).. أي: لا تبالغوا فيه..

وقال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ).

ثانيًا: وعلى النقيض الآخر.. فالتفريط هو التخلي عن القيم والموازين.. والغفلة عنهما كالتعلق بشخص قد ينسيه المبادئ. يضيف المفسرون لذلك قاعدة تحكم حياتنا بحيث تحمينا من التطرف المتساهل ناحية التفريط.. أو المغالاة في التشدد بالإفراط.. فيقولون: "وجوب معرفة الخلق بالحق.. وليس معرفة الحق بالخلق".. النهي إذًا عن التفريط والإفراط هو دعوة لأنماط فكرية معتدلة.. تقيم

الحق وتزن الأمور بميزان الفضائل والعدل.. وتتحلى بالموضوعية والصدق في عرض وتحليل الحقائق والوقائع.. تبتعد عن التحيز وتنأى بنفسها عن الاستسلام لفكرة معينة تتملكها وتستحوذ على اتجاه اختياراتها وطبيعة النتائج التي تصل إليها ومن ثم ردود فعلها التي تصدر عنها..

فهل نمتلك في مصر مثل هذا النمط الفكري الراقي والمستنير؟ هل نعتمد هذا الأسلوب في تناول الأفكار أو تحليل الحوادث؟ الحقيقة أننا على الرغم من تديننا كشعب تصنفه التقارير الدولية كأكثر شعوب الأرض تدينًا.. فإننا نهمل مثل تلك الأنماط الفكرية التي تلتصق بالأوامر الربانية منذ قديم الأزل.. التي كان لا بد لها أن تستمد قوتها ووجاهتها من عقل من يتخذ عنده الدين مرتبة عالية.. لكننا نجد أننا في مصر لم نستوعب هذه الوسطية التي يأمرنا بها الدين فتراوح تفكير الناس ووسائل الإعلام دائمًا بين الإفراط ممثلاً في المغالاة في شدة التحزب لرأي ما.. ليس بالضرورة أن يكون أطروحة دينية.. وبين التفريط ممثلاً في اللامبالاة والاستخفاف بجسام الحوادث..

عندما قامت الثورة انقسم الناس ووسائل الإعلام قبلهم بين مؤيد للثورة في أشد درجات التأييد.. لدرجة عدم الانزعاج من دعاوى الأصابع الخارجية والعناصر المندسة.. فعلى الرغم من أن أي عاقل كان لا بد أن تزعجه هذه الاحتمالات.. فإن البعض فرط في هذه الثوابت.. الحجج تراوحت بين الرغبة في التغيير بأي ثمن حتى

ولو على حساب الحرية "الحقيقية" للوطن (التي كانت لا بد أن يضمنها حدوث التغيير بيد أبنائه أنفسهم.. وحدهم ودون غيرهم).. وبين إفراط بعض الناس من الجماهير والإعلاميين في التهليل لهذا الأمر فانسحبت تهمة "العمالة" ضمنيًا على كل الموجودين في الميدان.. وانبرت بعض العقول تتطوع بالتحليل والتفسير وتسحب نظرية التآمر الخارجي على التخطيط والعنف اللذين أصبحا في نظر هؤلاء مجرد رد فعل لاستفزاز مقصود من الثوار.. ثم أصبحت المؤامرة أمريكية من صنع شركة للمياه الغازية لمحت بها إمعانًا في استغفالنا في إعلاناتها الموسيقية (كما لمح إلى ذلك ملحن موسيقي شاب شهير).. وهكذا.. بين التفريط والإفراط.. ضاعت الحقيقة البسيطة وهي التحقق أولاً من صحة الخبر.. ثم وضعه في حجمه الحقيقي.. الذي اتضح فيما بعد أنه أقل كثيرًا مما أرادوا لنا أن نظن.. وربما لم يكن لأي من ذلك وجود أصلاً!!

عندما أعلنت الصحف عن القبض على الجاسوس الإسرائيلي "إيلان" في ميدان التحرير وكشفت اعترافاته عن وجوده في الميدان أيام الثورة.. صنفت عقول المصريين – التي يسيطر عليها داء التفريط والإفراط – الحدث حسب نظرية من اثنتين: فالجاسوس إما أنه كان لعبة من الحكومة والمجلس العسكري للإلهاء عن مطالب الثورة.. فتواترت التعليقات التي تسخر من وجوده وصوره المفضوحة.. والأدلة التي تصدرت مشهد الخبر من وجود حافظة للذاكرة معه "فلاش ميموري".. ووجود حساب له على الـ"فيس بوك" يضع عليه صوره بكل اطمئنان.. وإما على النقيض الآخر وجد المتشككون في الثورة والراغبون في إطفاء نيران حماسها

لاستكمال الإصلاح في ذلك دليلاً لا يقبل الشك.. على تدبير الثورة من الخارج وعلى ضرورة وجود جواسيس آخرين.. وعلى أن الثوار (الذين أبلغ بعضهم عن الجاسوس لاشتباههم فيه) هم أيضًا وبالتبعية عملاء لإسرائيل.. وأن المليونيات والاعتصامات تسمح باندساس الجواسيس.. ولذا فهي يجب أن تتوقف.. أما المطالب فلتذهب للجحيم.. فلا صوت يعلو فوق صوت مكافحة التجسس..

بين الرأيين اللذين – لولا تطرفهما كالعادة – يحمل كل منهما جزءًا من الحقيقة.. تاهت تلك الحقيقة التي تقضي بأن أي عدو لا تسول له نفسه استغلال فوضى الجار لدس جواسيسه؟ وأي علاقة بين "مهادنة وتحالف" النظام السابق مع هذا العدو.. وبين رغبة هذا الأخير في الانقلاب على حليفه بالسماح بنجاح ثورة.. ناهيك عن التخطيط لها.. بينما كان أول ما فعلته هذه الثورة أن انقلبت فكريًّا على ذلك العدو – وهي ليست مفاجأة للمتابع لشعارات الميدان في يناير وفبراير – فتظاهر ثوارها أمام سفارته كثير المرات.. وأحرقوا علمه وطالبوا بطرد السفير؟

التفريط والإفراط يتضحان أيضًا في رفض كل ما حمل علاقة بالنظام السابق دون أي إعمال للعقل.. ليس ما يعنينا هنا هو الدفاع عن أي من رموزه.. فلا خلاف على فساد ذلك النظام وعن تدهور أحوال البلاد والعباد في عهده وبسببه.. إلا أن المرء ليعجب من المغالاة في تصدير الكراهية تجاهه بشكل يخرج عن الموضوعية وينزلق إلى المغالاة لدرجة تدفع البعض – في سياق التعريض بحرم الرئيس المخلوع – في إنكار أي فضل لمشروع "القراءة للجميع".. والمشروع غني عن امتداح أثره في نشر

الثقافة في مصر وإتاحة الكثير من كنوز القراءة للعامة بأسعار زهيدة.. والتشكيك فيه لا يقل غرابة عن الادعاء أن صاحبة فكرته "يكفيها شرفًا" هذا المشروع ويجب أن يشفع لها في الاتهامات الموجهة لها.. أو الإنكار لحدوث الضربة الجوية لتصدير فكرة أن مبارك لم يقدم للبلاد أي إنجاز.. ويرد عليه الآخرون بتأكيد أنها تشفع له وحدها.. فنواجه الإفراط والمغالاة في الكراهية والتشويه بالتفريط في الحقوق والتحقيق العادل بحجة التسامح.. ولا عزاء للموضوعية والوسطية والصدق!!

التشكيك في الثوابت:

يبدو أسلوب التشكيك في الثوابت امتدادًا طبيعيًّا لفكرة التفريط في الثوابت.. وهو نمط استشرى في عقول الناس.. ربما كرد فعل للفساد وتلون النفوس سعيًا وراء المنفعة.. فعندما تجد "فتاوى" تصدر لتحليل تقديم الخمر في الفنادق وإرضاع الكبير وفتاوى أخرى تناقض ذلك وضجيجًا حول أرباح البنوك.. فأي ثقة تمنحها لرموز الدين وشيوخه؟ إن ثقتك تتزعزع ولا شك.. يزيد من ذلك انقلاب كثير من الوجوه التي كانت توحي بالاستقامة إلى مجرمين في نظر المجتمع.. وبصرف النظر عن دقة الاتهام أو فساده.. فمن منا ينكر الصدمة التي أصابت المصريين من قضايا النصب التي أدينت فيها شركات توظيف الأموال في التسعينات.. التي كانت توحي بمظهر من التقوى والتدين للقائمين عليها؟ من لا يتذكر "تلميع" الإعلام لبعض الذين يعملون بالفن وبعض اللاتي يقدمن على المشاهد

الساخنة في السينما واستضافتهن في ساعات مطولة تتحدث كل منهن عن "الهدف" من المشهد وكونه "موظفاً" لخدمة العمل.. وكيف أنها لا تخجل من القيام به ولا ارتداء الملابس المثيرة؟ هل ننكر تأثير ذلك على المستمع المصري الذي تتمحور ثوابته أصلاً حول الاعتدال والتدين - دون تطرف.. ولنقُل دون إفراط ولا تفريط - وأبسط ملامح هذا التأثير هو فقدان الثقة في الثوابت.. وبدلاً من معرفة الأشخاص وتقييمهم باتباع الحق والصواب.. صارت الرسالة الإعلامية تركز على العكس وهو معرفة الصواب والحق بنوعية الشخص الذي يتبعها وينادي بها.. فإن كان شخصًا محترمًا ذا شأن ومكانة في المجتمع صار استقبال أقواله وأفعاله يتم بمزيد من الشك والتشكي في صدق نواياه.. والتأكيد أنه إما يفعل ذلك ابتغاء منفعة ما.. وإما سعيًا وراء مكسب معين.. وإما حماية لمصلحة محددة.. ولو كان الشخص ليس محل هذه الثقة فربما وجدت تقبلاً أكثر لأفكاره ونواياه بحجة أنه يبدو عليه الصدق.. أو الطيبة أو غير ذلك..

هذه الأنماط الفكرية المريضة تم زرعها في المصريين من قبل الثورة.. تفاقم الأمر بعدها فتضاربت الآراء حول "وائل غنيم".. ومن دون تحيز معه أو ضده.. ففقدان الثقة في صدق توجُّه أي إنسان في المجتمع دفع الناس إلى عدم "وزن" كلامه بالحق والتأمل في معانيه.. فبينما قال "غنيم" إن مصر كانت تستحق ما هو أفضل منذ زمن طويل.. وقال قولته الشهيرة: "حمدا لله على السلامة يا مصر.. كنا بنقرا عنك في كتب التاريخ بس ما كناش لاقيينك.. وكانوا عايزين يقنعونا إنك كده زي ما

انتي.. لكن إحنا كنا عارفين إنك مش كده".. انشغل الناس بالبحث عن دلائل لخيانته وعلى سيطرة أطراف خارجية عليه.. وأهملوا تمامًا كلامه الذي لم يكن به ما يعيب.. وعرفوا – والسبب مجهول – أنه لا بد أنه خائن تلقى تعليمات فنفذها.. ليس تبرئة لطرف على حساب آخرين.. لكن الحكم بالشك وحده دون أي دليل لا أظن أنه يكفي.. وينذر بتخوين أي طرف آخر في المستقبل دون دليل أيضًا!!

بعد الثورة.. استمر نفور الناس من القوى السياسية.. واستشرى ذلك التشكيك في الكلام والثوابت.. الذي يحرم الجماهير من مناقشة الأفكار وإدراك الصالح والطالح منها.. فإذا قال الإسلاميون إنهم لا ينشدون السلطة كانوا كاذبين و"يلعبونها" بمنتهى الدهاء.. وبذلك لا ينشغل أعضاء المعسكر الآخر بالواقع على الأرض فيعدون العدة لنشر أفكارهم في المجتمع لضمان ازدياد شعبيتهم.. وإذا قال الليبراليون إنهم ينشدون "مدنية" الدولة بشكل لا يتعارض مع الإسلام.. فهم أيضًا كاذبون وأدعياء.. ويعدون العدة في الخفاء لجعل الأمور علمانية وتهميش الدين ونشر الفسوق والكفر.. هكذا دون أن يتناقش معهم الآخرون.. ويحاولون أيضًا أن يركزوا برامجهم على نقاط الاهتمام الحقيقي في المجتمع التي ترفع من شأنه وتضمن للداعي لها نصرًا سياسيًّا..

شاهدت مع زوجتي مشهدًا في مسلسل يحكي قصة عن العرب قبل الجاهلية: كان المشهد يجمع رجالاً يلقون بأكياس من "الحنطة" في قاع بئر.. ليقل المتوافر منها في السوق.. فوجئ هؤلاء بجمع من القبيلة يحاصرهم وكبيرهم يردد في

ذهول واستنكار: "أتلقون بالحنطة في البئر لترفعون ثمنها؟".. أسقط في أيدي الرجال وبدءوا في الاعتذار عن فعلتهم وإبداء الندم عليهم وسط صيحات القوم بالعقاب لهم.. تعجبت زوجتي من سرعة العدالة في تلك الأزمان.. لكنني قلت لها: ماذا تظنين أن يكون عليه المشهد اليوم لو حدث مثله في مصر؟ رجال يلقون بأرغفة الخبز في "كابينة" إحدى عربات النقل الخاصة بأحد تجار الدجاج لاستخدامها كعلف لهم.. ثم يداهمهم القوم "متلبسين" مثلهم كمجرمي الحنطة تمامًا.. وينشأ السؤال الحائر: "أتبيعون خبز الناس إلى تجار الدجاج أملاً في مكسب أكبر.. والأصل هو استخدام مخابزكم في خدمة الناس وتوفير لقمة العيش لهم؟".. مائة رأي أو يزيد سينبري لها المصريون: وما أدراك أنها أكياس من الخبز؟ ما أدراك أنه خبز صالح وغير متعفن؟ ما أدراك بظروفه؟ لا بد من أن المراسل الإعلامي الذي غطى هذا الخبر يحمل خصومة ما ضد صاحب المخبز.. ربما هي الشرطة وقد "لفقت" له هذه التهمة..

بين ادعاء احترام كل وجهات النظر وحرية التعبير.. سمحنا بالتفريط في الثوابت العقائدية والسلوكية والثقافية لمجتمعنا.. وقبلنا بالتشكيك أن يكون هو "الرأي" الوحيد.. وليس رأيًا من ضمن آراء كثيرة.. سمح هذا التشكيك باختلال ميزان الحكم السليم على الأمور.. مما يحرمنا أن نتفق على كلمة سواء في أي شيء.. وهذا أزعم أنه يتهددنا جميعًا.. فهو يفتح لنا بابًا من استمرار الاختلاف.. أو الرضا

بالاستبداد أو الحكم الديكتاتوري مرة أخرى.. كوسيلة للخلاص من الاختلاف..

وهذا لن يكون عيبًا للثورة.. لكنه عيب في سلوك المصريين الذين ظنوا أن إسقاط النظام كان الهدف.. ولم يدركوا أن "سلوك وفكر وضمير" النظام هي الذي ينبغي أن تسقط أيضًا... وأننا جميعًا نحمل هذه الصفات السلبية في داخلنا ونفوسنا.. التي يجب أن نثور عليها أيضًا "لترحل".. يساعدنا في ذلك إدراك توجيه الله لنا باعتماد الحق والعدل والوسطية في الفكر العام.. واتفاق مجتمعي على ثوابت الثقافة السياسية والفكرية التي تحكمنا حسب خلفيتنا الخاصة التي تجمعنا كمصريين وما أوسعها وأكثرها من خلفيات.. ويدعمنا إعلام يقنع بذلك ويغذيه في نفوسنا فلا نحيد عنه..

كيف طور المصريون والعرب نظرية المؤامرة؟

أبدع الفكر المصري - والعربي بوجه عام - في تطوير نظرية المؤامرة.. حتى أصبحت من المسلمات في حد ذاتها.. نحاول معًا البحث عن جذور نظرية المؤامرة في الفكر الإنساني بوجه عام.. ثم نناقش معًا هذا "التطوير" اللافت للنظر ومدى ارتباطه بأزمة الفكر المصرية في تفسير حوادث التآمر على الثورة..

* * *

على الرغم من نفوري الطبيعي من اعتماد نظرية المؤامرة كفكرة مرجعية لتفسير الحوادث.. وعلى الرغم من إيماني المطلق بأن هذا النمط من التفكير يشغل صاحبه دائمًا بإلقاء اللوم على غيره.. دون النظر لأصل المشكلة ومحاولة حلها.. وأن هذا يؤدي في النهاية إلى تفاقم الأزمة موضع التفسير.. وتفرعها إلى غيرها من الأزمات والمشاكل.. التي تتحد في النهاية لتفرض واقعًا يصعب التعامل معه.. فإنني أرى - على الرغم من ذلك - أن لهذه النظرية شروطًا واضحة.. لو توافرت في وقت ما وزمان ما.. أمكن تبرير استخدامها بفائدة كبيرة.. تتمثل في تحجيم المشكلة وتحديد آلياتها.. وتفعيل وسائل علاجها في أسرع وقت.. ربما لمنع تفاقم المشكلة إلى

أزمة كبرى.. وبالأهم والأخص: خلق وعي عام يقف حائلاً واضحًا دون تكرار مثيلاتها من المشكلات.

نظرية المؤامرة لا شك في أنها متغلغلة في العقل الإنساني منذ سنوات طويلة.. حتى إنها في بعض المجتمعات تستخدم بإفراط لا شك فيه.. نبدأ بالأمثلة الشاذة التي يؤمن فيها الإنسان بأن كل ما يحدث من حوله هو في الأغلب ناتج عن مؤامرة مدروسة.. يقف خلفها أشخاص مجهولون واسعو السلطة شديدو التأثير.. يحركون كل الخيوط من وراء الكواليس.. ويتحكمون في مصائر الأمور ومصير البشر.. ويتلاعبون بالعناصر الوسيطة التي تنفذ مؤامرتهم حتى دون أن تدري بدوره الحقيقي في بعض الأحيان..

فحوادث ظهور الأجسام الطائرة وأطباق الفضاء هي حوادث حقيقية يتحفظ على أسرارها رجال المخابرات المركزية الأمريكية والبنتاجون.. ويخفونها عن العامة.. ومصرع الأميرة "ديانا" وراءه مؤامرة مدروسة من المخابرات.. وضرب مركز التجارة العالمي بالطائرات في سبتمبر 2001 وراءه مؤامرة أمريكية تتلاعب بالقاعدة كعنصر وسيط.. وإنفلونزا الطيور وهم كبير.. ومؤامرة من شركات الدواء لترويج الدواء ورفع الاقتصاد الأمريكي.. ووفاة أي نجم سينمائي أو ممثلة جميلة لا يمكن أن يكون قضاء وقدرًا.. بل يجب أن يكون عملاً استخباريًا.. وأي حريق أو حادث مروري أو حادث سرقة هو عمل مدبر ومخطط من جهة رسمية تهدف من

خلفه هدفًا ما..

يرى د. أحمد خالد العمري – وأتفق معه – أن هدف نظرية المؤامرة هو إشعار الناس بالراحة تجاه أزمة ما.. تجعلهم يؤمنون أن ما حدث لم يكن بسبب خلل فيهم وأنهم لم يكونوا مسئولين عنه.. بل إن هناك طرفًا خارجيًّا يتحمله.. مما يؤدي بهم لمزيد من الراحة حينما يطمئنون إلى بيت القصيد من هذا الاعتقاد.. ألا وهو أن ذلك لن يحدث لك أنت.. لأنك شخص عادي ولست مشهورًا أو مستهدفًا مثل هؤلاء.. *(هوامش على دفتر الثورة – د. أحمد خالد العمري)* ..

ينطبق ما سبق من وجهة نظري على الإنسان الغربي أكثر ما ينطبق.. وتقتصر الرسالة التي تصل إليه من خلال اعتماده على نظرية المؤامرة على تلك الرسالة البسيطة: "هذا يحدث للمشهورين فقط والمستهدفين فقط. أما أنا فإني في أمان".. لكن هذه الرسالة اتسعت لتشمل أكثر من معنى في غاية الخبث.. لتستقر في الوجدان وأهمها المعنى التالي: "ما دام كل شيء مؤامرة.. فلا فائدة من العمل.. لا فائدة من أن تبادر بفعل أي شيء لأن كل شيء محتوم.. ومدبر.. وصائر إلى ما هو صائر إليه.. مهما فعلت"..

* * *

نظرية المؤامرة في الفكر العربي تميزت بخمس صفات رئيسية:

أولاً: أنها تجاوزت الشعور الجمعي الموجود عند عوام الناس في الغرب..

لتصبح من بديهيات العقل الجمعي الجاهزة لتفسير أي حادث أو مشكلة.. ربما لإراحة الضمير الجمعي من لوم أي طرف داخلي.. ظهر ذلك جليًّا في فكر التاريخ الإسلامي.. عند إلقاء اللوم كله على اليهودي "عبد الله بن سبأ" كمحرك أساسي وطرف خبيث في إشعال الفتنة الكبرى.. دون النظر للبيئة الصالحة لنشوئها أو اختلاف الأقطاب الفكرية والتيارات داخل المجتمع الإسلامي وقتها.. ودون النظر إلى خطورة ذلك الاستنتاج الأعوج على التأثير السلبي على ثقة الضمير العربي والضمير الإسلامي بنفسه.. من جرَّاء وصمه بالهشاشة والضعف.. حتى إن شخصًا واحدًا استطاع التلاعب بأمة كاملة بهذا الشكل الغريب.. يبدو لنا اليوم أن هذا الاهتزاز في الثقة قد آتى ثماره بالفعل في مظاهر إحساس التبعية وعدم الأخذ بأسباب الاستقلال المعنوي على مستوى السياسات.. فإذا كان كل شيء مؤامرة.. فلِمَ ترهق نفسك بمحاولات جادة للتقدم أو النهضة؟ فـ"هم" لا بد ألا يسمحوا لك.. من "هم"؟ أرجوك لا تسأل!

ثانيًا: نتفرد كعرب باستخدام نظرية المؤامرة.. ليس فقط في تفسير الانكسارات كما هو الحال في العالم كله.. بل تجاوزنا ذلك الأمر في تفسير الانتصار والنجاح على أنه من تدبير العدو.. وليصير كل انتصار لنا هو مجرد "لعبة" يلعبها علينا الأعداء.. ويجيدون حبكتها ليصلوا لأهداف أخطر.. وهو استخفاف بمقدرات ومهارات الشعوب وذكائها.. وإهانة لإنجازاتنا وانتصاراتنا.. حدث هذا في تفسير

عبور أكتوبر 1973.. كما يحدث في صغائر الأمور.. وأشهرها في مصر الانتصارات الكروية عندما تأتي ضد فرق مشهود لها بالعالمية والتفوق.. فتجد من يقلل من قيمة النصر بادعاء عدم جاهزية المنافس.. أو دفعه بالناشئين.. أو تحيز الحكام ضده.. لا بد أنك تذكر فوز مصر على إيطاليا بطلة كأس العالم عام 2006.. عندما واجهها المصريون في كأس القارات عام 2009.. ولعلك تذكر فوز الأهلي على ريال مدريد بطل أوروبا في عام 2001.. كم قيل وقتها عن الفريق الذي يلعب بالصف الثاني لتجربتهم أو عن الفريق الذي أتى لمصر للسياحة والاستمتاع بالشمس ومرأى الأهرامات؟

ثالثًا: بعد أن وصلت بنا نظرية المؤامرة إلى عدم تصديق قدرتنا على الفعل أو الإنجاز.. وأن كل ما يحدث من حولنا هو مؤامرة أمريكية أو إسرائيلية الصنع.. مزجت المؤامرة نفسها في خبث رهيب بالفهم السلبي للقضاء والقدر.. وهو أننا مسيرون وغير مخيرين.. لتنفذ إلى دعامتها الثالثة وهي أنه: "من الأفضل لك إذا كنت طاهرًا شريفًا ألا تنخرط في أي عمل.. لأنك لن تضيف أي شيء (لأنك مسير لا مخير).. ولأنك بذلك تكون جزءًا من المؤامرة الكبرى التي تحاك من حولك".. يساعد على ترسيخ ذلك الاعتقاد ما يتحدث به العامة والشيوخ والإعلام طوال الوقت عن فكرة انهيار الخلافات.. والقوة الإقليمية العربية والإسلامية.. وضياع دولة الأندلس عبر التاريخ.. كدليل على عدم الفائدة من العمل أو المقاومة.. فالمؤامرة موجودة دائمًا.. وفعلها نافذ دائمًا.. وإرادتها فوق كل شيء.. *(هوامش على دفتر الثورة – د. أحمد خالد العمري)* ..

رابعًا: ببراعة العقل العربي في تطوير نظرية المؤامرة.. حولناها إلى نظرية فورية التطبيق.. بمعنى أننا صرنا نطبقها بحيث تصلح لتفسير الحاضر الذي ما زال يتكون.. وفي أثناء حدوث سلاسل الأحداث التي ربما لم نبصر نهايتها بعدُ.. انظر كيف استشرى فكر المؤامرة في تفكير الناس خلال حوادث الانفلات الأمني في مصر بعد الثورة.. في صدامات الفتنة الطائفية.. وحتى قبل انتهاء الأحداث والقبض على المجرمين والبلطجية.. كان الفكر الجمعي قد وصل بالفعل إلى استنتاجه النهائي: هذه مؤامرة وراءها فلول النظام.. أو إسرائيل.. أو أمن الدولة.. أو أي طرف آخر.. هي مؤامرة ولا شك.. هي مؤامرة وكفى!!

هذا التطوير المخيف في تطبيق النظرية.. بحيث لم تعد تستخدم لشرح السبب في سلسلة أحداث سياسية أو اجتماعية أو تاريخية.. على أنها عمل منظم يدار بواسطة عصابة متآمرة وراء الأحداث.. بل تستخدم لتفسير بداية شرارة أي مشكلة.. وبالتالي وصم الحدث كله حتى آخره حتى لو لم تكن نهايته معروفة.. بالمؤامرة.. هذا التطوير لعب دوره في صرف النظر تمامًا عن أي علة مجتمعية أو خطأ سلوكي.. قد يكون هو السبب في المشكلة.. وقد يكون المهد المناسب التي تمت فيه صياغة المؤامرة – لو كانت حقيقية – فلم نرَ مثلاً من يتحدث عن سبب الانفلات الأمني – وليس كل مظاهره في البلطجة.. بل انظر إلى السلوك المروري من منظور

سلوكي.. أو من منظور ضعف جهاز الشرطة معنويًا وقلة الحافز لديهم.. أو من منطلق أسباب اجتراء البلطجية على رمز الأمن وعلى هيبة الدولة.. ولم نرَ من يناقش أسباب تعدد الاعتصامات في البلاد على أساس الإحساس الذي وصل للفئات المختلفة ببطء الأداء الحكومي واعتماد الضغط كوسيلة ناجحة لتنفيذ المطالب.. ولم نسمع من يناقش الاحتقان بين عنصري الأمة كبيئة مناسبة للاشتعال.. ولا قيمة الشائعات وأثرها في إذكاء المشاكل.. بل إن كل شيء كان تفسيره واحدًا: مؤامرة!!

خامسًا: يرى د. أحمد خالد العمري أن نظرية المؤامرة في الفكر العربي قد بدأت – وللأسف – تعلي إرادة "المؤامرة" على إرادة "الخالق".. فالثابت لدينا الآن هو أن إرادة أمريكا هي الأعلى.. وبلا مسوغ واضح يتفق الكثير من السواد على أن أمريكا هي التي تقف وراء إشعال الثورات في العالم العربي.. في الوقت نفسه الذي يرى فيه أغلب هؤلاء أنها هي التي تشجع التيارات الداخلية من أقباط وسلفيين والذين يثيرون قلاقل باعتصاماتهم في البلاد.. دون أن يسأل صاحب هذه الآراء نفسه: كيف تشجع أمريكا وتساند الشيء وضده؟ ودون أن يسمح لنفسه بإشراك "إرادة" أخرى هي الإرادة الشخصية لدولة مثل مصر.. والإرادة الشعبية لنا.. مع تلك "الإرادة" الأمريكية.. ودون أن يفهم ما يصل إليه من إيحاء "بالاستسلام".. ومن رفض لفكرة "إرادة الله" التي هي – بلا شك – فوق الكل!!

إذا كنا قد وصلنا الآن لهذه النقطة الخطيرة في تناولنا لـ"نظرية المؤامرة"..

التي يحلو لنا في مصر تفسير كل شيء بعد الثورة من منظورها.. فلِمَ لا "نستطلع" الرأي الديني في الأمر؟ فإرادة الله في الحوادث هي فوق كل شيء.. سواء أكانت هناك مؤامرة أم لا.. فإرادة الله هي التي تقرر حدوث الشيء وضده.. وهي التي تكتب النهاية وتختمها بخاتم الواقع..

لنعُد إلى أيام غزوة أُحد..

استشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – مَن حوله مِن شباب وشيوخ المدينة: هل يخرج المسلمون لملاقاة جيش قريش الآتي لحربهم.. أم ينتظرونهم في المدينة ويتحصنون بها؟ كان هناك رأيان: رأي الشيوخ مال إلى التحصن بالمدينة.. فالتخندق فيها – وهو ما تم في غزوة لاحقة – هو مسلك حربي ناجح.. وجيش قريش الآتي هذه المرة شديد الاستعداد كبير العدد.. والخروج لملاقاته مغامرة..

رأي الشباب كان في الخروج والحرب خارج المدينة.. كان معظمهم من الشباب المتحمس قليل الخبرة.. الذين لم يشترك كثير منهم في غزوة "بدر" والذين يتشوقون للجهاد والخروج لملاقاة الأعداء.. وكان عددهم أكبر من عدد الشيوخ.. وصوتهم أعلى وأكثر إقناعًا..

استجاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – لرأي الشباب.. بعد قليل.. تراجع بعضهم عن رأيه وبدءوا في إيصال ذلك عن طريق السيدة "حفصة" زوجة الرسول.. لكنه كان قد عزم أمره.. التقى الجمعان: جيش المسلمين وجيش قريش..

في جبل أُحد.. وتدخل المنافقون ليوقعوا الفرقة بين المسلمين ويحثوهم على جمع الغنائم.. وانشغل المسلمون.. وأخطأوا وانهزموا..

لنرَ الموقف الآن..

هناك بلا شك مؤامرة واضحة.. على الأقل بمقاييس فكرنا العربي الحالي..

مؤامرة بطلها المنافقون من المسلمين.. نفذها بعض المسلمين ربما بإيعاز من الطرف الخفي وراء الكواليس.. سمِّه ما شئت.. زعماء قريش أو جواسيسها أو مخططيها.. إلخ.. ولكن انظر إلى رأي القرآن فيما حدث عندما نزلت الآية الكريمة: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ).. وانظر إلى قوله تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ).. نرى كيف أن القرآن الكريم يوجهنا إلى أن المصيبة – وهي هنا الهزيمة في أُحد – كان سببها تهافت المسلمين على الغنائم.. وفي تفسير الشنقيطي: أنهم خيروا يوم غزوة "بدر" بين قتل أسرى "بدر" وأسرهم و بين أخذ الفداء على أن يستشهد منهم في العام المقبل قدر الأسرى.. فاختاروا الحل الثاني.. وذلك كما رواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب.. وعلى ذلك فالمعنى هو: قل هو من عند أنفسكم حيث اخترتم الفداء واستشهاد قدر الأسرى منكم..

ما يعنينا بشدة في هذا المثال هو تأكيد القرآن أن السبب هو في سلوك المنهزم

وفكره.. وإهماله تمامًا لـ"مؤامرة" المنافقين أو "جواسيس" قريش.. في إشارة أراها مفهومة إلى أنه ليس هذا هو السبب الحقيقي.. وليس هو بيت القصيد.. على هذا النهج نستطيع أن نقول: إنه ليس يعنينا "وجود" مؤامرة من عدمه.. بل يعنينا ما الذي فعلناه خطأً في سلوكنا أو فكرنا مما أدى إلى هذا الحدث..

بل إن القرآن الكريم أكد – مع فداحة الأمر وظلال الهزيمة – ضرورة الشورى التي ربما اتهمها البعض بأنها وراء هذه الحادثة.. في قوله تعالى: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ).

فكأننا نستلهم في حوادثنا التي نعرج فيها أول ما نعرج على اتهام نظرية المؤامرة.. نستلهم فيها وحي كلمات الله التي كأنها بها تأمرنا أن نتشاور فيما نفعل ثم نقدم عليه.. وأن الخطأ لا يكون بالشورى وما تصل إليه.. لا يكون في المتآمرين علينا وقوتهم.. لكن الخطأ الذي قد يؤدي لهزيمتنا أو اختلال أوضاعنا.. هو خطأ من وليد أعمالنا.. ومن أفكارنا نحن.. التي بالتالي هي أولى بتركيزنا.. وإصلاحها من أي شيء آخر لا يفيد لا يقدم ولا يؤخر..

في ختام حديثي أتذكر معك قوله تعالى لبني إسرائيل في كتابه العزيز: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).. وكأني

أراها صالحة للتطبيق المباشر على ثورتنا.. فلننظر كيف نعمل.. فلننظر كيف ننهض بالوطن ونخرجه من كبوته.. بعد أن سقط الظالم.. وعاد الوطن إلينا.. بدلاً من أن ننظر فنسأل من يحفر لنا الحفرة.. لنسأل أنفسنا لماذا لم ننتبه إليها.. ولماذا كانت البيئة صالحة لهذه الحفرة أن تكتمل.. عسى ألا نقع فيها مرة أخرى.. أو في غيرها من الحفر.. والله إرادته دائمًا فوق كل شيء!

المؤامرة بين سد النفس وتحديث النظرية

لنبدأ من البداية..

ورد مصطلح "نظرية المؤامرة" أو "Conspiracy theory" لأول مرة في مقالة اقتصادية عام 1920 ولكن جرى تداوله في عام 1960 وتمت بعد ذلك إضافته إلى قاموس أوكسفورد Oxford عام 1997. التعريف النهائي لنظرية المؤامرة كما ننقلها من موقع "Wikipedia" العالمي على شبكة المعلومات يشي بالمزيد من الغموض الذي هو على كل حال من سمات هذه النظرية.. التي تتسم بغموضها وجاذبيتها لعموم البشر.. وهو يتلخص في (قيام طرف ما معلوم أو غير معلوم بعمل منظم.. سواء بوعي أو غير وعي.. سرًّا أو علنًا.. بالتخطيط للوصول لهدف ما مع طرف آخر.. ويتمثل الهدف غالبًا في تحقيق مصلحة ما أو السيطرة على تلك الجهة.. ومن ثَمَّ تنفيذ خطوات تحقيق الهدف من خلال عناصر معروفة أو غير معروفة).

أحاول هنا استبعاد كل المعاني "المطاطة" التي تحتمل اتجاهين أو

احتمالين.. ولا تفيد كثيرًا في تحديد انتماء مشكلة ما وأزمة ما إلى نظرية المؤامرة من عدمها.. وهي تلك المعاني التي احتوى عليها التعريف بمعنى المؤامرة.. التي تأتي دائمًا تحت بند "القرينة" وليس "الدليل".. وتندرج أكثر ما تندرج تحت بند "الشك غير المبرر بمبرر قوي" أكثر من تحت بند "الشك الذي يحمل وجاهة الدليل أو القرينة القوية من وحي الاستدلال المنطقي المرتبط بالدوافع والأسباب".

إذا استبعدنا تلك المعاني "المطاطة" التي تجعلنا دائمًا لا نصل لليقين بسبب عدم "قطعية" تعريفها.. وتكثر من اعتمادنا لنظرية المؤامرة فيما يفيد وما لا يفيد.. نجد أنه واجب علينا استبعاد "المتآمر" – ويرمز له في نص تعريف النظرية برمز "طرف ما" – ثم استبعاد وعي الطرف الوسيط الذي وصفه التعريف بـ"الواعي أو غير الواعي".. ووصف طبيعة هذا الطرف أو تلك العناصر بـ"المعروفة أو غير المعروفة".. تتبقى لدينا نظرية واضحة وبسيطة يمكن تحديدها في أنها "عمل منظم ذو خطوات واضحة يهدف إلى مصلحة أو سيطرة على جهة ما".. إن التعريف بهذا الشكل وبقدر وضوحه وبساطته.. إلا أنه يفتقر إلى "المتآمر" وإلى "الوسائل".. وعلى الرغم من ذلك فإنه بهذه الصيغة يحرر عقولنا من المطاطية التي كان يحملها التعريف الأصلي.. التي تشتت تفكيرنا إلى توزيع الاتهامات وتوسيع دائرة الشك في الكثير من "الأطراف المتآمرة" والكثير من "الوسطاء والعناصر" المساعدة.. وإلى تغييب عقل هذه العناصر في بعض الأحيان والتشكيك في نواياهم في أحوال أخرى

على اعتبار أنهم يعملون أحيانًا "بعلم" وأخرى "بغير علم".. بل إن ما يقوي مبدأ استبعاد "الأطراف" و"العناصر" من تعريف النظرية الأصلي هو أن ذلك التعريف الجديد في رأيي.. وقد تحررت عقولنا بموجبه من هذا التشتت.. يدفع أفكارنا بشكل أكثر إيجابية عن قبل في اتجاه يحمل منطقاً أراه أكثر فائدة في إجهاض الأزمة موضع المناقشة.. وهو اتجاه تحديد "المستفيد" من هذه الأزمة.. وهو منطق يشبه تحديد دوافع ارتكاب الجريمة لتحديد المجرم بسهولة..

غير أن هذا التعريف الجديد – "عمل منظم ذو خطوات واضحة يهدف إلى مصلحة أو سيطرة" – يستلزم شروطًا واضحة لاعتماده كتفسير للحوادث والأزمات.. فلا ننسى أنه يحمل العنوان نفسه وهو "نظرية المؤامرة".. لذلك لا ينبغي الدفع به إلى واجهة الأحداث أو صدارة المشهد بكل سهولة.. ولا يصح تعميمه ليحتل مقدمة الفكر في تحليل الأزمات.. بل يجب أن ننشغل بالأسباب الحقيقية وعلاجها واتقاء تكرارها في كل مرة.. وهي ضمانة مرجعية أكثر قوة من مرجعية "المؤامرة".. بل إن "الانشغال بالأسباب الحقيقية" هو نفسه يمثل ركنًا مهمًّا من أركان اعتماد "نظرية المؤامرة" كجزء وليس كل التفسير.. وكتشخيص ثانوي لا يغني عن التشخيص الأولي للمرض أو الأزمة.. والذي لا يخرج في معظم الأحوال عن وجود خلل اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو سلوكي.. يستغله "المتآمر" في براعة وتخطيط.. لينفذ "المؤامرة" على "المتآمر عليه".. مستغلاً هذه البيئة الخصبة والمشاكل الموقوتة

التي لولاها.. ولولا وجودها من الأصل.. ربما لما صارت هناك أي أزمة..

وهذا هو بيت القصيد..

في ضوء تعريفنا الجديد لنظرية المؤامرة.. نطرح التساؤل التالي:

"مَن المتضرر الأكبر من استمرار حالة الدفع المعنوي الشعبي الإيجابي عقب تنحي مبارك في فبراير 2011.. وبداية ملامح سقوط نظامه واحتمالية توجه الدولة في المستقبل لمعيشة أفضل.. ولمواقف سياسية أكثر "استقلالية".. يدعمها غالبًا هذا الدفع المعنوي الشعبي الذي يؤيدها؟"..

نطرح السؤال بطريقة عكسية: "من المستفيد من عرقلة هذا الدفع المعنوي.. وصرف النظر عن الحماس الوطني الهائل ودفع هذا الحماس إلى الفتور بضربات متتالية من المشاكل المجتمعية والشخصية والفئوية.. وتحويل القضية الوطنية إلى قضايا فرعية؟"..

للإجابة عن السؤالين لا بد أن تسأل نفسك أولاً: هل هناك أصلاً مستفيد؟ وهل هناك أصلاً متضرر؟

أظن أن إجابتك جاءت بنعم على السؤالين.. ولاستكمال الإجابة أرجوك أن تسمع مني ما يلي:

في الأيام القليلة التالية لتنحي مبارك.. عاش المصريون فرحة حقيقية.. فرحة تسبب فيها إحساسهم بانتهاء عصر الظلم والفساد.. ترجمتها مشاعرهم في

عودة إحساسهم أن مصر عادت لتصير وطنهم مرة أخرى.. فظهر الانتماء بكل أشكاله: نزل الناس إلى الشوارع يصلحون ما تهدم من أرصفة.. ويدهنون الحوائط.. ويصلحون أقسام الشرطة.. وظهرت عشرات الأقلام والبرامج التي حملت توجهًا شبه ثابت هو كيف نصلح مصر.. وكيف نعيد رسم خريطة المستقبل وننهض بالبلاد.. فظهرت أحاديث عن "ممر التنمية" للعالم الجليل د. فاروق الباز.. وأنباء عن مناجم ذهب سيتم افتتاحها.. وأخبار عن تطوير التعليم.. وزيادة ميزانية الصحة.. ومواقف سياسية شجاعة للخارجية ممثلة في د. نبيل العربي.. وظهرت عشرات الصفحات من الشباب على الإنترنت والـ"فيس بوك".. تدعو لأفكار لإصلاح البلاد منها "بنك تطوير أفكار مصر".. و"الحالمون بالغد.. العاملون له".. كما انتشرت بين العوام من الناس مقولات نقلتها لنا الكثير من الفضائيات على لسان البسطاء ومنها مما نزال نذكره: أن "البلد رجعت بلدنا تاني" وأنه "ما حدش هيرمي زبالة في الأرض خلاص" وأنه لن يحس ولن يقول أحد بعد اليوم إنه "فيه مسلم ومسيحي"..

سأنتزعك الآن انتزاعًا من هذه المشاهد الرائعة.. وهذه المقولات التي تقشعر لها الجلود.. ويختلج لها أي قلب وطني مخلص.. وتعالَ معي لنرى الواقع الذي فرض نفسه علينا شهورًا طويلة بعد انتهاء الثورة.. لعله يصلح لتفسير المستقبل.. ولعل فهمه يرشدنا لطريق الصواب.. فهل ترى معي اليوم من يفكر في مستقبل مصر

غدًا وبعد غد؟

هل ترى معي اليوم من يفكر في غير اليوم؟

وهل تراه يفكر في يوم مصر أم في يومه هو؟

من المسئول عن أن نصل إلى حصر تفكيرنا في أن نعيش "اليوم بيومه".. بدلاً من أن نعيش لنفكر ماذا نفعل اليوم ليكون غدنا جميعًا أفضل؟ من المسئول عن أن تصل حالتنا إلى ذلك وهو وضع - أعتقد أنك توافقني - يشبه تمامًا وضعنا قبل الثورة؟

إذًا من المسئول عن "حرق" أو "إفساد" أو "سد نفس" الثورة؟

تعالوا أولاً.. في إطار بحثنا عن تفسير لمؤامرة "حرق وسد نفس الثورة".. نبحث عن الوسائل التي تم بها ذلك.. وهو مدخل أولي للوصول للدوافع التي من أجلها تم تنفيذ هذه المؤامرة.. ما سوف يشير تلقائيًّا إلى المسئول عن ذلك كله.. بحثنا عن سيناريو إحراق الثورة هو بحث عن "عمل" نحاول استكشاف هل كان "منظمًا" يهدف لهدف "واضح أو مصلحة ما أو سيطرة".. بما يتفق مع التعريف الجديد لنظرية المؤامرة.. ومن خلال تأكيد أو نفي انتماء هذه الظواهر أو الأعمال إلى النظرية.. نحاول تحديد المستفيد معًا.. لتكتمل إجابة سؤالنا: من المستفيد؟ وهل توجد مؤامرة أم لا؟

نظرية المؤامرة على الثورة..
سيناريو "سد النفس"!

"لأننا نخاف البوليس والجيش والإنجليز والأمريكيين والظاهر والباطن..

فقد انتهى بنا الأمر إلى ألا نخاف شيئًا"

ثرثرة فوق النيل – نجيب محفوظ ***1966***..

لا شك أن تطبيق فكر المؤامرة على كثير من الأحداث والأزمات في مصر بعد اندلاع ثورة يناير هو أمر مقبول من الناحية المنطقية.. فهي أفعال محددة لها فاعلون محدودون مِنَ المستفيدين من بقاء الأمور على ما هي عليه.. وممن أفزعهم الحماس الهادر للمصريين تأييدًا للتغيير وشمس النهضة التي لاحت في الأفق.. ومن اتفاق الشعب العربي كله على الترحيب بمصر التي بدت وكأنها عادت من جديد.. مشروعًا واعدًا لدولة إقليمية عظمى.. حملت تلك الأفعال أيضًا أهدافًا محدودة.. أدت إلى زرع الشك في جدوى الاستفادة من ثمار هذه الثورة.. وركزت

على تقليل وتقليص حماس الناس بها.. عن طريق وضع المشاكل في حياتهم اليومية لصرف أنظارهم عن الغد.. وتحويلها إلى محاولة المحافظة على "أمان" و"رزق" اليوم.. ثم محاولة كيل الاتهامات لحدث الثورة نفسه.. وتضييع الوقت وإبطاء التغيير.. حتى يصل الناس إلى مرحلة كراهية الثورة وبعد تطبيق فكر "الاختزال" الذي برعنا فيه كالعادة.. من دمج كل السلبيات مع الثورة كوجهين لعملة واحدة.. ومن خلال سيناريو "سد النفس" هذا.. يصل هؤلاء إلى هدفهم المحدد وهو أن نتقبل أي وضع يُفرض علينا في النهاية.. أملاً في إنقاذ يومنا وأن نعود كما كنا: لا نسأل عن غدنا لانشغالنا بالحاضر وتأمينه.. حتى لو كان الثمن قبول نفس السياسات.. وعودة الوطن كما كان قبل الثورة: نفس الوطن الذي نلمسه فلا نحسه.. ونحسه فلا يحس بنا.. ولا يأبه لوجودنا ولا لكرامتنا!!

لكننا نسينا في غمار ذلك كله شيئًا.. ونسي هؤلاء المتآمرون أشياء!! نسينا أن "المؤامرة" لا تكتمل إلا باستسلام المتآمَر عليه لها.. وأنها لن تنجح إلا لو قبلنا نحن.. وأردنا نحن أن تنجح!!

ونسي هؤلاء أنه من فرط أن زرعوا فينا الخوف من الثورة.. ومن الرزق وضيقه.. ومن ضياع الأمان ومن اليوم والغد وبعد الغد.. أنه سيأتي علينا اليوم الذي لن نخاف فيه شيئًا.. هذا اليوم الذي عشنا مثله في الخامس والعشرين من يناير.. عندما هانت علينا أنفسنا حتى ثُرنا على من داس كرامتنا.. لذا فالجدير بهؤلاء أن

يتنبهوا أنهم بأدائهم ذلك واهمون.. ولو اعتقد فرسان الثورة المضادة أنهم سينجحون في النهاية.. فهي بالفعل بداية انتصار الثورة.. التي ستحدث عاجلاً أو آجلاً بإذن الله ! !

عندما تنحى مبارك عن سدة السلطة عاشت مصر روحًا عظيمة من التفاؤل بالغد.. "البلد رجعت بلدنا تاني".. "مصر هتكون أعظم دولة في الدنيا".. و"ارفع راسك فوق انت مصري".. كلها جمل ستبقى خالدة في تاريخ هذه الفترة.. انتشرت دعاوى البناء والإصلاح ومقترحات التطوير في كل البرامج.. وانهالت عشرات من أفكار المشاريع كمشروع ممر التنمية للعالم المصري فاروق الباز.. ومشروع تنمية الصحراء ومشاريع تطوير الاقتصاد.. والدعوة للاكتفاء الذاتي من القمح.. وغيرها من الأفكار التي صبت كلها في البحث عن صالح الوطن وخيره.. وامتلأت صفحات الإنترنت والـ facebook بصفحات تدعو إلى تطوير البلاد وجميع الأفكار اللازمة لذلك.. ظهر أيضًا في هذه الفترة توجه الدولة نحو الحفاظ والغيرة على كرامة المواطن المصري في الخارج.. خاصة بعد إقالة وزارة د. أحمد شفيق وتعيين وزراء ذوي ثقل وطني مثل وزير الخارجية السيد "نبيل العربي" الذي لم يترك مسألة احتجاز مواطن مصري في سوريا دون تكثيف الاتصالات حتى تم الإفراج عنه.. ثم لعب دورًا فعالاً في حشد الجهود الشعبية والوفود الوطنية لحل مشكلة سدود المياه في إثيوبيا.. التي تم تجاهلها من النظام السابق حتى تفاقمت وصارت واقعًا خطيرًا.. كما أطلق تصريحات ذات ذبذبة عالية من الكرامة الوطنية في مسائل الصراع الإقليمي..

وأصدر الجيش ذات يوم تصريحاً خاصًّا يخاطب فيه مواطنًا مصريًّا محتجزًا على الحدود الليبية إبان فوضى اندلاع الثورة في أولها.. يرشده لسبيل العودة لوطنه.. ثم توافدت على مصر وفود الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة تستطلع حال الثورة في سعادة وفي وضع من إصغاء الآذان.. قوبل باتزان محمود في رد الفعل الرسمي والحكومي.. وصل إلى حد أن لم تجد "هيلاري كلينتون" – وزيرة الخارجية الأمريكية – رئيس الوزراء د. عصام شرف في استقبالها في أول يوم في زيارتها.. وكانت الحجة المعلنة لذلك هي انشغاله في اجتماع بمجلس الوزراء.. مما حمل معنى غاية الاحترام: أنه ولا حتى وزيرة الخارجية الأمريكية يتعطل من أجلها اجتماع للوزراء في مصر من أجل مناقشة أمور البلاد.. امتلأت الفضائيات ببرامج تطرح تصورات مختلفة للإصلاح.. وجاء خروج المصريين إلى الاستفتاء بحماس وحب دليلاً آخر على الروح الجديدة.. ثم بدأت مؤامرة الثورة المضادة على مراحل ثلاث..

المرحلة الأولى بدأت في شغل الرأي العام بقضايا فرعية لا علاقة لها بصالح الوطن أو التفكير في المستقبل.. دوائر من الجدل ومزيد من الجدل.. فرأينا التركيز الإعلامي على فساد مبارك والتلويح بثروته بالأرقام بالغة التنوع والضخامة.. وكل مصدر خبر يؤكد صحة خبره.. ثم رأينا قصصًا عن حجم الأموال المنهوبة.. وأرقامًا عن مدى تكرار ذلك في سنوات سابقة.. وقصصًا – أضفى عليها الأعلام إثارة مقصودة – عن محاولات هرب رجال الأعمال مثل "أحمد عز" وزوجته.. و"حسين سالم" وقصة

شحن طرد يخصه.. ثم جاءت الاعتصامات والفئويات التي اشتركت في المطالبة بزيادة الأجور.. ولِمَ لا؟ وهؤلاء يسمعون كل يوم من يؤكد لهم أن "البلد فيها فلوس".. وغيرها من التصريحات الهوجاء مثل حساب نصيب الفرد لدى عودة الأموال المنهوبة.. وشعورهم بالتباطؤ في اتخاذ القرارات التي تضمن لهم الزيادة الفعلية.. مع ارتعاش يد رؤسائهم بعد الثورة لأنهم ولا شك استمدوا سلطانهم من النظام.. الذي بدا وكأنه سقط وفقد قوة أنيابه.. وانشغلنا مرة أخرى في تقييم وجاهة هذه المطالب الفئوية.. وانقسم المعلقون ما بين مؤيد ومعارض..

ثم بدا وكأن ذلك كله غير كافٍ.. بدا أن الثورة لم تنطفئ بلعبة التعطيل والتشتيت.. فلم تهدأ.. بل طالب الثوار بمزيد من الإصلاحات.. وأسقطوا حكومة د. أحمد شفيق لعدم وفائها بالإصلاحات أو البدء في خطواتها.. كما تم صدور قرار المحكمة الإدارية العليا بحل الحزب الوطني.. وبدا أن الثورة على الرغم من كل شيء ما زالت على الطريق.. ما زال الشعب يؤيدها.. والجيش يحميها.. فبدأت المرحلة الثانية – وهي بلا شك أشرس المراحل – واضعة نصب عينيها كسر هذا التلاحم بين الشعب والجيش من ناحية وبين الثورة وزخمها من ناحية أخرى.. عن طريق إضفاء هالات من اللغط وسوء السمعة والتمييع حول الأخيرة.. نلخص ملامح هذه المرحلة فيما يلي من نقاط:

1– أشباح الـ"فيس بوك":

كما لعب الـ"فيس بـوك" دورًا إيجابيًّـا في انـدلاع شـرارة الثـورة في تـونس ومصر.. كذلك يحوم شك كبير حول دوره السلبي.. فكـثير مـن الناشـطين والثـوار يقصون قصصًا عن الأشخاص "الأشباح".. وهو وصف أطلق على من لا يعرفونه.. ولا يدرون من أين جاء.. ولماذا دخل على "صفحة" الحوار في الـ"فيس بوك".. ممن كانوا يسهمون بآرائهم الشاذة في "تهييج" الآراء.. وشغل الموجـودين بمواضيع فرعيـة أو إثارة مشاكل كبيرة وأشهرها في مصر ذلك "الشبح" الذي دعا للهجوم علـى الكنيـسة في "إمبابة".. لكن الأشد فتكًا جاء قبله وقت الإعداد لجمعة الـسابع والعـشرين مـن مايو.. التي توحدت مطالبها الأصلية في صورة معروفة سلفًا ومتناسـقة مـع مطالـب الثورة.. والتي تم رفعها منذ اليوم الأول.. وهي محاكمة رموز الفساد وعلى رأسـهم مبارك.. وإقالة المحافظين وحـل المجـالس المحليـة وغـير ذلـك.. لكـن الكـثيرين يشيرون بأصابع الاتهام إلى "أشباح" بدءوا في إنشاء صفحات خاصة للدعوة إلى قائمة مطالب مختلفة.. ومنها مسألة "الدستور أولا" التي لم تخطر ببال الثوار سـاعتها.. والتي أسهمت في تفرق المطالب وتعدد المنصات في الميدان وإظهار الثوار بمظهر غـير المتحدين غير المنطقـيين وغـير الـراغبين في الاسـتقرار ومظهـر الـداعين إلى مطالـب جديدة من وقت لآخر.. ومن هذه الأشباح أيضًا: أشباح الـدعوة لـلهجوم علـى وزارة الدفاع في يوليو.. وأخيرًا تحويل مليونية التاسع من سبتمبر إلى خطة للـهجوم علـى مقار الجيش والوزارة..

ذلك كله بالطبع لا يمكن أن نفهمـه بمعـزل عـن سـيناريو لإشـاعة روح عـدم

التعاطف مع ثوار يتم إلباسهم ثياب "المخربين".. أملاً في أن يفقد الجيش أعصابه.. والناس تعاطفهم.. ورجاء في أن يبدأ الناس في التحول بمشاعرهم ضد الثوار وتصنيفهم بعدم العقل.. ذلك كله صاحبته أيضًا حملات إعلامية تستنكر وتهاجم وتشحن الرأي العام ضد "الثورة".. التي تم استخدامها كثيرًا والاتهامات الموجهة للثوار بالفوضى والضجيج الفكري والعشوائية السياسية..

إعمال العقل..

نعم هذا ما كان ينقصنا.. لم تكن الثورة لإسقاط مبارك وكفى.. بل كانت لقائمة مطالب معروفة وتم الإعلان عنها في البداية بوضوح.. فقدان التعاطف مع الثوار يتحمل جزءًا منه الثوار أنفسهم كما يأتي ذكر ذلك في فصل آخر.. لكن رجل الشارع الذي ينساق لمقولة "همَّ عايزين إيه تاني؟".. كان أيضًا جزءًا من المشكلة.. بتناسيه المطالب وعدم إدراكه أنها كلها قديمة.. وأن البطء في تنفيذها هو المشكلة.. كما أن الثورة بالتأكيد ليست السبب في غلاء الأسعار وانتشار البلطجة..

2- "بعد شهرين مش هنلاقي ناكل"

هذه النوعية من التصريحات جاءت على ألسنة من وصفوا أنفسهم بالخبراء والمسئولين الاقتصاديين ومن صدعوا رءوسنا بخبراتهم السابقة في دول سبقتنا بخطوات.. تورطت في الترويج لذلك المعنى جهات مسئولة وإعلام كانت معذورة في الأخذ برأي وحكم "خبراء" تحوم شكوك حول نياتهم في ذلك.. مما دعا المجلس

العسكري في فترة ما إلى تقرير قصر التصريحات الاقتصادية على الوزير فقط.. منعًا للبلبلة التي يثيرها تضارب التصريحات وتضادها في بعض الأحيان..

عشنا فترة طويلة في اعتقاد جازم أن الاحتياطي النقدي الأجنبي يتناقص في رعب.. حتى طلع علينا في قمة ذلك الإيحاء المرعب رئيس الوزراء د. عصام شرف بتصريح يقول فيه إن السحب من الاحتياطي تناقص في وضوح حتى بلغ صفرًا في مايو (!!) هذه المعلومة التي تبشر بخير.. وتمنع القلق نسبيًّا.. لم يتم الترويج لها إعلاميًّا بنفس قدر الأخبار السلبية..

وزير الاقتصاد الأسبق في حكومة شرف الأولى صرح مرة بأنه لا يدري ما إذا كان قادرًا على صرف المرتبات من الشهر المقبل وأنه قد يسمح بصرف نصفه فقط (!!).. تصريح مشابه انطلق عن تخفيض المعاشات.. ثم يتم التراجع عن كليهما.. بعد ذلك فرض الوزير نفسه ضريبة على رءوس أموال شركات الاستثمار في البورصة.. بدعوى أن هذا هو الحل الأمثل لمشكلة عائدات الضرائب.. أدى ذلك إلى خروج تسعمائة مليون جنيه من البلاد وسقوط مدوٍّ للبورصة على مدى ثلاثة أيام.. ملأت خلالها توسلات رئيسها أرجاء الإعلام.. وكان الأسوأ أن الوزير تراجع عن قراره في نهاية الأيام الثلاثة.. فزعزع الثقة في اقتصاد لا يتحمل ضربات من الداخل ومن أبنائه..

ثم جاءت تصريحات اقتراب تحديد الحد الأدنى للأجور.. تمر الأيام فلا

يحدث شيء.. ويزداد سخط الناس.. ثم ينتعش أملهم بتحديده بـ1200 جنيه.. ثم يصابون بخيبة أمل أشد من الأولى.. حينما ينخفض إلى 800 جنيه.. ثم لا يصبح القرار منتظرًا في القريب العاجل.. وإنما يتم الوعد بـ"تقسيط" الزيادة على خمس سنوات بدعوى أن الميزانية لا تسمح.. وكأن ذلك مفاجأة لم تكن معلومة من قبل!!

مع اختلاط المفاهيم.. وتكرار الإحباطات وكسر الأحلام.. مع الترويج الإعلامي أن ذلك كله "بسبب" الثورة.. زاد سخط الناس على الثورة والثوار.. وصبوا جام غضبهم عليها.. خاصة مع اضطرارهم لأن يوجهوا تركيزهم إلى همهم الأكبر وهو "رزق اليوم".. بدلاً من "حلم الغد"..

في الثامن من سبتمبر.. قرابة الستة شهور بعد تصريحات "مش هنلاقي ناكل".. وتهديدات خفض المعاشات وتوقف الأجور.. وقصة تعطل عجلة الإنتاج.. جاءت أرقام هيئة الجمارك بإحصائية تدل على أن الجمارك لم تنخفض سوى قرابة 7٪ عن العام الماضي.. وأن الصادرات (التي قيل في انخفاض معدلاتها الحاد صفحات وصفحات من التقارير الحكومية بعد الثورة) وصلت إلى 150 مليار جنيه.. وهو مبلغ يقل حوالي 12٪ فقط عن العام الماضي.. كان مطلوبًا منًا أن نصدق إذًا أننا "مش هنلاقي ناكل".. فلأي سبب كانت كل تلك التصريحات والإيحاءات سوى لكسر شوكة ضغط الثورة وإفقادها التأييد الشعبي.. بدعوى القلق على المستقبل بدلاً من التخطيط له.. أو التطلع إليه بأمل وحب؟

أضف إلى ذلك افتعال الأزمات الطاحنة التي بدا واضحًا أنها ليست عفوية.. فأزمة اختفاء السولار الذي يعتمد عليه الفلاحون في جني الحصاد.. ثم الكشف عن تهريبه لبيعه للسفن بأسعار عالية.. وأزمة أنابيب البوتاجاز.. والأسمدة الزراعية.. وكلها أزمات تجمع بين سوء الإدارة الحكومية.. وفساد النية.. والمبالغة الإعلامية.. لأزمات لم تكن جديدة على المجتمع.. وأهمها أزمة البوتاجاز التي كانت أيام يناير من عام 2010 شاهدًا على أعنفها.. وعندما تحسنت الأزمة وعادت الأنابيب.. لم تلقَ تلك الانفراجة نفس التهليل الإعلامي بشكل ظاهر.. أدى لأن يطلب الوزير جودة عبد الخالق – وزير التنمية الإدارية – من الإعلام إبراز الجوانب الإيجابية لحل الأزمة أيضًا..

هو عمل منظم لإشعارنا بتوالي المشاكل وتصدير الطاقة السلبية فقط.. دون أن تخفف من حدتها أخبار طيبة.. أو بشائر انفراج أزمة ما.. فكان الناس من كثرة السلبيات والأخبار المفزعة والمحبطة يتهامسون فيمن بينهم: "مفيش خبر حلو؟"..

بل إن تلك الأزمات تعاقبت بشكل منظم.. فلا تكاد تنتهي واحدة دون أن تبدأ الأخرى.. دون مسافة فاصلة.. ودون حدوث أزمتين معًا.. في بلد يفترض فيه أنه يتداعى بمقياس حدة الأزمات وتوليها.. كان يوحي بضلوع طرف ما يقصد التخطيط لذلك بطريقة تثير الشك المقبول في وجاهة نظرية المؤامرة..

3– المشكلة الأمنية:

لا أظن أنك لم تسمع أو لم تعايش تباطؤ الاستجابة من الشرطة لبلاغات المواطنين بعد الثورة.. الكثير من القصص تواترت عن إحساس اللامبالاة الذي كان يصل لحد الشماتة في بعض الأحيان.. لا يعني هذا أن جميع أفراد الشرطة كانوا كذلك.. لكن غير قليل منهم عبروا عن إحساسهم بالرغبة في تفادي الصدام مع المواطنين.. وعن "تجرؤ" الكثيرين عليهم.. صاحب ذلك ازدهار سوق البلطجة.. وهروب المساجين من الكثير من السجون.. وانتعاش سوق السلاح وتهريبه وغلو ثمنه للتسليح الشخصي.. وانتشار السرقات واضطراب المرور.. وأشهر مظاهر ذلك هو السير في عكس الاتجاه وعدم احترام القواعد.. لكن اللافت للنظر هو أنه كلما هدأت الأمور قليلاً حدث بعد ذلك ما يكدر صفو علاقة المواطن بالشرطة.. في صورة حادث يحمل الاستفزاز الشديد تقبع في تفاصيله مظاهر تذكر المواطن بممارسات الشرطة السيئة على الناس.. وبشكل شديد الوضوح وبالغ الخبث..

من منا لا يذكر حادث سائق المعادي وضابط الشرطة اللذين تبادلا إطلاق النار واشترك السائقون في الاعتداء عليه.. ثم الاعتداء على قسم الأزبكية.. ورواية تعذيب سائق الميكروباص حتى وفاته بالمستشفى؟

ومن منا لم يقشعر بدنه ويذهل عقله لفيديو الشهير لمجند الشرطة الذي يمتدح الضابط لإصابته لمتظاهر في إبان ثورة نوفمبر □□□□ في عينه؟.. ومن

يجيب عن سؤال يتعلق بسبب عدم إمكانيـة الداخليـة مـن تغـيير أسـلوب التعامـل العنيف مع المتظاهرين أو عدم وجود من يعترف بخطـأ فـض اعتـصام □□ نـوفمبر بالقوة؟

هناك طرف ما يحرص على عدم عودة الأمن للشارع المصري.. ويحرص على ترسيخ شعور المواطن بعدم الأمان لينشغل بـذلك عـن تأييـد الثـورة وليلقـي المـواطن باللوم عليها.. وليلقي الشرطي أيضًا بالتهمة على أكتافهـا.. في تـدهور أمـن الأول.. وضياع هيبة الثاني..

4- عدم الحرفية الإعلامية وإعلاء قيمة الإثارة على الموضوعية:

هذا مظهر من مظاهر كثيرة لدور الإعلام السلبي بعد الثورة.. فالإثـارة الـتي صاحبت تلاحق الأحداث العنيفة بعد الثـورة كانـت ضـمانة مهمـة لارتفـاع معـدلات المشاهدة التليفزيونية وأرقام توزيع الصحف.. لا لوم في أن تسعى للنجاح.. لكـن اللـوم يكون مبررًا لو كان سعيك على حساب مصلحة الآخرين ظلمًا وعدوانًا.. خاصة لو كـان على مصلحة الوطن.. فالسعي نحو الإثارة أفقد الكثير مـن المواقـف والحـوادث المهمـة ميزة التحليل المتأني.. ودفع الرأي العـام في كـثير منهـا إلى الـسير في متاهـات عقليـة وسلوكية لا لزوم ولا طائل من ورائها.. سوى التشتيت عـن تأييـد الثـورة والبعـد عـن روحها وهدفها..

وقع الإعلاميون – في أغلب الوقت – في خطـأ فكـري مجتمعـي مهـم.. هـو

التركيز على مناقشات مبادئ وخطوات لإصلاح السياسة مثل الانتخابات.. وتعديل الدستور.. واختيار النظام البرلماني أو الرئاسي ومناقشة حدّي الأجور الأدنى والأعلى.. لكنهم – على الرغم من أهمية هذه المسائل من دون شك – أهملوا أسس الإصلاح الحقيقي مثل مناقشة مشاريع القوانين التي كان جديرًا بكل طائفة مجتمعية مهنية أن تنشغل بمناقشتها.. وتجهيزها لمجلس الشعب المقبل.. مثل هذه النقاط تمثل عنق الزجاجة في التغيير ومن دونها يصبح الحديث عن الأجور مثلاً لا طائل من تفعيله إلى واقع.. كما أهمل الإعلام – بعد فترة قصيرة – الحديث عن مشاريع الإصلاح.. والتنمية.. ولِمَ لا والحديث السياسي يبدو أكثر تشويقاً وأكثر اجتذابًا للقارئ والمتفرج؟

مثال بالغ السخافة يدل بوضوح على كيف تدفعك الرغبة في إثارة اهتمام القارئ إلى أن تفقد الموضوعية والحيادية في عرض وجهات النظر كلها:

أعلن الإخوان المسلمون أنهم سوف ينتجون أفلامًا سينمائية!!

في رأيي – وأظن أنك سوف تتفق معي – لو أن جريدة أرادت أن تستطلع آراء الفنانين ومواقفهم من ذلك التصريح لكان لزامًا عليها أن تعرض آراء فنانين يتميزون بالتحرر (وهو في بعض الأحيان والأمثلة تعبير مهذب) وآراء آخرين يتميزون بالوسطية وفئة أخرى ربما يُعرف عنها التحفظ في أدوارها وبطولاتها.. أظن ذلك منطقيًا من باب عرض الرأي والرأي الآخر.. لكن ما حدث أن الصحف

استطلعت آراء ثلاث فنانات.. "بسمة" أعلنت سعادتها بذلك واستعدادها للاشتراك في هذه الأفلام.. والفنانة "علا غانم" قالت إن ذلك لو حدث "فسأرحل وأترك البلد".. واشتركت المخرجة "الجريئة" إيناس الدغيدي مع علا غانم في المعنى نفسه..

سمها ما تشاء: عدم حرفية.. رغبة في الإثارة أو الإلهاء.. لكنها بالتأكيد مع ظواهر أخرى لسلوكيات وفكر الإعلام (أهمها توجيه السلوك القويم والتركيز على المعاني وإفساد الأفكار) اشتركت كلها في سيناريو "سد نفس" الثورة.. بجدارة!!

5- أرجوكم.. اكرهوا الثورة!!

يبدو هذا هو لسان حال تطور سيناريو "سد نفس الثورة" في مصر.. ولأن الانطباعات الأولى في مصر تدوم.. فلقد استغل هؤلاء المروِّجون لهذا الهدف ما تردد في أثناء الثورة من وجود عناصر خارجية وأصابع مندسة.. ومن قصص مثل الصحفية التي تلقت تدريبًا بأمريكا لقلب نظام الحكم.. ثم عادت واعترفت بكذبها وتلقت إيقافًا من صحيفتها.. واستغل الإعلام الذي يلهث وراء الإثارة ذلك مرة أخرى.. فانشغل الناس في فهم معنى أن "وائل غنيم" ماسوني.. وما الماسونية؟ وما علاقتها بصورة "الأسد" على قميصه.. وبـ"الحظاظات" حول معصمه.. وبأنه عميل أمريكي لقلب نظام الحكم؟

إذًا فالثورة كانت مؤامرة هي الأخرى.. مؤامرة لم يكن لنا يد فيها.. لم

نصنع شيئًا ذا بال.. لا تفرحوا كثيرًا.. هل صدقتم أنها ثـورة؟ تغـيير؟ فكـروا مـرة أخرى: لم ولن يتغير شيء.. هل هذه هي الرسالة؟

ومن أجل إضفاء الشرعية على هذه النظرية بُذلت مجهودات كثيرة..

أعلنت السفيرة الأمريكية بالقاهرة أن أمريكا تبرعـت بـ40 مليـون دولار لدعم منظمات المجتمع المدني في مصر.. هذا التصريح الذي فتح أبـواب جهـنم علـى شباب الثورة وشباب 6 أبريل وفـتح بـاب احتقـارهم علـى أسـاس العمالـة في أسـوأ تقدير.. و"التهور وصغر الـسن وقلـة العقـل" في أشـد التـصريحات تعاطفـًا معهـم.. التساؤلات الهادئة من نوعيـة حق الحكومة المصرية في طلب "كشف حـساب" بهـذه المبالغ وإثبات أصلها وطريقة التصرف فيها ذهبت أدراج الرياح مـع حالـة الـصراخ والهجوم من الإعلام على هؤلاء الـشباب.. ظهـرت مـع ذلـك فيـديوهات "الثـورات الملونـة" التي أوضحت اشتراك ثورات أوكرانيا وتونس ومصر في وجود قناصة.. وكأن هذا دليل على أن المخطط لها واحد.. أو أن "الكتالوج" واحد.. ثم ظهر مذيع اشـتهر بعدم موضوعيته وتهجمه على الجميع ليعرض في فضائيته فيلمًا عن الثورات الملونة التي هي – بحسب كلامه والتعليق على الفيلم – مؤامرة من أمريكا واليهود والموساد وحزب الله لاحتلال مصر (وأرجو أن تركز معي ولا تضحك من فضلك.. فالرجل جاد ويعني ما يقوله.. ولا يبدو عليه الهذيان) عن طريق الأصوليين والليبراليين والثوار الشباب!!

أصحاب هذه النظرية يغضون الطرف عن موقف أمريكا المتذبذب جدًّا أثناء الثورة.. فلقد كان واضحًا وضوح الشمس أن الإدارة الأمريكية "احتارت" لمن تنحاز.. وأنها خشيت الانحياز بوضوح لطرف فيخسر.. فقالت مرة إن الحكومة المصرية مستقرة.. ثم طالبت بالانتقال السلمي للسلطة.. ثم دعمت مبارك مرة أخرى.. ثم عادت للدفاع عن الثوار..

أصحاب نظرية أن أمريكا وراء الثورة يهملون موقف الثوار وائتلاف شباب الثورة حينما رفضوا التقاء وزيرة الخارجية كلينتون عند قدومها إلى مصر عقب الثورة ولم تكن هناك شكوك ولا دعاوى بالمؤامرة وقتها.. وكان الثوار في قمة نجمهم.. فلماذا لا يلتقون قائدتهم وملهمتهم لو كان هذا صحيحًا؟! لكنهم وقتها أعلنوا استياءهم من موقف بلادها من الثورة ودعم النظام السابق.. مما دفع كلينتون للدفاع عن نفسها ومحاولة إظهار نفسها بمظهر من كان يفعل ذلك مضطرًّا بسبب حسابات خاصة هدفها في النهاية دعم حقوق الشعوب في الديمقراطية!!

ما لا يدركه أصحاب هذه النظرية أيضًا أن أمريكا وغيرها من القوى الاستعمارية قد لا تصنع الحدث.. لكنها تسعى دائمًا إلى تطويعه لمصلحتها.. وتطويقها للثورة هدف مشروع من وجهة نظر مصالحهم ومصالح حليفتهم الأثيرة..

* * *

أصحاب هذه النظرية لا بد أن يتأملوا هم بدورهم نظرية جاهزية المجتمع لقيام الثورة واستعداد الجماهير لتقبل شرارتها الأولى.. كنتيجة طبيعية لممارسات

النظام السابق والجهاز الأمني الذي تفرغ لحماية النظام.. وأهمل في كثير من الأحيان دوره الشعبي الخاص.. من حماية واحترام للآدمية.. وما ممارسات التعذيب في أقسام الشرطة والاضطهاد من أمن الدولة ببعيدة.. كذلك كانت الجماهير مستعدة للثورة لإحساسها الذي تفشى في المجتمع منذ زمن بأن مصر لم تعد وطنهم.. وأن الفساد والمحسوبية وعلى رأسهما "رأسمالية المحاسيب" قد سرقت البلاد من بين أيديهم.. وانفلتت حقوقهم من بين أصابعهم فصارت الخدمات الأساسية في حالة شديدة التدهور.. وصارت الحقوق الطبيعية للمواطن أمورًا تستوجب القتال الجدي من أجل الحصول عليها.. ساعد على ذلك أيضًا انفصال النظام عن الواقع.. وفشله في إدراك قدر السخط والضيق اللذين تراكما في نفوس المصريين في هذه الأوضاع.. واللذين امتزجا برغبة محمومة في عقاب من تسبب في ذلك.. وأمنية دفينة في استعادة حقهم في وطنهم..

هذا الاستعداد الذي كان قد وصل إليه المجتمع.. وهذه الحالة الحرجة.. هما المسئولان عن نجاح الثورة وهما اللذان يجدر الانشغال بهما.. عوضًا عن الانغماس في تفسيرات تآمرية.. تصرف عقولنا عن إدراك هذا الظرف التاريخي.. وتحرمنا من العمل على تلافي أسباب تدهور الوطن مرة أخرى في المستقبل..

* * *

أصحاب هذه النظرية لا يريدون أن يستوعبوا تواتر الأحداث.. فكلما زاد التوافق الوطني والزخم السياسي والفكري الإيجابي في مصر بعد الثورة وبعد كل

قرار ضد رمز من رموز النظام أو صدور أوامر بحبس هذا أو ذاك.. كانت المشاكل المفتعلة والاضطرابات تزيد.. ومع كل انشقاق لصف القوة الوطنية وزيادة الخلافات بينها كانت الأمور تهدأ وتأخذ طابع "اللاحدث" وهو نمط يدل على مؤامرة واضحة لإفقاد الثورة قوة دفعها..

عندما اتفقت التيارات السياسية فجأة على وثيقة الأزهر.. حدثت دعاوى الإمارة الإسلامية في سيناء واضطرابات الحدود مع سيناء دون أن نفهم حقيقة مَن الطرف الذي يمكن أن نلومه على ذلك كله.. لكن من دون شك أن عدونا لم يتحرك بهذا الشكل إلا عندما بدت بادرة الاتفاق.. عدونا الذي تعلمنا ألا وسطية في التعامل معهم: إما الحرب وإما اللافعل.. وهذا ببساطة غير دقيق!!

* * *

ليت برامج مثل "اعرف عدوك" للإذاعي الراحل "محمود عوض" تعود مرة أخرى.. لنعرف عدونا.. لا نهابه فقط.. ونخشاه فيصير "فزاعة".. نخيف بها أنفسنا ونعبث بعقولنا.. ليتنا نفهمه أكثر لنتقي مكره وندرأ خطره.. ليتنا نفهمه لنعرف كيف نتعامل معه.. إنهم يعرفون هناك كل شيء عنًّا.. ليست إذاعة راديو إسرائيل ببعيدة ولا برنامج "العم حمدان".. الذي كان يحكي - بلهجة مصرية خالصة - يوميات المدن والشوارع في مصر.. حتى المشاحنات في الأسواق وحتى آراء الناس في رفع الأسعار.. إذا كنت لا تعرف هذا البرنامج فإنك ولا بد قد سمعت عن سخرية الصحف الإسرائيلية من مشاحنات جمهوري الأهلي والإسماعيلي في دوري

2010.. وكيف أنها بدأت بشعار "في حب مصر".. وانتهت بالتراشق بالطوب.. فماذا تعرف أنت وأنا عن كرة القدم هناك أو عن أمزجة الجماهير أو عن أي شيء آخر؟

من يروِّج لنظرية المؤامرة في تفسير الثورة إذًا يحرمنا بذلك من الفهم.. ويعرضنا لتكرار التدهور.. وهذه هي المؤامرة الحقيقية.. بل دعني أخبرك بالمؤامرة الحقيقية على الثورة المصرية دون أن تهتم أنت أو أنا بتحديد الفاعل..

يأس الناس من التغيير.. استسلامنا لنظرية أنه "مفيش فايدة".. "وآدي الثورة".. إهمالنا لعوامل الحماية من أي مؤامرة وهي الموضوعية في الفكر والضمير والسلوك السليمين.. ولجوهر الدين وقيمة العمل..

هذه أيها السادة هي الثورة المضادة الحقيقية..

* * *

قيود الماضي وفكر مصر السياسي الحديث

في مجال حديثنا عن أزمة الضمير.. ذكرنا كيف يدير البعض ظهره لمبدأ الشورى والتشاور في الأمر.. ويتعمد أن يعمل – بضمير غير سليم – على تجاهل التطابق بين مبدأ الشورى ومبدأ الديمقراطية.. فوجدنا تيارات إسلامية تصف الشورى بأنها ضد الشريعة.. وتصف الديمقراطية بأنها شعار يوناني.. واختراع يحمي الشذوذ الجنسي والربا والزنا.. ويلخص ذلك كله في أمر يدعم الكفر والضلال.

إلا أنه مع مرور الوقت وبمزيد من التحليل.. نجد أن رفض الشورى ورفض الخروج على الحاكم يتطابقان في الهدف لدى هذه التيارات بشكل خفي.. يكرس لمشكلة عنيفة في الفكر الإسلامي.. بدأت منذ عصر الفتنة الكبرى.. واستمرت تثقل كاهل الفكر الإسلامي والعربي.. وهي تمتد لتصبح أزمة فكر أيضًا بجانب أزمة ضمير..

رفض الشورى من جانب التيارات الإسلامية في مصر بعد الثورة تلمحه في مظاهر الحديث عن رفض المبادئ الدستورية.. والتلميح بأن الشرع أعلى سلطة من

الدستور.. والكلام عن صاحب الشوكة.. وهو ما نعرض إليه بالتفصيل..

الديمقراطية وحق الاختيار ونظمه لها باع طويل في الفقه الإسلامي.. تدرجت تاريخيًّا فبدأت بالاتجاه نحو الاختيار من جانب أهل الحل والعقد.. وهم الصحابة المقربون من "النخبة".. وهو نمط فكري يبدو أنه ما زال مسيطرًا على تفكير الإسلاميين فهم يعتبرون أنفسهم "ورثة" هذه النخبة الشرعيين.. يمكن مشاهدة الاتجاه نحو (الاختيار) لدى أبي بكر الباقلاني (الأشعري).. وكذلك لدى الفقيهين الدستوريين الشهيرين: الماوردي (الأشعري) والفراء (الحنبلي) في كتابيهما المتشابهين في الإسم والمضمون: (الأحكام السلطانية) حيث قال الماوردي: "الإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار أهل العقد والحل".. و"إن أهل الاختيار تقوم بهم الحجة وببيعتهم تنعقد الخلافة".. بينما قال الفراء إن انعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد لا يتم إلا بجمهور أهل الحل والعقد. نلحظ هنا أنه على الرغم من كون الفراء حنبليا فإنه عبَّر بوضوح عن ميل كبير إلى الاختيار أو الإجماع.. واستند إلى رواية عن الإمام "أحمد بن حنبل" أنه قال: "الإمام الذي يجتمع عليه كلهم يقول هذا إمام". وعلق عليها قائلاً: "ظاهر هذا أنها تنعقد بجماعتهم". وهكذا قال النووي: "تنعقد الإمامة بالبيعة.. والأصح بيعة أهل الحل والعقد الذين يتيسر اجتماعهم".

* * *

وفي الحقيقة إن هذا الفكر المؤيد للاختيار كاد يقارب الفكر الإسلامي الأول

الذي كان يرفع شعار الشورى.. وربما كان يشكل امتدادًا لفكر المعتزلة عبر خلفهم الأشاعرة.. الذين أكد أحد أقطابهم وهو الماوردي أن "الإمامة حق المسلمين جميعًا.. وأنها عقد بينهم وبين الإمام". لكن اندماج الفقهاء السنة بالنظام العباسي القائم في القرن الخامس دفعهم للمزج بين نظرية الشورى أو الاختيار وبين نظرية القوة والقهر والغلبة.. وقد اضطر الماوردي للتحدث بلغتين في وقت واحد.. حيث ذهب في البداية إلى وجوب قيام أهل الاختيار بانتخاب إمام للأمة.. وضرورة تجنب الإكراه والإجبار في البيعة؛ "لأنها عقد مراضاة واختيار.. لا يدخله إكراه ولا إجبار". ورفض عقد الإمامة إلا بالرضا والاختيار.. ثم تخلى عن مبدأ الشورى.. وأخذ ينظر لشرعية "العهد" من السابق للاحق؛ حيث اعتبر العهد أحد طريقين للإمامة.. إلى جانب الاختيار.. إضافة إلى تفريغ مفهوم أهل الحل والعقد من محتواه.. بتقليص عدد أهل الشورى إلى واحد أو اثنين أو ثلاثة.. وقد اعتبر الماوردي في كتاب "أدب الدنيا والدين" السلطان القهري قاعدة من القواعد الست التي يتم بها صلاح الدنيا وانتظام أحوالها والتئام أمرها..

إن إهمال هذا التطور التاريخي المصاحب لتطور الفتوى هو إما خطأ فكري وإما ضميري قاتل.. يحجب عن الإسلاميين رؤية الظرف التاريخي المصحوب بالقهر والخوف والذي لا بد من أن يكون له تأثير في وجاهة الفتوى نفسها.. وفي ضرورة تمسكنا بالأصل في جوهرها غير "المسيس".. وهو الشورى والديمقراطية..

بدأت فكرة القهر والغلبة تتضح أكثر فأكثر في الفكر الإسلامي.. فاشترط

"أبو يعلى الفراء" مشاركة جمهور أهل الحل والعقد في صحة انعقاد الإمامة.. لكنه أضاف إلى الاختيار العهد كطريق ثانٍ.. ثم أجاز طريقًا ثالثًا هو القهر والغلبة.. ونكاد نجد الموقف نفسه لدى إمام الحرمين "عبد الملك بن عبد الله الجويني" (**419 - 478هـ**) الذي كان - على الرغم من اعتقاده أن الإمام نائب عن المسلمين أجمعين.. وأن الاختيار من أهل الحل والعقد هو المستند المعتقد.. والمعول المعتضد". - إلا أنه لم يكن يشترط رضاهم في انتخاب الإمام.. وقال: "إن بايع رجل واحد مرموق كثير الأتباع والأشياع مطاع في قوم.. وكانت بيعته تفيد ما أشرنا إليه (من الشوكة) انعقدت الإمامة".. واعتبر "الجويني" إمامة من يستولي على السلطة "بشوكته" صحيحة.. حتى إذا لم يكن منتخبًا من أحد.. فقال: "من يستبد بالاستيلاء والاستعلاء من غير نصب ممن يصح نصبه.. فإذا استظهر المرء بالعدد والعدد.. ودعا الناس إلى الطاعة.. فإن لم يكن في الزمان من يستجمع صفات أهل الاختيار.. وكان الداعي إلى اتباعه على الكمال المرعي.. فإذا استظهر بالقوة وتصدى للإمامة كان إماما حقًّا.. وهو في حكم العاقد والمعقود له".. طبعًا لا يخفى على تفكيرنا أن هذه الأطروحات - ونتناولها من باب أنها اجتهادات كما يصنفها أصحابها أنفسهم - كانت لا تخدم إلا العائلات الحاكمة.. والسلاطين والدول التي تعتمد مبدأ التوريث.. بل إن الجويني قام بالاعتراف بحكومة الأمر الواقع دون إلقاء بال لتداول السلطة أو تقييم فساد الحاكم أو حتى - في أقل مراتب الأهمية - نجاحه أو فشله إداريًّا في حكم الرعية والبلاد.. فقال: "إذا استقل فرد الزمان بعدة لا تصادم..

واستطالت يده الطولى على الممالك عرضًا وطولاً.. واستتبت الطاعة.. وأمكنت الاستطاعة.. فقيامه بمصالح أهل الإيمان بالسيف والسنان كقيام الواحد من أهل الزمان بالموعظة الحسنة باللسان".

ونجد الموقف نفسه أيضًا بدعم القهر أو الغلبة كمسوغ للحكم دون مراعاة "صلاح" الحاكم أو طرح التوافق عليه للجميع: من يملك ومن لا يملك الغلبة.. لدى "أبي حامد الغزالي" الذي يطرح نظرية "الاختيار" لكنه يعود ليفسرها ويقول إن المقصود بـ"الاختيار" ليس "اعتبار جميع الخلق بل إنما الغرض قيام شوكة الإمام بالأتباع والأشياع". ويبرر ذلك بمراعاة الصفات والشروط في السلاطين تشوفًا إلى مزايا المصالح.. وتجنب القطع ببطلان الولايات خوفًا من بطلان المصالح رأسًا.. والنظر إلى الأمر الواقع "بأن الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة.. فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الإمام".. لم يكن "الغزالي" وحده.. فقد رُوي عن الإمام "الشافعي" أنه كان يقر بشرعية كل قرشي يغلب على الخلافة بالسيف.. حتى يسمى خليفة ويجتمع الناس عليه.. كما رُوي عن أحمد بن حنبل ما يدل على أن الإمامة تثبت بالقهر والغلبة.. ولا تفتقر إلى العقد؛ حيث قال في رواية عبدوس بن مالك العطار: "ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا.. برًّا كان أو فاجرًا" وقال في رواية أبي الحرث – في الإمام يخرج عليه من يطلب الملك.. فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم –: "تكون الجمعة مع من غلب". واحتج بموقف ابن عمر الذي صلى بأهل

المدينة في زمن الحرة.. وقال: "نحن مع من غلب".

الأسوأ من ذلك.. وهو ما اتفق أيضًا مع رغبة الأمويين في توريثهم للحكم.. والكثير ممن جاءوا بعدهم واعتمدوا التوريث أو "احتكار الحكم".. أن "الغزالي" اكتفى بتعيين الإمام بواسطة شخص واحد إذا حصلت له الشوكة.. واعتبر نجاحه نصيبًا غيبيًّا من الله تعالى.. ورزقًا إلهيًّا يؤتيه من يشاء. وقال: "إن الإمامة عندنا تنعقد بالشوكة.. والشوكة تقوم بالمبايعة.. والمبايعة لا تحصل إلا بصرف الله تعالى القلوب قهرًا إلى الطاعة والموالاة. وهذا لا يقدر عليه البشر"..

هكذا أصبح صاحب الشوكة لا يرضخ لقوة فكرية أكبر من "شوكته" وهي المفترض فيها أن تكون قوة الشعب وحق الناس "جميعهم" في الاختيار.. لكن أصبحت الشوكة هي القوة العليا وصارت هي الزعامة والضمانة.. بل وتم ربطها غيبيًّا بقدرة الله وقدره اللذين لا راد لهما.. وهكذا صار من الواجب والقدر أن نُساق كالأنعام بيد من بيده القوة أو الغلبة أو الأنصار.. لا اختيار لنا ولا نسأل عن رأينا.. هكذا نفهم كيف أصبحت الديمقراطية كفرًا.. ولماذا صارت المبادئ فوق الدستورية بدعة.. ولأي غرض يرفض الإسلاميون الاندماج مع غيرهم حتى لو اتفقت الآراء.. فذلك كله: الديمقراطية والمبادئ فوق الدستورية والاندماج.. يقلل من شوكة الغلبة ويمنعهم "فقهيًّا" من فرض الرأي.. على الرغم من أن الأصل في هذا الرأي نفسه هو الاجتهاد..

اختلط أمر صاحب الشوكة بضرورة الانتساب إلى أهل الحل والعقد.. إما إلى

نسبهم وإما إلى صفاتهم.. نظن أن ذلك تم دمجه في ذهن الإسلاميين بتحريم الخروج على الحاكم المختار من هذه المواصفات بحجة تجنب الفتنة.. لأن الفتنة هنا تكون تنازعًا مع صاحب الشوكة التي لا بد أن يصاحبها في تلك الحالة عنف وإراقة دماء.. وفي خلفية الفكر لا بد أن تبرز فتنة الإمام ولا شك.. دليلنا على ذلك أن "الغزالي" اعتبر السلطة القهرية إحدى طرق الحكم الثلاث.. إضافة إلى النص والتفويض من رجل ذي شوكة.. وقال: "لو لم يكن بعد وفاة الإمام إلا قرشي واحد مطاع متبع فنهض بالإمامة وتولاها بنفسه ونشأ بشوكته وتشاغل بها واستتبع جميع الخلق لشوكته وكفايته وكان موصوفا بصفات.. قد انعقدت إمامته ووجبت طاعته فإنه تعين بحكم شوكته وكفايته وفي منازعته إثارة الفتن". وأضاف: "إن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق.. وجب تركه ووجبت الطاعة له".

* * *

وهذا ما يدل على أن التحدث عن الشورى والاختيار لم يكن جديًّا لدى عامة المفكرين والفقهاء من أهل السنة.. الذين أجازوا انتقال السلطة بواسطة العهد والنص.. والاستيلاء عليها بالقوة.. وإذا كان البعض منهم يتحدث على استحياء عن الشورى.. فإن البعض الآخر لا يشير إليها من قريب أو بعيد.. ويتحدث مباشرة عن شرعية الاستيلاء على السلطة بالقوة.. أو يكتفي باشتراط كون المتغلب من قريش.

هكذا آمن أهل السنة – بناء على اجتهاد يقبل الصواب والخطأ – بشرعية

الاستيلاء على السلطة بالقوة.. فطرحوا "الإجماع" كبديل عن الشورى.. وفرغوا شعار "الاختيار" من محتواه بحيث أصبح يشمل الأنظمة الديكتاتورية.. القائمة على القهر والغلبة.. ومن هنا قام "الشهرستاني" بإضفاء الصفة الشرعية على حكم "معاوية" وعموم الأمويين.. على الرغم من استيلائهم على السلطة بالقوة.. وقال: إن "الاختلاف في الإمامة على وجهين.. أحدهما: القول بأن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار.. والثاني: أن الإمامة تثبت بالنص والتعيين.. فمن قال إن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار قال بإمامة كل من اتفقت عليه الأمة أو جماعة معتبرة من الأمة.. وقال بإمامة معاوية وأولاده وبعده مروان وأولاده"..

ما نقوله بأنه اجتهاد يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ.. يؤيده كلام الإمام "أبي حنيفة".. الذي كان يقول إن الخلافة لا تكون إلا بإجماع المسلمين ومشورتهم.. وإن الاختيار العام للخليفة يجب أن يكون سابقًا على توليه السلطة (نظام الخلافة في الفكر الإسلامي.. مصطفى حلمي.. ص **377**).. وما ننبه إليه أن ظروف هذه الاجتهادات ربما صاحبتها رغبة في إنهاء الخلاف المهلك حول الإمامة في عصر الأمويين وربما أيضًا "خوف" ما من بطش القهر من صاحب الشوكة.. دفع الفقهاء لدرء الضرر وهو اختلاف الأمة أو الصدام العنيف.. بصفته أوجب في هذه الحالة من جلب المنفعة وهي تولية الأصلح في إطار من الاختيار السليم.. ربما كان هذا واضحًا في الرضا بأي من كان له الغلبة كأنه حل "ضروري" للخلاص من

الخلاف.. نلمح هذا بوضوح في قول "إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري".. (توفي 1277هـ) في طرق تعيين الإمام: "ثالثها: استيلاء شخص مسلم ذي شوكة.. فتغلب على الإمامة.. ولو غير أهل لها.. كصبي.. وامرأة.. وفاسق.. وجاهل.. فتنعقد إمامته لينتظم شمل المسلمين.. وتنفذ أحكامه للضرورة"..

لا أجد تعليقاً على عدم إدراكنا لهذه الظروف الخاصة.. التي صيغت فيها هذه الاجتهادات التي تدفعنا لرفض الاختيار الحر للجميع.. في زمن حر مغاير لهذا الجو الأموي البعيد.. سوى قول الشيخ "محمد رشيد رضا": "إذا ظل المسلمون على هذه الحالة فلا إمامة ولا إمام.. وقد آن لهم أن يفهموا أن جعل أحكام الضرورة في خلافة المتغلب أصلاً ثابتًا دائمًا هو الذي هدم بناء الإمامة.. وذهب بسلطة الأمة المعبر عنها بالجماعة.. وترتب عليه تفرق الكلمة.. وضعف الدين والدولة.. وظهور البدع على السنة. وقد انقلب الوضع وعمَّ الجهل.. حتى صار الألوف من كبار حكام المسلمين وقوادهم وزعمائهم في دنياهم يظنون في هذا العصر أن منصب الخلافة وغيره من أحكام الإسلام هي سبب ضعف المسلمين وأنه لا تقوم لهم بها قائمة.. ولا يكونون مع التزامها أمة عزيزة غنية – والأمر بالضد" (رشيد رضا.. الخلافة أو الإمامة الكبرى.. ص 96).

على أن الدليل على اقتناع قادة الإسلاميين بفكرة صاحب الشوكة.. ووجوب عدم الخروج عليه.. جاء في التصريح الذي جاء نصه في صفحة الشيخ محمود عامر –

رئيس جمعية أنصار السنة بالإسكندرية - يوم 13 فبراير 2011 أي بعد تنحي مبارك بيومين فقط. جاء في التصريح ما يلي:

ما الموقف الشرعي بعد تنحي الرئيس؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

إن نصوص الكتاب والسنة فيها نبأ من قبلنا ونبأ من بعدنا وحكم ما بيننا.. والسائر مع تلك النصوص في أمان قلبي ونجاة في الآخرة يرجى له أن يشرب الشربة التي لا يظمأ بعدها أبدًا من حوض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما سبق ذكره من مقالات كثيرة وكتب قليلة بينت فيه السنة ما كان وما هو كائن وما سيكون فقه ذلك من رحم وجهل ذلك من حرم.. فالحمد لله على نعمة السنة واتباع أهلها.

فالوضع الآن هو تخلي الإمام عن رئاسته للبلاد للمجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية.. فماذا يكون موقفنا؟ إن الأصل أن الإمام شخص واحد مسلم متغلب صاحب شوكة وقوة تمكنه من السيطرة على البلاد.. والآن نحن أمام مجلس من عدة أشخاص يتولون إدارة البلاد.. فالذي أفهمه من النصوص التي بين أيدينا والذي ترجحه المصلحة الشرعية أن يلتزم أهل السنة قرارات المجلس الأعلى للقوات المسلحة ولا يلتزموا بغيرها أيًا ما كان مصدر هذه القرارات.. سواء من جماعات أو هيئات أو غيرها.. فإن الشوكة الظاهرة الآن هي شوكة الجيش وقيادته.. وعليه فمصدر الأوامر لأهل السنة في هذا الوقت هو المجلس الأعلى للقوات المسلحة.. ولا

يجوز مخالفتها أو الخروج عليها ما دامت لا تحث على معصية منصوص عليها صراحة في الكتاب أو السنة الثابتة.. وينبغي على أهل السنة أن يكفوا عن مناقشة أي مخالف في هذه الأيام ولا يفتحوا مجالات للجدال؛ لأن الغالب في الناس الآن اتباع الهوى والدليل على ذلك أن جميع المتكلمين في هذا الحدث المصري من المنتسبين للشريعة لم يتكلموا بالشريعة بل تكلموا بما تكلم به الثوار.. فلم نسمع من الجماعات الدينية التي خرجت في المظاهرات مطالبات بالشريعة أو بردِّ الأمر في النزاع القائم إلى الكتاب والسنة التزاما بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا) [النساء: 59].. وبناء على ذلك أنصح كل إخواني الذين صبروا وصابروا على السنة في عدم الخروج على الحكام الإنكار بقلوبهم والصبر على ما هم عليه وعدم مناقشة أهل الأهواء.. ويستمر التزامنا بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة حتى ينصب إمام جديد واعتزال كل الفرق حتى يتم هذا التنصيب وهذا فهمي للنصوص التي وردت في شأن لزوم جماعة المسلمين وإمامهم.

الشيخ محمود عامر

* * *

ونلحظ بعد ذلك بداية تغلب نظرية التنوير الإسلامي السياسي التي استمرت لفترة شديدة القصر في تاريخ الإسلام.. واقترنت باسم "غيلان الدمشقي"..

الثائر العربي والمناضل السياسي التاريخي الذي أهال عليه حكماؤنا العرب وإعلامنا الإسلامي التراب.. ربما بالوسيلة نفسها التي يحاولون بها الآن تشويه الثورة وتصويرها بأنها في يناير 2011 لم تستمر سوى ثلاثة أيام اختفى بعدها الثوار وحل محلهم البلطجية.. واختزال الثورة في مجرمين هاجموا الأقسام ولقوا جزاءهم وشرطة مسالمة لم تفعل شيئًا.. وأشرطة سجلها الجهاز المنوط به الذود عن أمن مصر وجمع المعلومات عنها.. ثم مسحها دون قصد.. ففقدنا صفحة مهمة من تاريخنا ويفلت الفاعل من فعلته.. شيء من ذلك يتعرض له غيلان الدمشقي في التاريخ.

كان غيلان الدمشقي أحد أبرز حملة لواء العقل والحرية والعدالة.. ومن أشد المدافعين عن حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله.. ومن أهم منظري الفكر السياسي في التاريخ الإسلامي.. الذين أسسوا للفكر الديمقراطي ودافعوا عنه بقوة.. وأثارت اجتهاداته وآراؤه مخاوف الحكام والولاة فاتهموه باتباع الفرق الضالة والإلحاد ودفع حياته ثمنًا لذلك.

وُلد غيلان بن مسلم – وقيل ابن مروان أو ابن يونس – سنة 106هـ 724م.. أصله مصري.. وكان أبوه من موالي عثمان بن عفان.. درس الفقه على الحسن البصري واشتهر في الشام كصاحب أشهر فرقة من فرق المتكلمين المسلمين وكانت تسمى "الغيلانية" نسبة إليه تقول إن الإنسان حر مختار في أفعاله.. وكان غيلان وفرقته من أوائل الذين أظهروا هذا المذهب.. وعارضوا الجبر والجبرية في

عاصمة الدولة الأموية دمشق.

وكان "الجبر والجبرية" المذهب الذي يشجعه خلفاء بني أمية.. لأنه يعفيهم أمام الناس من المسئولية عن المتغيرات التي أحدثوها في نظام الحكم الإسلامي.. فكان غيلان من قادة المعارضة السياسية والفكرية للأمويين.. وينتقد سياسات الحكام والدولة الأموية الاجتماعية والاقتصادية والمالية.. فضلاً عن عقيدتهم الجبرية المعادية للحرية.. التي كانت تتأسس عليها شرعيتها.. ويهاجم طريقة حكمهم وتسلطهم على الناس وحياة البذخ التي كانوا يعيشون فيها على غرار أكاسرة الفرس وأباطرة الروم.

كان "غيلان" يقود المعارضة ضد الأمويين في الشام.. وكان ينتقد الدولة الأموية وسياساتها الاجتماعية والاقتصادية والمالية.. فضلاً عن عقيدتها الجبرية المعادية للحرية.. التي كانت تتأسس عليها شرعيتها.. لذلك كان غيلان من أشد المدافعين عن حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله (وهو ما كان الأمويون ومعهم أصحاب الحديث يحاولون التهرب منه).. وهو ما جعله يتبنى وجهة نظر ديمقراطية في قضية الحكم.. ففي الوقت الذي كان فيه الجميع يشترطون "القرشية" للحكم.. كان "غيلان" يرفضها.. فهي عنده ليست شرطاً للإمامة.. بل تصلح لغير قريش.. وكل من كان قائمًا بكتاب الله والسنة كان مستحقاً لها.. وهي لا تثبت إلا بإجماع الأمة.

إننا هنا أمام بوادر الفكر الديمقراطي.. فغيلان يرفض احتكار السلطة من طرف فئة واحدة (قريش).. كما أنه يجعل الشعب مصدر السلطة (وهو أساس فكرة الديمقراطية) مشترطًا إجماع الناس واختيارهم الحر لتولي الحاكم.. كما أنه يعتبره تعاقدًا على أساس الكتاب والسنة.. وبالتالي يجوز للناس خلع الحاكم حينما يخل بشروط التعاقد السياسي.. وعلى رأسها العدل. وهو مفهوم استمده غيلان من نظريته عن العدل الإلهي الذي يقتضي "أن الله تعالى لو عفا عن عاصٍ يوم القيامة عفا عن مؤمن عاصٍ هو في مثل حاله.. وإن أخرج من النار واحدًا أخرج من هو في مثل حاله". وهذا المفهوم عن العدل الإلهي لم يحظَ بترحيب الحكام الأمويين الذين وجدوا من أهل الحديث من يروي لهم الروايات في أن الخلفاء لا يحاسبون يوم القيامة مهما اقترفوا من الذنوب والمعاصي.. وأنهم ليسوا من طينة الرعية.. فكان "الوليد بن عبد الملك" يقول: "لا ينبغي لخليفة أن يناشد أو يكذب ولا يسميه أحد باسمه".

لقد كانت اعتراضات "غيلان الدمشقي" على السياسة المالية للأمويين من الجذرية إلى درجة التحريض على الثورة.. وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة التجأ إلى غيلان لإعانته على تطبيق إصلاحاته السياسية والاقتصادية (التي كانت وراء وصفه بالخليفة العادل وخامس الخلفاء الراشدين) على الرغم من أنه لم يتبنَّ أفكاره.. وتنقل لنا المصادر التاريخية رسالة من غيلان إلى عمر بن عبد العزيز أرسلها له بعد أن أحس منه التهاون في تطبيق إصلاحاته تحت ضغط أبناء عمومته

من الأرستقراطية الأموية.. ويدافع غيلان في رسالته تلك عن حرية الإنسان والعدالة الإلهية التي تستلزم العدالة الإنسانية.. مستخدمًا في سبيل ذلك منهجًا عقليًّا في الاستدلال والاحتجاج.. فيقول: "أبصرت يا عمر وما كدت ونظرت وما كدت.. اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقًا باليًا ورسمًا عافيًا.. فيا ميت بين الأموات ألا ترى أثرًا فتتبع ولا تسمع صوتًا فتنتفع؟ طفا أمر السنة وظهر البدعة.. أخيف العالم فلا يتكلم (قمع حرية التعبير) ولا يعطى الجاهل فيسأل (لا يسمح له بالسؤال عما يجهل) وربما نجت الأمة بالإمام.. فانظر أي الإمامين أنت (العادل أم الجائر) فإنه تعالى لا يقول تعالوا إلى النار.. إذًا لا يتبعه أحد ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله.. فهل يا عمر وجدت حكيمًا (يقصد الله) يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب أو يعذب على ما قضى أو يقضي بما يعذب عليه.. أم هل وجدت رحيمًا يكلف العباد فوق طاقتهم أو يعذبهم على الطاعة.. أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟ وهل وجدت صادقًا يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم؟ كفى ببيان هذا بيانًا وبالعمى عنه عمى". وعندما عرض عليه "عمر" إسناد وظيفة إليه.. طلب أن يتولى "بيع الخزائن ورد المظالم" وهو اختيار له مغزاه.. إنه لم يختر لا الولاية ولا القضاء.. بل اختار وظيفة ليس فيها مكاسب.. وإنما رد المظالم.. أي إنصاف الذين ظلمهم الولاة والقضاة.. وكان منصبه هذا وراء قتله.. حيث تحكي المصادر أنه وقف حين ولاه عمر بيع الخزائن ورد المظالم يقول: "تعالوا إلى متاع الخونة (يقصد الحكام الأمويين) تعالوا إلى متاع الظلمة.. تعالوا إلى متاع من خلف

رسول الله في أمته بغير سنته وسيرته.. وكان فيما نادى عليه جوارب خز (حرير) فبلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم وقد ائتكل بعضها فقال غيلان: من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى وهذا يأتكل والناس يموتون من الجوع؟ فمر به هشام بن عبد الملك (الذي سيصبح خليفة بعد اغتيال عمر بن عبد العزيز).. فقال: هذا يعيبني ويعيب آبائي.. والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه".

* * *

إذًا فالتحزب والتحيز مرة أخرى لفكرة "صاحب الشوكة" أو الغلبة في الحكم.. هو السمة الحقيقية لرفض فكرة المبادئ فوق الدستورية.. لرغبة هؤلاء في عدم وجود قيود عليهم.. باعتبارهم "أصحاب الشوكة" الذين أجمع عليهم أهل الحل والعقد من البرلمان وغيره.. وهو السر وراء رفض "الديمقراطية" لأنها آلية قد تعرض "صاحب الشوكة" أن يصبح مادة للنقاش حول وجاهته.. وحول أحقيته في تمرير القرارات.. أو الاستئثار بالفصل في الأمور المهمة.. الديمقراطية - التي هي تطوير لفكر الشورى - تصبح بذلك مضادًّا لفكرة الإمامة أو الخلافة.. "صاحب الشوكة" لا يؤمن بـ"غيلان الدمشقي".. ويرى أنه قد كافح طويلاً وخرج بعد فتاوى واجتهادات كثيرة.. تبيح له الانفراد بالأمر من الجهة الشرعية.. وهو على غير استعداد للتنازل عن ذلك.. بل ويفتح لنفسه باب الإمامة بالغلبة دون اختيار الناس له.. بزعم الصلاح في الولاية فيما بعد.. فهل هو كثير علينا أن نستنجد بعلمائنا الأفاضل ليدلوا بدلوهم في هذا الأمر.. فلربما ينتصرون للإسلام السياسي المستنير..

الذي هو يستقيم منطقيًّا وعقلانيًّا بأفضل مما تفعل فتاوى "صاحب الشوكة"؟

لكن لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة لقيود الماضي كيف تشكل فكرنا السياسي الحديث.. وإنما نناقش مشكلة أخطر في الفصل المقبل.. حيث نتعرض لفكرة الفتنة في الفكر الإسلامي والمصري..

* * *

لماذا ينحصر تفكيرنا في هذه الأطروحات للفكر الإسلامي السياسي.. التي – بلا شك – نقبل أطروحتها الأولية.. التي تتركز حول كون الإسلام نظام حياة يصلح للتطبيق على كل مناحي الحياة وأوجهها ونشاطاتها.. وبالتالي فلا فاصل حقيقيًّا بين الإسلام والتطبيق السياسي له.. لكننا نجد أنفسنا لسنا بالحماس نفسه من تقبل الأطروحة التالية.. وهي تلخص هذا التطبيق في الاختيار بين فتاوى تدعم نظرية "صاحب الشوكة".. وأخرى تطرحها بشكل مختلف.. وثالثة ترفضها في صورتها الأولية وتعيد إنتاجها بشكل جديد.. بل إن السؤال هنا يتركز حول السبب في عدم طرح نظرية الإسلام السياسي التنويري.. التي تحمس لها "غيلان الدمشقي" وطبقها في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنًا؟

في محاولة للإجابة عن هذا السؤال ننظر إلى أوروبا.. التي كانت تزخر أيضًا بالممالك والعائلات التي يورث فيها الحكم.. شأن الأمويين والعباسيين.. لكنه بينما ظلت الخلافة الإسلامية سواء المركزية منها أو الإمارات التي تحولت إلى دول

فيما بعد.. ظلت كلها متمسكة بنظم التوريث ونظرية الاقتتال على الحكم.. سواء بالهيبة أو القبلية أو السلاح.. أو بنظرية "صاحب الشوكة".. نجد أن أوروبا تخلصت من ذلك من زمن طويل: أدخلت الشورى في شكل الديمقراطية.. كما رسخت نظم الانتخابات الحرة.. والاختيار المباشر وتعدد الآراء.. وتداول السلطة.. منذ زمن طويل.. واشترك الناس جميعهم بالفعل في الاختيار.. ونزعم أن سبب ترسيخ المشكلة عندنا هو عاملان: القبلية والتعصب الديني!!

تقوم معظم الدول العربية والإسلامية في المنطقة على وجود توازنات بين القبائل المختلفة: إما أن يتم تداول للسلطة بين قبيلتين كبيرتين.. كما كان سائدًا في الكويت أو البحرين مثلاً.. وإما أن ترتضي القبائل سيطرة إحداها على الحكم مثل "القذاذفة" في ليبيا التي كان ينتمي إليها معمر القذافي ومثل قبائل اليمن المتناحرة.. يقوم الحكم في تلك البلاد على سيادة قبيلة على الأخريات.. ووجود توازن للقوى بشكل معين.. بحكم التاريخ والأعراف.. لذلك فلا عجب أن تجد الحكم في تلك البلاد يورَّث لأبناء القبيلة.. سواء منهم من تجمعهم صلة قرابة الدم المباشر.. أو المصاهرة.. أو الانتماء بالنسب.. ونجد أن الصراع هنا يعتمد بالأساس على تلك القواعد.. حتى لو تم تصدير أفكار أخرى للشعوب بغرض "الاستهلاك المحلي" كما يطلق عليه.. وهي أفكار اعتمدت للأسف على شكل الفهم السني الإسلامي لفكرة الحاكم.. وحرمة الخروج عليه.. ونظرية "صاحب الشوكة" و"قدرية" الحكم.. مع إهالة التراب على أي نظرية أخرى تحمل طابع التنوير السياسي.. بحجة "الخروج

على الإجماع والمبايعة".. وفكرة التمرد على ما تريده الجماعة.. على الرغم من أن الطرح لا يكون كاملاً إلا بإعطاء الحرية لكل من يرى في نفسه قدرة وصلاحًا للحكم.. في أن يرشح نفسه للعامة.. فيختارون من بينهم من يرونه صالحاً لحال البلاد..

لكن كيف سادت فكرة القبلية في مصر أيضًا.. فاتخذت شكلاً مغايرًا.. لكنه يعتمد الروح ويسير نفسها على المنوال نفسه؟

نعم.. فعلى الرغم من أن القبلية كفكر ليست سائدة في طول مصر وعرضها.. إنما تتركز في بؤر بعينها في الصعيد وبدو سيناء وبدو مطروح.. وهي أطراف متباعدة.. وغير مشتركة في صلة دم أو نسب قاهرة رابطة جامعة.. فإن فكرة القبلية تم الاستبدال بها في مصر فكرة "التيارات".. ففي البدء بعد ثورة يوليو ساد تيار الجيش الذي سيطر على الحكم بالاستقواء بالقوة المسلحة.. مع تقبل الناس لسيطرة العسكر إبان فترة بعد يوليو 1952.. واستمرارًا لستين عامًا كاملة.. اختلفت فيها الأسباب.. واشتركت المخرجات.. أما في مصر بعد يناير فتنوعت التيارات أيضًا.. واختلفت على المسرح السياسي.. لكنها تعاملت مع أتباعها.. أو تعامل أتباعها معها بمبدأ القبلية نفسه.. أو البحث عن "العزوة" والاستقواء.. وهي مبادئ وأفكار متأصلة في التفكير المصري منذ زمن طويل.. خاصة في الريف؛ حيث يزخر المجتمع بالعائلات الكبيرة.. التي تسعى لفرض سيطرتها على أكبر قطاع من بيئتها المحيطة سواء بالعدد أو المال أو سلطة امتلاك الأرض.. لكن يبقى دائمًا في فكر

هؤلاء – كما هو في فكر التيارات المصرية الحديثة – يبقى العامل الأهم في الاستقواء أو العزوة هو العامل البشري.. من أفراد يحملون قناعة التيار ويدافعون عنه بشراسة واستبسال.. وهذا الوصف الأخير يقودنا إلى نقطة أخرى مهمة في فكر هؤلاء المدافعين أو المتحزبين لهذه التيارات.. وهو التعصب لفكر التيار بشكل يكاد يماثل التعصب الرياضي الأعمى.. هذا للأسف هو فارق كبير بين التجارب الأوروبية المتفتحة في تعدد الأحزاب والتجربة الإسلامية أو العربية.. أو أحدث تجارب المنطقة.. ونعني بها التجربة المصرية..

فالناس في أوروبا لا يتعصبون لحزب لمجرد الانتماء له.. أو الدفاع عنه.. ظالمًا كان أو مظلومًا.. فليس الأمر بدفاع عن أخ أو أب أو أم.. لكنه انحياز موضوعي.. مبني على نظرة تضع مصلحة الوطن ومصلحة الفرد على قدم سواء.. وتبحث عمن يقترب من تنفيذها والاضطلاع بأعبائها بنجاح بنظرة "براجماتية" لا تضع انتماء الشخص الوسيط – المنوط به أن ينفذ هذه الأهداف – في اعتبارها بقدر ما تضع قدرة ووجاهة آلياته على تنفيذها نصب أعينها..

أما في مصر فالتحزب لكل تيار صار بالفعل قبليًّا.. يسعى فقط لتعميق نظرية "صاحب الشوكة".. حتى لمن لا يعلم عنها في قرارة نفسه شيئًا.. وحتى لمن يرفع في العلن شعار الديمقراطية وحرية الاختيار وتولية الأصلح.. فهو في حقيقة أفعاله لا يدعم سوى تأجيج صراع المنافسة.. التي تحسم الصراع لمن له عزوة أعلى

شأنًا وأكثر عددًا..

هذا التعصب نجد مثالاً صارخًا عليه للأسف: هم الإسلاميون على اختلاف انتماءاتهم.. فالدين أساس حياة ولا شك في ذلك.. لكن اختزال ألوان الحياة في لونين: الأبيض.. ويرمز للدين.. والأسود ويرمز لكل ما عدا ذلك.. هو طريق ومنهج يهمل حقيقة وجود اللون الرمادي.. الذي لا بد أن رماديته قد استمدت من خليط من اللونين.. بذلك يهمل الإسلاميون وجاهة بعض الأفكار التي تطرحها التيارات الأخرى بحجة أنها "مخالفة للدين".. على الرغم من أن قليلاً من العقل والحوار يقود في كثير من الأحيان إلى الاتفاق لوحدة الفكرة.. ونبذ الخلاف بين الطرفين: حدث ذلك في الخلافات بين الإخوان والليبراليين على بعض بنود وثيقة مبادئ حقوق الإنسان.. مما دعا المذيعة منى الشاذلي إلى سرعة إنهاء البرنامج خوفاً من أن يختلفا مرة أخرى كما عبرت هي في فكاهة!!

* * *

من ذلك التعصب الذي جاء تابعًا لمبدأ القبلية أو العزوة نجد الكثير من التيارات الدينية تقدم آراءها على أنها أحكام دينية.. وترفض الاستماع لأي رأي مختلف.. أو إعطاءه فرصة التقييم هل يتفق مع الحكم الديني أم لا.. من ذلك أيضًا: رفض مبدأ الدولة المدنية.. والمغالاة في رفض التغيير في هيئة شعارات عنيفة صاخبة متوترة أشهرها شعار "إسلامية لا مدنية ولا علمانية".. وصم الآذان عن عشرات المقالات والبرامج التي حاولت توضيح عدم تعارض الدولة الإسلامية مع الدولة

المدنية.. وأن الإسلام دين ليبرالي.. يحث على إقامة الدولة المدنية.. وكيف أن دعاة الدولة المدنية يصرون على ما ليس به شطط من قواعد المدنية.. وما ليس به فجور ومغالاة العلمانية.. بدلاً من الإنصات لهؤلاء.. نجد إصرارًا ملحوظًا على رفض تعبير أو مصطلح "المدنية" ومحاولات مستميتة لإلصاقه بالعلمانية.. ومحاولات تقديم الاثنين معًا على أنهما كفر وإلحاد.. وعلى أن هذا هو هدف المنادين بها.. من منطلق أن التعبيرين يتعارضان مع مفهوم الدولة الدينية التي هي "حكم ديني" يتمحور حول تطبيق الشريعة.. ونجد من ناحية أخرى مثلاً رفضًا مستميتًا وتلويحاً بالعنف في حال إقرار المبادئ فوق الدستورية.. باعتبارها ضد فكرة تطبيق الشرع.. دون النظر لفحوى هذه المبادئ.. أو إعطائها ميزة النقاش والتمحيص.. لعلها لا تتعارض مع حكم الدين في شيء..

هي كلها ترسيخ لفكرة "صاحب الشوكة" الذي يجب ألا يسلب حقه في إدارة البلاد.. بما هو دون شرع الله.. فلا يسلب حقه مبدأ فوق دستوري.. ولا انتخابات حرة يترك للناس فيها التفكير بحرية في اختيارهم.. دون تكفيرهم إذا اختاروا مدنية أو علمانية.. ولا تسلب حقه ديمقراطية ما.. تجعل الناس يختارون غير صاحب الشوكة فتصير "فتنة"..

هذا هو السبب إذًا..

قيود فكرية ثقيلة.. توجهنا نحو أن ندير ظهورنا بإرادتنا للتنوير الفكري

السياسي.. الذي اخترعناه نحن ووجدنا له نصوصًا تؤيده من الكتاب والدين.. فاتبعه غيرنا.. وظللنا نحن ندور في دوائر الضلال والظلام والفساد.. وأناس دأبت ثقافاتهم على ترسيخ مبدأ القبلية والتعصب للدين والعزوة دون تفكير..

هذا هو السبب في أننا نسينا "غيلان الدمشقي"..

هذا هو السبب في أننا ندور حول أنفسنا.. نشتغل بمن يكسب ود من.. ولا ننشغل أبدًا بماذا يفعل هذا وذاك بعد أن يكسب هذا الود..

وهذا هو السبب في أننا صرنا دولاً وبلادًا.. عمتها آثار الظلم والمحسوبية والفساد..

* * *

والحل..

الإعلام المستنير.. التطبيق الحقيقي للدين المستنير.. والديمقراطية الحقيقية..

والكلام دائمًا سهل!!

* * *

الفتنة: دمتم ثائرين!

الانتشار الواسع لكلمة "فتنـة".. وتـداول اسـتخدامها في مـصر لوصـف أي خلاف طائفي.. أمر اعتدنا عليه منذ سنوات.. لكن الجديد هو استخدامها في وصف الاستقطاب السياسي والعقائدي والفكري الحادث منذ اندلاع ثورة يناير.. فما بـين الرفض والتأييد ظهر مرة أخرى تعبير الفتنـة.. بـل وأدى انتـشار هـذا المفهـوم إلى قناعة البعض بأن ما تمر به مصر بعد الثورة من عـدم اسـتقرار.. وضـعف رؤيـة في بعض الأمور والأحيان.. إنما منشؤه أن الأمر برمته.. ونقصد هنا "الثـورة".. هـو في الأصل "فتنة".. ومن ثَمَّ فهذه هي نتائجه وتوابعه الضرورية.. أو قُل: القدرية التي تكاد تكون "عقابًا" نستحقه.. حتى امتد توصيف "الفتنة" إلى الخلاف بين التيارات السياسية علـى كـل شـيء وأي شـيء.. ففوجئنـا أن "الدسـتور أم الانتخابـات أولاً" فتنة.. وأن "الدولة المدنية أم الإسلامية" فتنة.. حتى الانفلات الأمني فتنـة.. لكـن يظل المتهم الأكبر بالفتنة هو حدث الثورة نفسه.. الذي ربمـا "يرتـاح" الـبعض إلى توصيفه في هذه الخانـة.. وبالتالي يبنون على ذلك التوصيف كل ما تـلاه مـن تخـبط

وعشوائية في البلاد.. هذا هو الذي نناقشه هنا.. هذا هو الأجدر بطرحه حتى "نستريح" فعلاً.. هل كانت "الثورة" أو اسم الدلع كما يقولون وهو "الخروج على الحاكم" حقاً فتنة.. وبالتالي فنحن كمصريين "نستاهل" ما يحدث لنا؟

* * *

للإجابة عن هذا السؤال نطرح تساؤلاً أعمق.. نبدأ بفرضية بسيطة: لنفرض أن الثورة كانت فتنة بالفعل.. فمن حقنا في هذه الحالة أن نفهم ذلك أكثر.. ويصير سؤالنا الذي نريد الإجابة عنه حقاً هو: هل يختلف تعريف الفتنة وتوصيفها بكونها مبنية على الفعل نفسه الذي نصفه بالفتنة.. أم أن تعريفها مرتبط بالمخرجات منها.. والحوادث التي تنتج عن العمل نفسه؟ بمعنى آخر: هل كان الانقسام إلى مؤيد ومعارض للثورة كمظهر من مظاهر فتنة ثورة يناير يصم عمل الخروج للشارع نفسه بالفتنة.. أم يصم نتائج الثورة (أيًّا ما كانت) بالفتنة؟ وبتعبير إنجليزي نوضح هل الفتنة هي **Action based** أم هي **Outcome based**؟

الإجابة عن السؤال السابق تبدو ضرورية في ظل واقع الجدل الفكري السائد في مصر بعد الثورة.. فالتغيير الذي حدث كان كبيرًا وضخمًا.. لم تخرج الثورة للاعتراض على قانون معين أو تشريع ما.. بل خرجت لإسقاط نظام كامل.. ظنت في بادئ الأمر أن رأسه ومن استوزرهم هم المشكلة.. فإذا بنا وبمرور الزمن نكتشف أن آثار فساده ضاربة في طبقات مجتمعية ومؤسسات كاملة.. مما يستلزم أن يتوسع التغيير ليشمل أسماء كثيرة ومناصب كثيرة.. وأن تصل الثورة إلى أركان الوطن

ونفوس أصحابه.. وبات واضحًا أن هذا التغيير لا يكفيه الأيام الثمانية عشر التي استغرقها سقوط رأس النظام.. ولا يتم في يوم وليلة.. وهنا ظهر الصابرون على التغيير والمقتنعون بجدارته وقيمته لرفعة الأمة.. وبالتالي وجاهة الصبر على آثاره الجانبية التي استلهمها من جو الحرية الجديد علينا.. والتي أسهمت أزمات الشخصية المصرية في الإسهام فيها.. من لغط فكري.. وخلاف عقائدي.. وتضارب الآراء مع المصالح.. وتنازع الفائدة الشخصية مع الفائدة العامة.. وغياب الرؤية السلمية والنية الصادقة عن بعض الأطراف.. ووجوب انتقال الثورة في بعض مراحلها من "ميدان الواقع" إلى "ميدان الفكر" وساحة النقاش التي تتضح معها معالم الطريق ببطء.. ولكن بفاعلية..

كما ظهر "غير هؤلاء الصابرين" قطاع كبير ممن هالهم هذا المهرجان المختلف ألوانه.. والذي يزخر بكل صفوف الفكر والضجيج المعنوي.. وجزعت نفوسهم من غياب الاستقرار.. سواء ذلك الأمني أو النفسي لشيوع تعبير "المرحلة الانتقالية".. بما حمله بالإيحاء بحكومات غير مستقرة.. ووطن بلا سلطة تشريعية ولا تنفيذية ولا رئيس.. وهي كلها أمور من مستلزمات شيوع شعور "الأمان" لدى قطاع كبير من المصريين.. تعود على وجود قيادة ثابتة وحكومة مستقرة.. ولم يتعود – بالقدر نفسه – على مستلزمات مرحلة تغيير تلك القيادة أو الحكومة.. أو استبدال بديل أفضل بها وأصدق تعبيرًا عن الوطن وآماله والأمة وأحلامها.. فأصبحت المقايضة في فكر هذا القطاع الأوسع من المصريين بين ماضٍ قريب كان – بكل مساوئه – لا

يحمل شعور "افتقاد الأمان".. ومستقبل مجهول يتطلب "استحضاره" احتمال وقت من الضيق والشدة.. يبدو غير محدد بزمان.. ولا مقيد بشكل زمني واضح!!

المخرج النفسي لهذا القطاع العريض من هذا الإحساس وهذه "المقايضة" كان بالتحيز لزمن من الزمنين: الماضي الفاسد باستقراره.. أو المستقبل المرجو بغموضه.. تحيز أغلب هؤلاء للاختيار الثالث.. الذي بدا أكثر راحة من غيره.. في ظل عدم منطقية التحيز لماضٍ فاسد وصعوبة الصبر على انتظار مستقبل مجهول.. هذا الاختيار الثالث كان هو التساؤل بشأن جدوى الحدث الفارق بين الزمنين.. وهل كانت "الثورة" بالفعل ضرورية.. لتنقلب أوضاع العمل والرزق ولتتبدل حالة الأمان (حتى لو كان هشًّا)؟

خرجت من ذلك التساؤل مواقف كثيرة.. عبر عنها الكثيرون ممن تعرفهم وأعرفهم بجمل شهيرة.. صارت كالعلامات على فترة مصر بعد الثورة.. منها ما يحمل استنكارًا للثورة.. كلما رأى آثارها الجانبية وبطء التغيير معها.. ومنها ما يحمل استهجانًا لمن قاموا بها وحماسًا لإلصاق تهم العمالة والتخوين أو عدم الجدية بهم.. ومنها بالطبع ما يحمل وصفًا لما يحدث.. ولشرارة الثورة نفسها بأنها كانت "فتنة".. وبالتالي فكل ما نعانيه الآن طبيعي.. بل والأسوأ هو اقتناع قدري لدى هؤلاء بأن هذا سيطول لأننا "نستحق ذلك".. طالما سمحنا به منذ البداية..

هنا نجد لزامًا علينا أن نتعقب تاريخ منشأ هذا التعبير "الفتنة" لا من أين

نشأ تاريخيًّا.. فالفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي معروفة.. ولا يتسع المجال لمناقشتها بأوسع ولا أعمق مما نوقشت به في كتب تزخر بها المكتبة العربية.. لكننا نناقش هنا: كيف وبأي منطق تم تطبيق هذا التعبير على الثورة المصرية.. كما نحاول استيضاح شرعية العقلية الدينية في هذا الإطار المحدد.

* * *

أول من نادى بأن الثورة المصرية هي "فتنة" بدليل حرمة الخروج على الحاكم هو الجماعة السلفية في مصر.. وعلى رأسهم الشيخ "محمد حسان".. امتد الأمر إلى بعض الدعاة الآخرين.. وإلى شيخ الأزهر نفسه.. الذي وصف ما يحدث من مظاهرات إبان يناير بـ"الفتنة".. وتردد بقوة حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي حرم الخروج على الحاكم: "ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك"..

نحن هنا لسنا بصدد خلاف فقهي.. وإنما بصدد إبداء ملاحظة بسيطة.. هي أن الخروج المقصود كما ورد في الأسانيد على اختلافها كان يشير إلى الخروج المسلح.. أو الخروج بالسيف.. وهو أمر لم يكن موجودًا في ميادين مصر.. فلم يخرج الثوار مسلحين.. وأعتى المعارضين للثورة لا يستطيع أن يدعي ذلك.. حتى لو طرحت مشاهد المولوتوف والحجارة أمام مدرعات الشرطة.. ومشاهد إحراق الأقسام للنقاش.. فالكل يعلم أنها لم تكن فعلاً بقدر ما كانت ردًّا للفعل.. وحتى لو تجادلنا حول الهجوم على أقسام الشرطة فهوية هؤلاء يثور خلاف على أنها ليست للثوار.. الذين نقلت كاميرات الميادين لقطات لهم وهم يمسكون ببلطجية الأقسام.. ويبرزون

هوياتهم المنتمية للشرطة أو الحزب الوطني المنحل..

كيف تطورت الفكرة من تحريم الخروج المسلح - وهو الأصل في أطروحة الفتنة المثيرة للجدل أصلاً - إلى تحريم مخالفة الحاكم أو الاعتراض عليه جملة وتفصيلاً؟ ففي زمان سابق ينتمي بكل تأكيد إلى قلب الإسلام وعزته.. وقف أعرابي يجيب عن سؤال رمز عظيم من رموز السلفية قائلاً: "والله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناك بسيوفنا".. فإذا بالفاروق يقول في ارتياح لا بد أنه صاحب كلماته: "الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوِّم عمر بالسيف"!!

كيف تطورت الفكرة إلى إسقاطها - بكل ما تحمله أصلاً من جدل حولها - إلى الخروج "غير المسلح".. الذي يحمل في طياته الاعتراض على الظلم.. يقوم به من يطالب بكل ما يطالب به الدين والمنطق والإنسانية: "تغيير - حرية - عدالة اجتماعية"؟ كيف نربط بين مقتل عثمان - رضي الله عنه - واحتشاد الآلاف يطالبون بمطالب سلمية منها إقالة وزير الداخلية.. والتمسك بالعدل في الحقوق وإيقاف انتهاكات الشرطة؟ فلما لم يتم الاستماع إليهم بل ومهاجمتهم طالب الملايين برحيل النظام.. بينما لا مشكلة ولا حفيظة لدينا من المظالم التي سافر أهل مصر لعرضها على الخليفة عثمان نفسه.. لا نعتبر هذه اللقطة فتنة.. ولا يأتي ذكر هذا المشهد بأي حال.. لكن يبدو أن بعضنا على الرغم من ذلك لديه مشكلة ما في استيعاب مشهد الثورة.. على الرغم من أنه يكاد يتطابق مع مشهد تقديم مظالم أهل مصر من واليهم إلى الخليفة..

ملاحظة أخرى على رأي فقهي آخر: بعض الفقهاء أحلوا الخروج على الحكام بشرط توافر "الغلبة".. يثير ذلك تساؤلاً مشروعًا عن معنى ذلك؛ لأن الأغلبية عندما تخرج فإنها في الواقع لا تخرج على أغلبية مثلها.. وهي الجوهر وراء "الخروج" لغويًا.. لكن هذا يثير تساؤلاً آخر حول موقف بعض الفصائل.. ومنها الإخوان المسلمون وبعض السلفيين.. الذين كنت تحس ترددهم في المشاركة قبل اندلاع الثورة.. ثم انضمامهم لها كلما تصاعدت وتيرتها وكلما أحسوا "بغلبتهم".. فهل كان هذا هو الدافع حقًا لانضمام هؤلاء وتأييدهم لمطالب الثورة؟

هذا يعيدنا للسؤال الأول الذي طرحناه في مقدمة هذا الفصل..

* * *

فكل من وصف الثورة بـ"الخروج" في بدايته وفور اندلاع مظاهرات **25** يناير ومن وصفها بالفتنة – بصرف النظر عن انضمامه إليها في أثنائها أو انضمامه لها بعد حدوثها – كل هؤلاء رأيناهم في المشهد السياسي التالي للتنحي حاضرين وبقوة.. حتى تم اتهامهم بأنهم "قفزوا على أكتاف الثورة".. رأينا أحزابًا سلفية يتم إنشاؤها.. واجتماعات وأطروحات سياسية للإخوان المسلمين و"تحولاً" و"تراجعًا" لفصائل أخرى كانت مترددة بشأن تأييد أو رفض الثورة.. واختفاء لوصف "الفتنة".. حلت محلها إشادات مختلفة على ألسن السلفيين.. على الرغم من أنهم أكثر من تكلم عن الفتنة قبل الثورة وفي أوائل أيامها.. جاء ذلك دليلاً على اقتناعهم بالنتائج التي ترتبت عليها.. وأولها إطلاق حرية الجميع في التعبير

والمشاركة في الحياة السياسية.. وهذا يطرح السؤال مرة أخرى..

هل رفض الثورة على أساس أنها "فتنة" هو رفض لفعل الثورة أو الخروج نفسه.. أم هو رفض لنتائج الثورة أو مخرجاتها؟ فلو كانت الثورة قد أثبتت فشلها وانتصر النظام.. وتم التنكيل بالثوار والقضاء على كل من شارك فيها.. هل كان هذا هو الإثبات لفكرة كونها "فتنة".. أم أن الأمر لم يمضِ على هذا المنوال ونجحت الثورة وظهرت آثارها وأوائل ثمارها فلم تعد يشار إليها بكونها "فتنة"؟

الاحتمال الثاني بعيد.. فالمنطق يقول: إن الحكم على وجاهة أو "صحة" مبدأ الإقدام على عمل ما لا يكون بنتائجه.. وإن من قال بـ"فتنة" الثورة لم يقصد في الأغلب أن ما سينتج عنها سيكون "فتنة" بل كان مقصدهم أنها هي نفسها "فتنة".. بالتالي سوف تؤدي إلى نتائج وخيمة.. لكن ليست الثورة التي تنتهي بسقوط نظام فاسد وتفتح الأمل أمام التغيير هي ثورة تؤدي لنتائج وخيمة..

إذًا فمن أطلق ذلك التعبير كان يقصد الاحتمال الأول: أن الخروج على الحكام في حد ذاته كفعل قائم بذاته هو "فتنة محرمة" يجب تجنبها والبعد عنها وترك الميادين فورًا والعودة للمنازل.. كما سمعنا مرارًا وتكرارًا في يناير وأوائل فبراير!!

* * *

يقول أبو هريرة: "عجبت لمن لا يملك قوت يومه.. كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه"!!

على الرغم من أن هذا القول يدعم فكرة مهمة هي أن العقد بين الحاكم والشعب هو أن يوفر الحاكم لهذا الشعب سبل العيش الكريم.. من عمل وظروف معيشية جيدة.. فإذا انتفت هذه الظروف فإن العقد الذي يقضي بالطاعة والسلم يبطل ولا يكون له وجود.. وعلى الرغم من الإغراء الشديد الذي يكتنفنا للاستشهاد بهذا الحديث في دعم وجاهة الخروج على حاكم أخل بالعقد السياسي بينه وبين المحكوم.. الذي أفردناه في الفصل السابق.. فإننا - ولاستشهاد أكثر دقة وإقناعًا - مضطرون للتفتيش في التاريخ عن حدث يماثل التوجه الفكري لثورة يناير: خروج سلمي على الحاكم يطالب بمطالب مشروعة يدعمها الدين والحق والإنسانية.. ولنرَ وجاهة هذا المثال وإمكانية القياس على ثورتنا من عدمه.. وهذا هو موضوع مثالنا التالي..

* * *

بينما تربى سيدنا موسى - عليه السلام - في قصر فرعون.. وصار من "الصفوة" التي احتكرت رغد العيش واستأثرت بخير مصر من حاشية القصر ورجاله.. على الرغم من نشأته الأصلية وهو في المهد ضمن بني إسرائيل.. عاش بنو إسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية عبيدًا وعمالاً لفرعون والمصريين من الصفوة.. وعندما جاءت رسالة السماء إلى موسى دعا بها أبناء قومه وذهب إلى قصر فرعون الذي رباه.. ليدعوه لتوحيد الله والخروج ببني إسرائيل من مصر..

من جانبه.. رفض فرعون هذا من منطلق (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى).. وواجه

معجزات موسى بمعجزات السحرة.. الذين ما إن رأوا معجزات السماء حتى دخلوا في دينه.. فإذا بفرعون يستنكر عليهم ذلك الفعل من باب أنه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِي).. بل واتهم السحرة أنهم يشكلون "تنظيمًا" ما مع موسى.. حين قال: (إِنَّـهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)..

أتأمل في الموقف فأرى تشابهًا واضحًا مع ما حدث في مصر مرة أخرى.. قرونًا كثيرة بعد ذلك..

في يناير 2011 في ميدان التحرير بالقاهرة.. نزل عشرات ثم مئات من الشباب الذين لا يعوزهم المال ولا التعليم ولا العمل.. مما يجعلهم أقرب إلى "الصفوة".. منهم إلى المطحونين من شعب مصر.. خرج هؤلاء "الصفوة" للمطالبة بمطالب تخص هؤلاء المطحونين.. عدالة.. وحرية.. وتغيير.. وانضم إليهم بقية الشعب.. الذي يعاني آثار هذا الظلم والمعاملة التي لا تليق بمواطنين.. بل هي معاملة أقرب للدرجة الثانية بوضوح..

اندفع إعلام النظام إلى وصم الثورة بأنها من صنع "تنظيم" خارجي و"عناصر مندسة".. واستنكرت أصوات نظامية الخروج على اعتبار أنه خروج عن "الشرعية".. كأن التغيير أمر مستهجن على اعتبار أننا لم نعرف لنا "من إله" غيره..

ثم أفلتت أعصاب فرعون عندما آمن السحرة بالله: (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ.. فوجد فرعون نفسه في موقف مخز أمام "الملأ" من قومه وأمام الناس.. مما دفعه لأن يلجأ إلى أساليب الطغاة عند انقطاع حجتهم.. وهو الإنذار والوعيد.. والتهديد باستخدام أساليب الترهيب والقمع فقال للسحرة: (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)..

وشيء مثل ذلك لجأ إليه النظام السابق حينما استخدم العنف مع المتظاهرين.. الذين أيدوا الثورة وأطلق البلطجية في ربوع البلاد.. لتتم المقارنة بين الإرهاب الذي كان يتعرض له المواطن من النظام.. وذلك الذي تصدر المشهد بحجة أنه بسبب الثورة.. ثم جاء دور المحرضين من حاشية فرعون الذين تقفز إلى الأذهان لدى ذكرهم صورة الصحافة والإعلام وكل من هاجم الثوار.. فيذكر القرآن حديث الملأ من قوم فرعون حين قالوا: (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)..

بل إن شيئًا من التشابه يلاحَظ أيضًا بين موقف من يلصقون كل شيء من عدم الاستقرار وشيوع الانفلات الأمني وغيره بالثورة كسبب رئيسي وبني إسرائيل حينما لاموا سيدنا موسى على التنكيل بهم.. كما تقصه علينا الآية الكريمة: (إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)..

واجه موسى وبنو إسرائيل ذلك بالصبر والثبات.. انتظارًا للوقت الذي يحقق الله – سبحانه وتعالى – فيه وعده لهم بوراثة الأرض.. صبروا كما صبر الثوار في الميادين على إيذاء الأمن وبطشه بهم.. حتى تحقق وعد الله لبني إسرائيل بابتلاع البحر لفرعون.. وللثوار بتدخل الجيش وإجبار النظام على السقوط ومبارك على التنحي.. تاه بنو إسرائيل بعدها في التيه أربعين عامًا لأنهم عاندوا موسى.. ولم يلينوا لرسالته.. فتارة يكفرون بالله ويعبدون العجل.. وتارة يرفضون القتال معه.. فصدق فيهم قول الله: (فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).. قال ربنا – سبحانه وتعالى –: (كَيْفَ) ولم تنص الآية على "ماذا".. وقد نفهم من ذلك أن العبرة بعد زوال الظلم والطغيان أن تتماسك الثورة.. أن يؤمن المصريون بعدالة وشرعية الثورة والتغيير ويساندوهما كما كان يجب أن يساند بنو إسرائيل عدالة الله بنجاتهم من عدوهم وهلاكه.. فربما يكون الاتحاد خلف الثورة دون التشكيك في نواياها وقيمتها ومحاولة سحبها وارتدادها للخلف سببًا في ألا نضل الطريق في التيه ثلاثين أو أربعين عامًا أخرى!

* * *

ويبقى السؤال الحائر: لماذا يحلو للبعض التشكيك في عمل الثورة نفسه وتوصيفه كفتنة؟

ولماذا يحلو للبعض الآخر التشكيك في نتائج الثورة واللغط الدائر على أثرها في أحوال البلاد وإلصاق أصله بالفتنة أيضًا؟

لا يمكن إنكار قوة الأثر النفسي للماضي القريب: نظام قمعي حكم البلاد بالحديد والنار ردحًا طويلاً من الزمان.. وحاصر القوى الإسلامية بعنف.. تحكي الكثير من الأطراف قصصًا وتسوق روايات كثيرة عن التضييق على كل من يطلق لحيته ويرتاد المساجد بانتظام.. وعن مراقبة أمن الدولة المنحل لشيوخ المساجد الذين يكثر عدد المصلين وراءهم.. وعن إغلاق معهد الدعاة الأزهري لغلق الباب الخلفي للانتماء للأزهر وبالتالي إمامة المصلين.. وعن الاعتقالات وغيرها.. كل ذلك الماضي والإرث الثقيل كلفنا خوفًا شديدًا من الخروج على الحاكم وأورثنا تخبطًا يتشابه مع التخبط الذي عاشته الأمة كرد فعل على المفهوم السياسي للحاكم.. الذي ابتدعه الأمويون في صورة "أيديولوجيا القضاء والقدر والإرادة الإلهية".. فأفرزت ردود الفعل مدارس مختلفة.. منها ما يندرج تحت اسم صاحب الشوكة "عند السنة" أو "الإمام المعصوم" عند الشيعة أو "الإرهاب السياسي" عند الخوارج.. وكلها تقع تحت طائلة الإخفاق الفكري.. وتعتمد النظرية الشهيرة التي لم يخرج منها الفكر الإسلامي على ما يبدو حتى يومنا هذا.. وهي نظرية الاستبداد أو الفوضى.. وهي التي تقف بديلاً عن مبدأ التنوير السياسي الإسلامي الذي لم يتبعه حكامنا إلا قليلاً..

* * *

الآن أعود بك إلى ماضٍ أكثر بعداً ..

إلى مصر الفرعونية .. نهاية عصر الدولة القديمة وبداية عصر الاضمحلال الأول .. منذ أكثر من أربعة آلاف سنة سجل الأديب والحكيم المصري القديم إيبور أحداث أول ثورة اجتماعية في التاريخ، وكان تسجيله لها يركز علي أسبابها ونتائجها الأولية، من انتشار أعمال نهب وسلب وبلطجة واختفاء للأمن، بفضل جماعة المجرمين الذين استفادوا بما حدث من اختفاء لدور رجال الأمن لسبب أو لآخر.. وبالطبع لم يعش إيبور طويلا ليري خاتمة نتائج الثورة.. التي نجحت لكن بعد زمن طويل مثقل بالفوضى وبعد تعاقب سبعين ملك في تسعين عام من الاضمحلال .. نجحت في بناء الدولة الوسطى الفرعونية بكل إنجازاتها اللاحقة .

.ولم يعمر إيبور طويلا ليري المنقذ والذي هو الملك منتو حتب الثاني نب حبت رع الذي جاء من قلب الصعيد ومن منطقة الاقليم الرابع الجنوبي وعاصمته واست، وهي محافظة الاقصر الحالية لينتشل البلاد من التفكك، ويقضي علي دعاة الفتن وقادة الفوضي. ويعود الفلاح الي أرضه والصانع الي مصنعه والكاهن الي معبده .... يقول لنا إيبور:

ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت كي أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه.. لأن البؤس عم في هذا الزمان.. المتحلي بالفضائل يسير وهو محزون.. العدالة موجودة الآن في الأرض باسمها فقط.. وما يفعله الناس هو التعسف فقط والظلم.. لقد انبري اصحاب ست ليوقفوا الحياة ورصد إيبور ما فعلوه باقتصاد البلاد قائلا:

أصبح الناس لا يبحرون الي جبيل(لبنان) ولكن ماذا نصنع للحصول علي

خشب الأرز اللازم لمومياواتنا!..

إنه يقول أصبح المجرمون يكمنون في الأحراش والطرقات حتي يمر الغريب الذي دهمه الليل فيسلبوه ما يحمل ويجردوه مما معه، ويضرب بالعصا بل يذبح ذبحا شنيعا.. حقا أصبحت الارض تدور كعجلة صانع الفخار(تلف دون نتيجة.. ونظام البلاد أصبح رأسا علي عقب.. من كان لصا صار الآن رب ثروة.. أصبح الفقراء يمتلكون اشياء جميلة ... وأصبح العظماء في حالة يرثي لها ... لقد حل الحزن في قلوب اصحاب الاصل الرفيع ... أما الفقراء فقد امتلأوا سرورا

لقد دمرت قصور الملوك و نهبت القبور و أصبح الحكام جياعا يعيشون في بؤس ... و قضاة البلاد طردوا من بيوت العدل وهكذا اصبح العبيد أصحاب عبيد وأصبحت الجواري والنساء الفقيرات يتحلين بالذهب و الياقوت ... أما السيدات النبيلات فقد أصبحن يمشين طول البلاد ويقلن : ليتنا نجد شيئا نأكله ... وكان الناس يقولون: يا ليتنا متنا قبل هذا.. وكان الأطفال يقولون: ولماذا أتوا بنا.. "

* * *

هل هي طبيعتنا أن نثور فلا تهدأ ثورتنا قبل وقت طويل .. أم أننا نحمل في اللاوعي لكل منا هذه الذكرى دون أن ندري؟ .. هل يتوارث عقل المصريين قناعة أن الثورة لا تهدأ معها البلاد بسهولة وتعم بعدها الفوضى ويصبح الأمن بعيد المنال؟ ..

لابد وأنك لاحظت التشابه بين الثورتين في ما حدث في أعقابهما مباشرة ..

هل لهذا نعبر عن رفضنا للتغيير – ربما بلا وعي منًا – والمقولات الشهيرة مثل "إللي نعرفه أحسن من إللي مانعرفوش" .. و "لا يوم من أيامه".. ليست بغريبة على أسماعنا؟

ألهذا نخاف التغيير؟ لأننا نخشى ثمنه الباهظ؟

* * *

نحن مثقلون في تفكيرنا بماضٍ قريب.. يحمل بطشًا أمنيًا بكل ما هو إسلامي.. وماضٍ بعيد.. يحمل الخوف من إبداء الآراء والاعتراض على الظلم بدعوى الخوف من الفرقة والفوضى.. وكلا الماضيين أورثنا رعبًا من الحرية والتصاقًا أكثر بالفاسد.. لأن بديله لا نقبله ولا نستطيع تحمله.. كل ذلك شغلنا عن أن نعمل للغد.. ونعلم أن الله ينظر لنا "كيف نعمل": بإخلاص وصدق وعدل وحق.. أم بصراع وتكفير وتنافس لا يقدم ولا يؤخر.. للوطن أم من أجل قيادته والاستئثار به!

* * *

في يوم من الأيام في مستقبلنا الزاهر بإذن الله سوف تصبح ثورة يناير من المسلمات في تاريخنا.. سينقطع الكلام عن التخوين والعمالة.. وسيتوقف الحديث عن وجاهتها ودوافعها.. وهل كانت ضرورة أم لا.. ولن يصبح الحديث عمًا إذا كانت أضرت بالوطن حديثًا معقولاً.. بل يصبح إلى الهزل أقرب.. وبعدم المنطقية

أشد التصاقًا..

في هذا اليوم من مستقبلنا يجب ألا نعتبر أن الخلاف حول حاكم ما يعمل مرتديًا رداء الوطنية أو معتمدًا تنفيذ أهداف الوطن وآماله التي عبرت عنها ثورته.. يجب ألا نعتبر أن الخلاف حوله "فتنة" غير مقبولة.. بل يجب أن نعلم أن هذا المفهوم الذي لم يستفد منه سوى حكامنا الظالمين على مدى التاريخ يجب ألا يمنعنا من "الخروج" السلمي على كل من تسول له نفسه أن يعبث بحريتنا ولا يقيم العدل فينا أو يكرس للظلم أو الفساد على أرض بلادنا..

فهذه بعينها هي الفتنة!!

أيها المصريون.. دمتم ثائرين!

أزمة السلوك

لماذا نفرد فصلاً خاصًا عن أزمة السلوك بعد الثورة؟

ليست الأزمة جديدة.. بل لعلها تكون أكثر الأزمات الشخصية وضوحًا في تكوين المصريين.. وأكثرها ربطًا بزمن ما قبل يناير.. إذا قورنت بأزمات الفكر والضمير.. لكن اللافت للنظر في أزمة السلوك هو أنها عادت للظهور بقوة بعد أن هدأت فورة الثورة.. وأنها ارتبطت في جذورها برافد مهم هو انفصال صورة الوطن بمعناه المكاني أو الفراغي.. عن صورة الوطن بمعناه الديني والأخلاقي..

* * *

كلنا نعرف الشارع المصري جيدًا.. ليس بغريب عن أسماعنا أو ذاكرتنا مشاهد سائق التاكسي الذي يبالغ في أجرته.. أو يستغل جهلك بالطريق ليسلك طريقًا مطولاً.. فيصل بك في ساعة أو أكثر.. بينما لا يزيد الوقت المتاح بطريق أقصر على نصف هذا الوقت.. كلنا عايش موقفًا لاستغلال النفوذ.. وبعضنا اضطر إلى دفع مقابل من المال في صورة "رشوة" مقنعة.. تتخذ لنفسها أسماء كثيرة.. تتراوح حسب الموقع

والطالب من "الشاي" أو "الحلاوة" إلى "العرق".. أو غيرها.. أو سلوك "الاستحلال".. وفيه يظن الشخص أن استيلاءه على حافظة نقود وجدها ملقاة في الطريق أو حقيبة بها بعض المال تصادف وجودها في طريقه.. ذلك كله "حلال".. "يستحله" لنفسه في بساطة وهدوء.. ليس بغريب علينا أيضًا سلوك "الفهلوة" وآفة عدم الإتقان اللذان تفشيا في المجتمع المصري.. لدرجة وصلت ببعض صادراتنا أن يتم رفضها من جانب الدول التي تستوردها.. لضعف الرتوش النهائية عليها لكسل وإهمال لا يمكن إنكارهما.. وبلغ بنا الاستسلام لذلك أن صار تعبير "تقفيل مصري" يستخدم بغزارة لوصف سيارة يتم إنتاجها بالخارج وإنهاء هذه الرتوش بمصر.. "تقفيل مصري": يقولها صديقك الذي يعني بها أنه اشترى لتوه "مقلب عمره".. بل وصل سلوك عدم الإتقان إلى أنه صار معترفًا به.. وتخترع له الحلول.. ويتم التعايش معه بصفته واقعًا مقبولاً.. فبدلاً من حث الطالب على الإلمام بكل عناصر وفصول المنهج الدراسي.. إذا بحذف فصول من الكتاب يصير عادة وحقًا معروفًا بين طلاب الكثير من كليات الجامعة.. ينتظر الطلاب ذلك اليوم الذي يعلن فيه الأستاذ أي فصول "ستحذف" انتظار من يتسلم "حقه" لا انتظار الطالب الخائب الذي لا يستحق في الواقع أي مساعدة!!

* * *

الحكاية قديمة إذًا.. والأسباب تتراوح بين العام والخاص.. أسباب عامة تشمل - دون شك - الحراك الاجتماعي المتزايد الذي أصاب المجتمع المصري منذ منتصف السبعينات.. والذي وصفه د. جلال أمين في كتابه الرائع "ماذا حدث

للمصريين؟".. الذي بدأت معه الطبقة الوسطى تتطلع لتحسين مستوى معيشتها.. والسعي وراء المال بكل الطرق: اتخاذ وظيفة ليلية بجانب الصباحية.. أو سفر إلى دول الخليج للعمل.. وكلها طرق لا خلاف على مشروعيتها وعلى أحقية سالكيها بها لتحقيق أهدافهم.. إلا أن ذلك صاحبه تراجع مستوى التعليم والثقافة العامة.. وانحسار دور الدولة في رعاية المواطن فكريا فأصبحت الثقافة شيئًا مهمشًا.. لأنه لا يصب في تحسين الدخل ولا يساعد في اللحاق بركب الأسعار.. ولا اللهاث نحو شراء المنزل أو السيارة.. أو إقامة مسكن للزواج.. وبالتدريج بدأت النماذج الناجحة ماديًّا تملأ المجتمع.. ويجمعها جميعًا السطحية والانشغال بتوافه الأمور.. فبدأت نماذج الثراء السريع والصوت العالي وقصص النجاح التي تعتمد على امتهان وظائف وأعمال ومهن.. لا تنبع بالأساس من ثقافة عالية ولا تعليم راقٍ.. مثل الرياضيين والفنانين والتجار – مع احترامنا لأشخاص الكثير منهم – تحل محل نماذج الموظفين المحترمين المفكرين ذوي النقاش المنضبط والأطباء ووكلاء النيابة والقضاة بمهاراتهم التي استمدوها من تعليمهم وعقولهم.. وفي ظل إصرار الدولة على تخليها عن رعاية المواطن فكريًّا وماديًّا بسبب استكانة الدولة لمبدأ خفي بدا وكأنه يقول: "حل مشكلتك بنفسك.. فالدولة لن تُعنى كثيرًا برفع دخلك".. هكذا فشل نموذج الالتزام والاجتهاد في تحقيق الهدف المادي لتلك الطبقة الوسطى بينما لمع نجم نموذج "الفهلوة" وزاد نجاحه كلما داس على قيم كانت أساسيات في المجتمع المصري مثل "الأخلاق" و"الأمانة" و"الصدق" و"الزوق في التعامل"..

كانت هذه القيم هي "أخلاق القرية" التي طالما أشار إليها الرئيس الراحل أنور السادات - بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه - كانت هذه هي القيم التي بدأت في التلاشي تحت وطأة السعي نحو المادة واللهاث نحو الرزق.. زاد الطين بلة بعد ذلك تفشي ضيق العيش في عهد مبارك وتقلص دفعة "الانفتاح الاقتصادي" واقتصار ثماره على أهل الحظوة من "محاسيب السلطة والثروة".. فقل إحساس المواطن بالإنجازات الاقتصادية وتلاشى النفع العميم السابق.. مما زاد ترسيخ فكرة "الفهلوة".. والنفاق الاجتماعي.. وسعى كل فرد للحصول على مصلحته بأي شكل.. حتى لو كان على حساب الأخلاق والقيم.. فالأهداف تتصاعد.. والطموحات تتكاثر.. والوقت لا يرحم.. والعيش يضيق.. ومن كانت لديه عشر فرص ليغتنمها فيما سبق صارت لديه فرصة أو اثنتان لا أكثر.. وتراجع مع ذلك دور الأسرة في التربية والتوجيه.. وتعاظم دور الإعلام الاستهلاكي..

* * *

أحسب أن كل ما سبق من أسباب عامة مفهوم وغير جديد..

لكن المهم هنا هو الأسباب الخاصة التي أدت إلى أزمة السلوك بعد الثورة..

يبدو لي هنا أنه من فرط أن قسا علينا حكام الوطن فلقد كرهنا الوطن نفسه.. نسينا أن الحاكم ليس هو الوطن.. فالوطن باقٍ.. وهو ونحن زائلون..

بل نسينا أن القيم والمبادئ السلوكية والدينية من قبلها تأمرنا وتوجهنا في

وضوح إلى اعتبار الوطن امتدادًا طبيعيًّا وجزءًا لا يتجزأ من أهداف وأسباب تعاملاتنا اليومية..

فأنت لا ترتشي حتى لا تضر مصر.. لا تستغل غيرك حتى لا تضر مصر.. لا تسرق ولا تنهب ولا تكذب.. حتى لا تسيء لوطنك مصر!!

فقدان هذا المفهوم هو سبب الكثير من أزمات السلوك السابقة.. وهو العامل الأهم في الأزمات التي نشرحها فيما يلي..

بين علم السعودية وعلم إسرائيل!!

عندما خرجت جموع التيارات الإسلامية إلى ميدان التحرير في التاسع والعشرين من يوليو في تظاهرة مليونية حاشدة كانت هناك منصات متعددة رفعت شعارات دينية كثيرة أثارت حفيظة الكثير من القوى السياسية الأخرى.. خاصة أن الاتفاق قبلها كان على "وحدة الصف وجمع الشمل" بعدم رفع شعارات سوى تلك الخاصة باستكمال مطالب الثورة.. مما أدى إلى انسحاب تسعة وعشرين تيارًا سياسيًّا من الميدان.. وبقي الميدان حكرًا على الإخوان المسلمين والسلفيين وبعض الجماعات الإسلامية..

لم يكن هذا هو المشهد المؤلم.. لكن رفع صور بن لادن والتلويح بأعلام السعودية كان – ولا شك – مشهدًا يثير الضيق.. ليست حجة مقبولة – في رأيي – القول إن علم المملكة يحمل الشهادتين.. فهما ممكن أن تتصدرا لافتة مستقلة وليس بالضرورة علمًا لدولة أخرى.. ولا القول إن بن لادن كان مجاهدًا والثورة جهاد ضد الظلم.. فالمجاهدون المصريون كثير.. والزعماء تمتلئ بأسمائهم عشرات الصفحات

من كتب التاريخ.. والمجال ليس المناسب في الدخول في هذه المتاهات التي لا علاقة لها بثورة هدفها تحسين أوضاع المصريين داخليًا ورفع قامتهم خارجيًا..

لكن التفسير جاء للأسف مستمدًا من مواقف رآها وسجلها من وُجد يومها بالميدان.. فقد نشب خلاف بين منصات السلفيين والإخوان.. منصات السلفيين كانت تذيع أناشيد دينية.. بينما يمزج الإخوان الأناشيد الدينية بالأغاني الوطنية.. ويرفعون أعلام مصر بدلاً من أعلام السعودية.. الأمر الذي اعتبره السلفيون غير مقبول من باب رفضهم للموسيقى.. بصرف النظر عن اتفاقنا واختلافنا مع ذلك الأمر الذي يحسمه علماء الفقه والشرع ولسنا أنا وأنت في الغالب منهم.. فإن ذلك أبرز بوضوح التمييز بين "الوطن" بمعناه المصري الذي يقتضي رفع علم مصر ورفع شعارات تحمل النداء باسمها.. وبين "الوطن" بمعناه الديني الذي اقتصر للأسف على رفع علم من يظن حامله أنها رمز الدين وهي السعودية.. وصور من يمثل في رأي من يعلقها نموذجًا للجهاد والثورة وهو بن لادن!

إذًا هناك تناقض في نظر هؤلاء بين الدولة بمعناها المصري والدولة بمعناها الإسلامي.. وهو مفهوم غاية في الغرابة يتناقض مع الواقع ويفقدنا الهوية بلا مبرر ويوضح خلفيات رفض الحوار والتعنت فيه من جانب الكثيرين.. ويقودنا في النهاية إلى فرض "الدين" بقوة يبررها "كفر" هذا المجتمع..

قبل أن يترك مكة مهاجرًا إلى المدينة تطالعنا كتب السيرة أن رسول الله -

صلى الله عليه وسلم – دمعت عيناه وتوجه بكلامه إلى مكة قائلاً: "والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وأحب البلاد إليَّ.. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت".

قال صلى الله عليه وسلم ذلك وهو يخرج منها مهدَّدًا.. وقد حاصرت فراشه قبائل مكة وشعابها يودون قتله.. قالها وهو شديد التأثر يملأ قلبه حب حقيقي لبلاده.. قالها ولم يرفع علم المدينة المنورة بعد أن عاد إليها؛ لأن مكة ظلت – على الرغم من امتلائها بالكفار – وطنه.. وطنه الذي يحبه والذي بذل جهد السنوات في إصلاحه وإصلاح أهله وهدايتهم للحق.. فلما عاد إليه لم يكن سوى وطنه الذي عاد إليه.. وعفا عمن آذوه ولقبهم بالطلقاء!!

* * *

لكن الكارثة السلوكية استمرت!!

فعندما استشهد الجنود المصريون على الحدود برصاص إسرائيلي غادر في رمضان 2011 قامت مظاهرات حاشدة أمام السفارة الصهيونية انتهت بإسقاط العلم وحرقه.. لم نلمح تيارًا إسلاميًّا واحدًا ممن حشدوا الملايين.. لم نشهد أحدًا منهم يطالب بإنزال العلم.. اختفى هؤلاء الذين أسعدهم رفع علم السعودية باعتبارها مرجعية للدولة الدينية في نظرهم.. ولم يحركوا ساكنًا في مواجهة علم الصهاينة الذين قتلوا المسلمين!! لم نسمع عن اشتراكهم في مليونية طرد السفير يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان.. وكأن الأمر لا يستحق..

ولِمَ لا؟ فالدولة في نظر هؤلاء ليست "مصرية".. بقدر ما هي دينية سعودية.. أو بالأحرى: ليست مصر جديرة بأن تكون مطابقة للإسلام.. وهناك في أذهانهم استقر فارق وهمي غاية في الخبث: مصر كدولة غير الإسلام كدولة.. وكأن الإسلام لا يأمرنا بحب الوطن.. وكأن رسول الله ألغى وطنه وتنكر له حتى بعد أن آذاه أهله.. وكأن دموعه – صلى الله عليه وسلم – لم نتعلم منها بعد قرون طويلة شيئًا اسمه "حب الوطن" والغيرة على دم أبنائه وشهدائه.. وهذه هي المشكلة!!

أزمة سلوكيات وآداب الحوار

هذه الأزمة تظهر بوضوح في جحيم البرامج الحوارية التي ازدحمت بها الفضائيات.. التي جسدت مشاكل الحوار لدينا.. فمقاطعة المتحدث من أي طرف.. سواء في ذلك المحاور نفسه أو الضيف الذي يخالفه الرأي.. صارت أمرًا عاديًّا لدرجة أنك لا تلمح اعتراضًا أو استغرابًا عليه إلا فيما ندر.. مع انتشار جملة هزلية شهيرة تقال دائمًا في هذه المواقف على الرغم من أنها تبدو عديمة القيمة: "بدون قطع كلام حضرتك!!".. واضطراب الأفكار تشي به مظاهر كثيرة منها افتقاد الموضوعية في الحوار.. والسير بالنقاش في دروب لا علاقة لها بالموضوع.. ومهاجمة الشخص وراء الفكرة بدلاً من مناقشة الفكرة وربما هروبًا من ذلك.. ومحاولة "حرق" الآخر أو إظهاره بمظهر الخائن.. وأنماط "التصنيف" الفكري.. ووصم من أمامك بانتمائه "لهوية" معينة أملاً في التسفيه من أفكاره.. ثم أخيرًا وليس آخرًا "طول اللسان"..

* * *

رمز مهم من رموز الليبرالية الصحفية دائمًا ما يتهجم على الإسلاميين..

يصفهم أن كل ما يحبونه أو يسعون وراءه هو "الفتّة".. مذيع ينتمي للتيار الإسلامي هاجم هذا الرمز نفسه.. لأنه سمح بنشر كاريكاتير يسخر من مستقبل يتولى فيه الإسلاميون الحكم.. ووصفه بأنه "واحد مش متربي".. وأخذ يطلق عليه أوصافاً مثل "خالتي اللتاتة".. ويُعنى بها كثيرة الكلام و"اللت والعجن"!!

يحدث هذا في أمة مسلمة وشعوب تقرأ في صلاتها قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)..

سقطة حوارية أخرى تتعلق بطول اللسان جاءت في برنامج على قناة فضائية خاصة عندما استنكر المحاور هجوم إعلامي شهير عليه.. وادعى أن الأخير كان "قوادًا" للملوك العرب عند مجيئهم لمصر.. ويجلب لهم الفنانات المصريات.. كما سبَّ مسئولاً سابقًا بلفظة سوقية على الهواء.. ثم تعلل لانفلات أعصابه بسبب الهجوم عليه!!

يحضرني هنا مقال د. المعتز بالله عبد الفتاح في جريدة "الشروق".. الذي تذكر فيه مقولة لمدرس اللغة العربية الذي كان ينهاهم عن السباب بقوله: "الشتيمة عيب يا ولاد الكلب"!!

الهجوم على الشخص وراء الفكرة هو أيضًا سلوك حواري شائع.. فأحد الطرفين يترك فجأة الموضوع الأصلي محل النقاش ويهاجم هوية محدثه بضراوة.. أو يندد بموقف سابق له من أجل "حرقه" أو إلصاق هوية معينة به.. وهو أسلوب في

الواقع لا يفيد الحوار.. ولا علاقة له بالموضوعية.. ولا يشجع سوى الهروب من مواجهة الفكرة بالفكرة.. كما يصادر حق المستمع في تقرير أحقية أي الطرفين ومقارنة وجاهة المنطقين..

في مواجهة عبر الهاتف على شاشة فضائية سأل د. ممدوح حمزة سؤالاً عن سبب رفع شعارات دينية في جمعة 29 يوليو 2011.. كان المسئول هو المهندس عبد المنعم الشحات – ممثل الدعوة السلفية – الذي ما كان منه إلا أن بادر بالرد: إن القوة الليبرالية فعلت ذلك أولاً عندما تم خرق الاتفاق السابق.. بعدما رفعت شعارات خاصة في جمعة 8 يوليو 2011.. حيث تم رفع شعار "الدستور أولاً" ولذلك – والكلام ما زال للمهندس عبد المنعم – فإن التيارات الإسلامية رفعت هي أيضًا شعارات في جمعة 29 يوليو 2011..

دعك من المنطق غير المفهوم: "لماذا خرقت اتفاقنا؟ لأنك خرقت أيضًا اتفاقنا من قبل!!".. ولكن تابع معي من فضلك تطور الحديث بين الاثنين.. المهندس ممدوح حمزة نفى ذلك وقال إن من خرقوا الاتفاق قلة قليلة وقوى خارجة على الائتلافات.. وليس القوى الرئيسية وإن المهندس عبد المنعم يعلم ذلك لأنهما تناقشا فيه من قبل.. وأعاد تساؤله عن سبب رفع الشعارات الدينية فإذا بالأخير يسأله سؤالاً فاجأنا جميعًا قبل أن يفاجئ ممدوح حمزة.. سأل عبد المنعم الشحات قائلاً: "وصديقك فتحي سرور عامل إيه دلوقتي"!!

تحولت الحلقة إلى دفاع من طرف وهجوم من طرف آخر.. وجمل مثل: "هل نستطيع يا د. ممدوح أن نعتبرك أول رجل أعمال في حكومة النظام السابق؟"..

هل تذكر صلب الموضوع؟ هل عرفت السبب في انشقاق الصف بين طرف يصر على رفع الشعار وطرف لا يريد ذلك؟

وهل بدأت تستوعب معي أزمات السلوك الحوارية المصرية بعد هذه الأمثلة كلها؟

* * *

هنا يجب أن نسأل أنفسنا ثلاثة أسئلة مهمة:

هل نحن شعب همجي السلوك؟ ما أسباب هذه الهمجية؟ وما طرق النهوض بهذا السلوك؟ أسئلة تبدو أصعب وأعقد من أن تتم الإجابة عنها بيسر.. خاصة بعد اكتئاب ما بعد الثورة.. لكننا سنحاول على كل حال..

* * *

هل نحن همجيون في سلوكنا؟

للوهلة الأولى عندما تقارن سلوكيات الشارع المصري ومشاكل الحوار وآداب السلوك بمثيلاتها في الدول الغربية.. سيبدو أننا أمام شعبين من كوكبين مختلفين.. لكن في الواقع أن الناس كلهم بداخلهم همجيون.. من أجل هذا جاءت الأديان.. ولضبط هذا تشرع القوانين..

* * *

انظر إلى المثال التالي:

في ألمانيا توقفت محطات الوقود منذ سنوات عن مسألة "النوبة الليلية".. تستطيع ببساطة أن تقود سيارتك بداخل المحطة وتضع كارت الائتمان البنكي الخاص بك في مضخة الوقود.. وتضخ "البنزين" بنفسك.. وتتم محاسبتك فوريًا بخصم قيمة الوقود من حسابك البنكي عن طريق الكارت..

الزمان: فجر إحدى ليالي نوفمبر 2002.. المكان: محطة وقود فرعية في بلدة ألمانية صغيرة في مقاطعة "الراين".. تدخل سيارة "بولو" صغيرة.. يضع سائقها الكارت في المضخة.. يضخ الكمية التي يريدها.. لكن الكارت لا يُسحب منه سنت واحد!!

يزيد الرجل من الضخ.. لا شيء!! يبدو أن هناك شيئًا ليس على ما يرام.. فجأة تلتمع الفكرة في ذهنه ويفهم: الماكينة معطلة!!

القانون معطل!! القانون يدعوك إلى خرقه.. لكن السلوك القويم والضمير يستحلفانك ألا تفعل!!

قناة "WDR" المحلية صورت ما حدث بالصوت والصورة وسجلت أحاديث مع ما يقرب من ثلاثين مواطنًا من أهالي البلدة توافدوا في سرعة يملئون سياراتهم و"جراكن" بيوتهم.. وحتى علب بلاستيكية من منازلهم بالبنزين المجاني.. خلال ثلاث ساعات فقط.. وحتى السادسة صباحًا.. كانت المحطة قد

خسرت ثلاثة آلاف لتر.. ضخها مائة وأربعة عشر مواطنًا سارعوا لإبلاغ بعضهم بالفرصة السانحة.. كما صرح مدير المحطة في اليوم التالي في حزن.. وأضاف أنه لا يستطيع محاسبتهم أو ملاحقتهم قضائيًّا.. لأنهم لم يخرقوا القانون!!

أليست هذه هي الهمجية بعينها؟ وإلا فماذا تكون؟

لو أن الإنسان يكفيه ضميره ليملي عليه الالتزام بالسلوك القويم لعشنا في المدينة الفاضلة.. ولأننا – كلنا – لسنا كذلك كان القانون.. وكان التشريع.. وكانت الرسالات السماوية.. وكانت قيمة القدوة الحسنة والمثال الطيب والكلمة الطيبة.. مثال الهمجية الألمانية هو الفارق بين العقلية الغربية والشرقية.. فهم لديهم "صح" و"خطأ".. يحل هذان المفهومان في البلاد والمجتمعات العلمانية محل "الحلال" و"الحرام".. فالقانون معطل ولا مانع من "سرقة" البنزين.. إذًا تصبح "السرقة" في هذه الحالة "صح"!!

* * *

جدير بمجتمعاتنا التي يعلو فيها شأن الضمير الديني الذي يدرك أن هناك ما هو أعلى من "الصح والخطأ" وهو "الحلال والحرام".. جدير بنا أن ينعكس هذا الإدراك على سلوكنا.. ولنا في تاريخنا المزدهر عبرة في الكثير من المواقف.. فعندما كان الفاروق يجوب طرقات المدينة – وهو هنا يمثل القانون الذي غاب ليلاً عن مراقبة الناس – إذا به يسمع ابنة بائعة اللبن التي تستنكر من أمها رغبتها في غش اللبن بالماء وقولها: "إذا كان عمر لا يرانا فرب عمر يرانا".. هذه الفتاة التي صارت

فيما بعد أمًّا لخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز!!

كنا أيامها نفهم – أو كانت هذه الفتاة تفهم – أن الحلال والحرام هما أعلى سلطة ضميرية وسلوكية وفكرية لدينا.. فلا يسمح لنا مفهومنا للحرام أن يقبل ضميرنا "الغش".. أو "نسلكه".. أو "نفكر" فيه باعتباره حلالاً بأي حجة.. حتى لو كانت الحاجة أو الفقر أو الظروف.. وحتى لو غاب "القانون" أو "الرقيب" أو انعدم مفهوم "الخطأ"!!

وهذا هو السبب في أزمة السلوك والهمجية.. واضح أننا لم نعد نؤمن بذلك أو نذكره!!

وهذا يقودنا لإجابة السؤال الثاني..

هل هناك سبب ما لسلوكنا الذي يشهد أزمة طاحنة لا شك فيها؟

* * *

الإعلام مرة أخرى!!

يبدو إعلامنا المصري كأنه يعيش بمعزل تام عن هذه المشاكل.. فالثورة كانت – وما زالت – بالنسبة للقائمين عليه "مشكلة" يجب عليه الانهماك في تحديد كيفية التعامل معها.. هل يتحيز لها أم ضدها.. هل يتخذ صف الثوار أم يهاجمهم.. هل يؤيد الاعتصامات أم يهاجمها ويندد بتعطيل مسيرة الاقتصاد.. لذلك لا نتعجب كثيرًا من بطء إدراك هذا الإعلام للمشكلة الحقيقية.. وهي أن أزمة

السلوك تعطل مسيرة البناء.. وتحطم أي مجهود فكري لصالح الوطن.. ليست الاعتصامات ولا المليونيات ولا الثوار ولا الفلول..

ما معنى تخصيص ساعات الإرسال الطويلة من أجل "تلميع" رموز النظام السابق بشكل بدا أكثر منهجية وتواترًا وتنظيمًا من أن يكون صدفة؟ أحد هذه البرامج كان يسجل للضيف حواره ثم يسجل أسئلة في الاستراحة ويبرز عدم تناقض رأي الضيف مع نفسه.. لتكون الرسالة في النهاية: هو أو هي.. إنسان محترم وعظيم و"الناس فهمته غلط"!!

ما القيمة السلوكية التي يريد الإعلام أن يوصلها إلينا؟ أن نتسامح مع من هاجم الثورة؟ أن نغض الطرف عمن يعادينا في فكره لمجرد أنه "فعلاً" رأيه؟ نحن لا ننكر أهمية نبذ الخلاف.. بل هي قيمة مهمة لننظر إلى الأمام.. لكن لمصلحة من الإيحاء بأن هذه هي قمة أولوياتنا في فترة ما بعد الثورة؟ لمصلحة من تذيع القناة الأولى المصرية تحقيقًا خارجيًا بعنوان "ماذا لو مات مبارك؟!" في ليلة بدء أولى محاكماته.. يستمد سؤاله على أساس التقارير الصحية التي كانت تروج لها بعض المصادر "غير الطبية".. ثم يتم نفيها فورًا عن طريق وزارة الصحة.. وعلى الرغم من عدم وجود أساس كما نرى.. فإنه كان للقناة "التفرد" في طرح هذا السؤال العجيب ليلة المحاكمة.. بعد سؤال عشرين أو ما يزيد من المواطنين في الشارع.. جاءت الإجابات شبه متطابقة: "نطلب له الرحمة".. "اذكروا محاسن موتاكم".. "صاحب

الضربة الجوية".. لمصلحة من التأثير على الرأي العام بالتعاطف مع المتهم؟ وأي سلوك "تسامحي" نريد الإلقاء به في روع الناس مع متهم بإفساد الحياة السياسية وقتل متظاهري الحرية والكرامة؟

لم نلمح في الإعلام من يريد توصيل رسالة سلوكية للناس.. من ينادي بحسن الخلق والوقوف مع الضمير وعدم إلقاء القمامة.. وتوجيه الحديث إلى رجل الشارع العادي بالربط بين "احترام" الآخر وبناء الوطن.. كل ما اكتفى الإعلام به جدوى المليونيات والتحيز ضدها بحجة وقف الإنتاج.. دون توضيح وسائل تشجيع الإنتاج أو التركيز على المشكلة الحقيقية.. وهي الكسل والتقاعس والانفلات الأمني الذي بدا وكأنه لا يشغل سوى ضحايا البلطجة والمواطنين الذين تُركوا فريسة لهم ولإجرامهم!!

مشهد شديد الغرابة كان بطله أيضًا الإعلام المصري بمختلف قنواته!!

مر على المصريين شهر رمضان عام 2011 وظروف البلاد في قمة انفلاتها السلوكي آنف الذكر.. مع ما في هذا الشهر من انجذاب روحاني عالي الذبذبة.. أي فرصة إعلامية كانت سانحة أكثر من ذلك لتحسين هذا الجانب والعمل على نشر التوعية في الإعلام..

باستثناء برنامج معز مسعود وعنوانه "ثورة على النفس" الذي أذاعته بعض الفضائيات.. أرى أن الآخرين فشلوا في استغلال جرعة التركيز المرتفعة لدى

المشاهد وقدرته واستعداده على استيعاب الرسائل الفكرية والسلوكية في الشهر الكريم.. أحد هؤلاء الدعاة الذي يتمتع بقدرة فائقة على التأثير على المشاهد خصص حلقات برنامجه الثلاثين لمتابعة سلوك التابعين.. داعية آخر يتميز بشعبيته في أوساط الشباب خصص برنامجه للحديث عن حب الله وما يقربنا من الله.. ذلك كله جميل ولا غبار عليه.. بل هو واجب مجتمعي ممتاز.. لكن السؤال يطرح نفسه: أي وقت كان أولى بطرح مشاكل المجتمع السلوكية وربطها بمصلحة الوطن في إصلاحها؟ أي وقت كان أكثر تأثيرًا من أن نقول كما قال معز: "أي سلوكيات في نفوسنا يجب أن نقول لها (ارحل) كما فعلنا في الثورة؟"..

هل يعيش هؤلاء بمعزل عن المجتمع أم أنهم آثروا السلامة؟ فالتحضير لمواضيع عامة مثل "سلوك التابعين" أو الحديث عن "حب الله" بالتأكيد له مصادر ومراجع لا تنتهي.. وهو من دون شك أكثر سهولة من التحضير لموضوع يربط بين تفكيرك وفكر الدين وفكر وسلوك المجتمع.. راغبًا في تغييرهم للأفضل من أجل مصلحة الوطن..

هل آثروا ألا يربطوا بين أسمائهم و"شبهة" الانحياز للثورة.. انتظارًا لما تسفر عنه الأمور.. أو خوفًا من أن تتأثر شعبيتهم بمدى انتماء المشاهد للمؤيدين أو المعارضين؟ هل تصرفوا "كنجوم" وليس كدعاة أصحاب رسالة فكرية وسلوكية؟

معز مسعود اختار أن يضحي بتقبلك لرأيه.. وأن يخاطر بتأثرك بنفورك

من الثورة ومن تعبير "ارحل".. اختار ذلك من أجل هدف أسمى.. هدف نحتاجه.. ورسالة شديدة التأثير في سلوك المصريين: "غيَّر نفسك إلى الأحسن.. فهذا ما يأمرك به الدين.. وهذا ما يأمرك به من أجل الوطن.. فهذا هو الدين في معانيه العميقة.. والوطن في صورته الحقيقية"..

* * *

هي رسالة كانت جديرة أن تكون عنوانًا للإعلام المصري كله وليس لبرنامج واحد فقط! !

* * *

سؤالنا الثالث الذي نود الإجابة عنه هو: ما طرق النهوض بهذا السلوك؟

في أواخر السبعينات - وبصرف النظر عن أنه كان مسئولاً بسياسة الانفتاح الاقتصادي وإرساء مبدأ تخلي الدولة عن رعاية المواطن ودعم الطبقة المتوسطة عن ذلك كله - اقترح الرئيس السادات قانون "العيب" لضبط سلوكيات الشعب في الشارع المصري..

قول مأثور هو "يزع الله بالقرآن ما لا يزع بالسلطان".. يسير أيضًا في الاتجاه نفسه.. فالسادات الذي كان - ربما بحكم نشأته وخلفيته - قد أدرك أن أخلاق القرية في خطر ربما أثبتت الأيام صدق مقولته.. وإلى أن يحكم إعلامنا "رجل رشيد" ينجح في توجيه دفته نحو ربط الدين بالسلوك فستظل هذه الأخلاق يحيط بها

الخطر نفسه.. هذا التحول الرشيد سوف يكون عوضًا عن إطلاق العنان للتهجم الفظ على الإسلاميين.. الذي جاء امتدادًا لموجة التهجم عليهم في التسعينات وأوائل القرن الحالي.. بدعوى ربطهم على عمومهم بالإرهاب.. مما أكسبهم – ويكسبهم الآن أيضًا – تعاطفاً على أساس الاضطهاد وفساد نية ذلك الإعلام وتعاطفه مع إفشاء الفاحشة والعلمانية دون أن يكون هذا هو القصد في كثير من الأحيان.. يدعم ذلك تحيز هذا الإعلام بالفن الهابط.. والخلاعة في الأداء وعدم تحري الدقة في الخبر.. أو الضمير في الحكم على الفكرة.. وليس الشخص وراء الفكرة.. وإلى أن تركز خطب المساجد على "المعاملات" من منظور وطني قدر تركيزها على العبادات.. والمفاهيم التي ترفض الآخر لفهم سطحي لأفكاره.. أو للتكتل في اتجاه تيار سياسي معين.. إلى أن يأتي ذلك اليوم.. فقد يكون مفتاح ضبط سلوكنا فعلاً في قوة القانون الذي يتم تطبيقه مرة أخرى "بضمير" يحكم "السلوك".. ويمنع "الفكر" من الانحراف..

* * *

إذًا هو الإعلام والقانون والأمن.. وضلع رابع مهم في هذه المنظومة.. هو الاقتصاد..

فكلما رفعت من مستوى معيشة المواطن زادت رغبته واستعداده للانصياع للأمن والحق والصح.. وكلما كان تركيز الدولة الحديثة في مصر على رعاية المواطن من الطبقة الوسطى كوسيلة لإضفاء البهاء على قيمة الاجتهاد العملي والعلمي في الحياة وصلنا إلى نماذج أفضل.. نماذج تقل معها قيمة الفهلوة وتتلاشى معها أهمية

البلطجة.. ليس تهميشًا من أهمية رفع الحالة الاقتصادية للفقراء لكنه إعلاء من أهمية عودة الانتعاش للطبقة الوسطى.. التي تمثل نجاح نموذج الالتزام العملي في الحياة.. والتي قد ينعكس ارتفاع نجمها وبروز احترامها وتوفيقها في سعيها نحو نيل مطالبها وتحقيق هدفها في الحياة على تطلع المجتمع كله إلى التمسك بقيم الالتزام والسلوك القويم.. وإلى قناعة الفقراء بصحة سلوك هذا الطريق القويم عوضًا عن البلطجة السلوكية.. أو الدوس على القيم.. بداعي انعدام الفائدة منها..

* * *

أدى الدور الذي لعبه الانفتاح الاقتصادي وتخلي الدولة عن رعاية الطبقة الوسطى من الموظفين والمتعلمين إلى تهميش نموذج الالتزام العلمي والعملي وإعلاء نموذج "الفهلوة" المصري.. كما أسهم الإعلام في بروز نجم الأفاكين وتعميق الشرخ بين الدولة بمعناها "المصري" ومعناها "الإسلامي".. ذلك كله أدى إلى تفاقم أزمات السلوك في الشخصية المصرية.. وعلى الرغم من أن ذلك كله وصل بنا إلى حال شديد التدهور فإن وقفة مع الضمير ومع الفكر وإعلاء دولة القانون مع تحسين مستوى معيشة الطبقة الوسطى ودعم العلم بأموال حقيقية فاعلة ومؤثرة.. ذلك كله من شأنه أن ينقذ مصر من سلوكيات مجتمعية.. تمثل – ولا شك – حجر عثرة في طريق النهضة والتنمية..

وأسمعك تردد: "صعبة"!!

بالطبع هو طريق صعب.. لكن أكنت تظن أن الثورة "نزهة"؟!

الباب الثالث

الأزمات المستقبلية للشخصية المصرية

مصر وعصر "الرجل الثاني"!!

علم الإدارة هو علم واسع وله أصول ثابتة.. من أهم قواعد العلم قاعدة تقول: هناك فارق بين السمات الشخصية التي تميز الرجل الأول: القائد أو المدير أو الرئيس.. والسمات التي تميز الرجل الثاني: التابع أو الموظف أو المرءوس..

* * *

الرجل الأول هو شخص يتميز بالقدرة على الابتكار والخيال الواسع والحسم في جلل الأمور.. وتتسم أفعاله بالحكمة الفعالة وسريعة التشكل.. الحكمة التي تراعي كل الأبعاد المحيطة بالمشكلة.. كما يفترض فيه قدرته على توقع الحوادث والاحتراز لنتائجها.. الرجل الأول هو قائد مفكر بمعنى الكلمة.. شجاع وجريء.. لا يتوقف عقله عن تقييم الموقف وإعادة ذلك التقييم كل فترة.. ولا يهدأ تفكيره في المستقبل.. هو لا يتقيد بقواعد صارمة.. ويبحث دائمًا عن قواعد جديدة تخدم هدفه.. وتحقق ما يصبو إليه.. لا يقبل إملاء من أحد ولا يضيق إلا بالتعليمات الجامدة..

خلافًا لذلك.. فالرجل الثاني لا يشترط فيه أيًا من ذلك.. بل إن توافر هذه

الشروط السابقة فيه قد يتعارض مع دوره المحوري في أي مؤسسة أو مكان عمل: وهو التنفيذ الدقيق – من دون تصرف – لكل ما يطلبه منه الرجل الأول أو رئيسه.. بل إن صفات الرجل الثاني تكاد تكون على النقيض من صفات رئيسه؛ فهو منفذ دقيق يلتزم بالتعليمات.. وينتظر إملاء الأوامر عليه لتنفيذها حرفيًّا.. عقله لا يفكر إلا في كيفية تطبيق الأمر على أرض الواقع.. يشغل نفسه بكيفية التنفيذ ومحاولة توفيق الوقت مع الحدث والوفاء بالمطلوب في الزمن والمكان المناسبين لكي يتفادى اللوم على التقصير.. لا يتوقف تفكيره لمناقشة جدوى التنفيذ أو مخاطره.. أو مشاكل المستقبل.. والرجل الثاني نموذج لـ"الموظف" المجتهد الذي يتفانى في كتابة التقارير على الكمبيوتر بكل دقة.. فيعنى بهجاء الكلمات وقواعد النحو.. ولا يتوقف ولو للحظة عند المعنى.. أو تأثير الكلمات على المتلقي.. كل ما يشغله أن تكون الكلمات مصاغة على نحو لغوي سليم.. وألا يتلقى – بسبب سهو منه أو خطأ ما – لومًا من رئيسه.. وعلاقته بالعمل تنتهي عندما تشير عقارب الساعة إلى موعد الانصراف!! فيجمع حاجياته وينصرف لمنزله بضمير مرتاح وقلب سعيد ونفس هانئة تشكر الله أنها أدت ما عليها بأمان وهدوء ودون "مشاكل"!!

لهذا يمكننا أن نتخيل أن الرجل الثاني بطبيعته لا يصلح أن يكون رجلاً أولَ.. وأن ذلك لو حدث فأول المتضررين هو العمل نفسه.. العمل الذي يفقد بذلك طموح آلياته وتطور أحواله.. ويصاب بالجمود والفشل وتتوالى عليه الأزمات التي لا يتم الاحتراز لها ولا يتم حلها إلا بالمسكنات والحلول المؤقتة وسياسات

"الترقيع"!!

سمات الرجل الأول لا تضمن له النجاح دائمًا وهو في موقع القيادة.. فقد تكون الظروف أو البيئة أو المساعدون المحيطون به ممن لا يساعدون على النجاح أو يحاربونه حتى يفشل.. لكن سمات الرجل الثاني في حالة وصوله إلى القيادة هي "ضمانة" للفشل حتى لو استقامت الظروف والبيئة والمساعدون من حوله!!

* * *

شهدت مصر في تاريخها الكثيرين من طراز "الرجل الأول" في موقع القيادة.. نجح بعضهم وفشل آخرون.. اتخذ بعضهم مسلكًا منضبطًا في حكمه.. وآثر آخرون دروبًا ملتوية.. لكنهم جميعًا تميزوا بالقدرة على الابتكار والإبداع.. وعلى تحدي الظروف المعاكسة وإعادة تقييم الموقف وابتداع قواعد جديدة للعبة تخدم أهدافهم وتحققها وتحمي سفينة البلاد من الفشل.. تحميها شجاعة وحزم قراراتهم..

* * *

"محمد علي باشا الكبير" كان قد استهل حكمه وقد لمس مقاومة عنيفة من المماليك.. لم يستسلم لهم ولاستشرائهم في جنبات الحكم فجمعهم وذبحهم في القلعة.. لمس بعدها ضعف الاقتصاد الوطني فقرر تنصيب نفسه مالكًا لكل أراضي مصر الزراعية.. بدأ يبحث عن أسباب النهضة فلم يسمح لمن حوله أن يدوروا به في فلك مناقشة قصور التعليم في مصر.. وبذل جهدًا ضائعًا في تطويره والبحث عن

أسباب نهضته.. وإنما كانت المعادلة في نظره واضحة: "أين يوجد العلم؟".. "في أوروبا يا سيدي".. "إذًا فلنرسل أبناءنا إلى هناك ليحضروا لنا العلم ونبدأ نهضتنا بأنفسنا".. لاحظ حاجتنا إلى الدساتير والقوانين.. فنقل مثيلاتها من "فرنسا".. ولم يهدر الوقت في التفكير في إنشاء دستور.. أراد أن يتوسع بإمبراطوريته.. فبدأ على الفور في تطوير الجيش.. ولم يجلس يضع رأسه بين كفيه ليقبل إملاءات "الآستانة" وأوامر السلطان!!

"تحتمس الثالث" كان طرازًا آخر من هؤلاء الرجال.. قيل له إن اقتصادنا يعتمد على تجارة التوابل والبخور من بلاد "بنت" (الصومال حاليا).. وإن تلك التجارة تتهددها مخاطر كثيرة وإن الطريق لم يعد آمنًا.. لم يشغل نفسه بالمفاوضات أو فتح أسواق جديدة لمصر في دول أخرى أو مهادنة ملوك "بنت" أو ملوك الإمارات المؤدية إليها وقبول تنازلات مؤقتة بدعوى السياسة.. بل رأى أن "السياسة" تكمن في تأمين الطريق وأن هذا التأمين يعني قرارًا جريئًا شجاعًا.. خطوة خلاقة.. فتوسع بإمبراطوريته جنوبًا حتى وصل إلى بلاد "بنت"!!

الزعيم الراحل جمال عبد الناصر كان مثالاً صارخًا على تفكير "الرجل الأول".. لاحظ أننا لا نناقش صحة أو خطأ هؤلاء الرجال.. لكننا نرصد أسلوبهم..

حينما رفضت الدول الغربية تمويل مشروع السد العالي لم يستغرق عبد الناصر إلا سويعات قليلة ليصدر قرارًا تاريخيًّا بتأميم شركة قناة السويس لتمويل

المشروع من ربحها.. قرار لا يصدره إلا من يمتلك عقلاً يقيم الموقف ويتحرر من عقلية الاستسلام للإملاءات.. قرار قائد ومسئول عن قراره.. قرار من يؤمن أن هناك حلاً آخر سوى الاستسلام.. وهناك اختيارات كثيرة بين "اللافعل" و"الحرب".. قرار شجاع وجريء.. وليس قرارًا متخاذلاً مهادنًا يتذرع بالظروف والقوى السياسية الغاشمة والحنكة السياسية الزائفة..

حينما أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية مبلغًا يفوق الستة ملايين جنيه مصري في أوائل الخمسينات بعد الثورة من أجل "دعم" الحكومة المصرية.. كان رد جمال عبد الناصر على هذه "الرشوة" المقنعة ردًا بالغ القوة والحزم والإبداع في آن واحد.. لم يدُر في فلك الرفض المتشنج أو القبول المذعن.. صمت عبد الناصر وهو يقبل المبلغ.. لكن عقله الشجاع الحاسم بتفكيره الذي تميز بالتحليل والتقييم الدقيق كان لا بد أنه يعمل طوال الوقت.. وخرج هذا العقل بقرار مبتكر يليق برئيس وليس بعقل مرءوس.. قرار من لا يقبل الإملاء ويتصرف من وحي تفكيره الخاص.. قرر عبد الناصر إنشاء برج القاهرة.. الذي كان مهدًا لأكثر من 560 إذاعة ثورية في ربوع أفريقيا وبلغاتها الرسمية والمحلية.. تشجع على الثورة وترعى حركات التحرر.. برج القاهرة الذي صنف حتى اليوم أنه أكبر "لا" في التاريخ.. وأعظم رد على رشوة بالغة الخسة لحكومة ثورة ناشئة.. بصرف النظر عما آلت إليه..

اختلفت "كاريزما" السادات عن عبد الناصر.. حتى إن الناس في مصر

شعروا ببعض الفراغ في سدة الحكم.. ضاعفت من ذلك سيطرة مراكز القوى على خيوط لعبة الحكم.. وشيوع شعور الإحباط بعد نكسة **1967**.. ولكن انظر كيف لعقل "رجل أول" مثل عقل السادات أن يستغل قدراته النفسية من إلمامه بطبيعة ومفردات الرجل البسيط وذكائه الحاد في مواجهة مراكز القوى.. وطرد الخبراء السوفيت.. وإحكامه لقبضته أكثر فأكثر على هدفه الأولي وهو السلطة.. فأزاح خصومه وبدأ في الظهور بمظهر الرجل القوي.. حتى تمكن بمساعدة عباقرة التخطيط في الجيش وأبطال العبور من تحقيق النصر العسكري في **1973**.. انظر إلى العقل الذي واجه المشكلة ولم يدفن رأسه في الرمال.. واجه المشاكل بجرأة وشجاعة وحزم ونظرة لهدف في المستقبل.. فنقل البلاد كلها نقلة نوعية هائلة للأمام.. انظر أيضًا إلى هذا العقل الذي فاجأ نظراءه في إسرائيل وأمريكا بذهابه إلى الكنيست.. حتى إن فرقة إعدام إسرائيلية كاملة أحاطت بطائرة السادات لدى هبوطها في مطار تل أبيب تحسبًا لأن يكون هذا كله مجرد خدعة وأن تكون طائرة الرئاسة المصرية لا تحتوي إلا على قناصة مهمتهم حصد ساسة إسرائيل!!

ولكن..

وبنهاية عصر السادات.. كان ذلك إيذانًا بنهاية عصر "الرجل الأول" في سدة الرئاسة ومراكز القيادة في البلاد.. وبداية لعهد مظلم نطلق عليه اسم "عصر" الرجل الثاني!!

* * *

فيما رُوي عن مبارك أنه صرح لأحد المقربين له بأن أقصى أمانيه كانت أن ينهي حياته كسفير أو ملحق لمصر في إحدى البلاد الأوروبية وبالذات بلاد "الإكسلنسات" في إشارة إلى المملكة المتحدة.. ويروي مدير مكتب السادات أن مبارك عند استدعائه إلى مكتب الرئيس مال على أذن أحد الحاضرين وهو يقول له: "على الله تكون محافظة كويسة".. فيما يعني أنه كان يتوقع أن تتم ترقيته إلى محافظ لإحدى المحافظات.. فإذا به يحلف اليمين كنائب لرئيس الجمهورية!!

هذا العقل الذي لا يرتقي طموحه إلا إلى التدرج "الطبيعي" لسلكه الوظيفي.. والذي لا يتخيل أي شيء أبعد من ذلك.. هو نفسه العقل الذي تعود أن يكون "منفذًا".. قائدًا لسلاح في الجيش.. أو محافظًا أو دبلوماسيًّا بعيدًا عن سدة التمثيل الدبلوماسي.. هو نفسه العقل الذي يتوق دائمًا لتصفح "كتيب التعليمات" و"لائحة العمل".. ويبحث طوال الوقت عمن يشير عليه بما يفعل.. ويسهل تخيل فقر ابتكاره وقلة قدرته على الاختيار أو التدبر في البدائل من الحلول لمشكلة ما.. هو العقل نفسه الذي فوجئ بين يوم وليلة بأنه صار رئيسًا لمصر.. ومطلوب منه أن يرث ميراثًا ثقيلاً من الأعباء والهموم: وطن فقد قائده في اغتيال سياسي.. تغلي جنباته بصراع طائفي حاد ومشاكل سياسية معقدة بين أطراف متصارعة قوية.. ووضع اقتصادي غير مستقر.. مطلوب منه أن يكون في ذلك كله حاسمًا.. حازمًا.. صاحب رؤية مستقبلية واضحة وبصيرة نافذة تليق بـ"رجل أول"..

كان وضع مبارك وهو يأتي خليفة للسادات شبيها للغاية بوضع السادات نفسه في بداية حكمه: كلاهما كان بلا شعبية حقيقية.. كلاهما كان حلاً مؤقتًا لمشكلة فراغ سدة الرئاسة.. كلاهما كان يتلقى دعمًا شعبيًّا من منطلق رغبة المصريين في إنهاء الاضطراب وشوقهم الدائم إلى "الاستقرار".. بصرف النظر عن تبعات اختيار من "يستقرون" تحت ظله.. وفي إطار توسم الصلاحية في النائب الذي لازم الرئيس لسنوات.. فلا بد أنه أعلم الموجودين بكواليس النظام.. وأسرار السياسة والمطبخ السياسي..

كلاهما (السادات ومبارك) واجهته مشاكل وجود الحاشية القوية.. لكن تلك الحاشية في عهد السادات كانت امتدادا لعهد عبد الناصر وشكلت ما عُرف باسم مراكز القوى التي ناوأت السادات وحاولت عزله.. إلا أنه بذكائه وقدرته على اتخاذ القرار الحاسم والشجاع استطاع التغلب عليهم.. بينما جاء حظ مبارك وربما حظ مصر أن حاشيته كانت امتدادًا لحاشية السادات نفسها.. ممن كانت تغلب عليهم في تلك اللحظات الفارقة النزعة الوطنية فساندوا مبارك ولم يحاربوه.. بل وقفوا بجانبه من أجل الوطن..

روايات كثيرة في هذا المجال تتوافر.. منها أن مبارك كان غير مرتاح لمنصبه الجديد على الإطلاق.. كان ينوي القبول بعام على الأكثر في الحكم حتى تستقر البلاد ثم يترك الرئاسة.. شواهد كثيرة تؤكد ذلك.. فالرئيس السابق عُرف

عنه أنه كان يتعمد العودة من رحلاته الخارجية في مواعيد قرب الفجر.. حتى لا يصطف الوزراء للسلام عليه؛ لأنه "كان" لا يحب تلك الرسميات.. وكان بالفعل ينوي ألا يقبل بالتجديد لفترة رئاسة مقبلة.. كان صادقًا حينما قال قولته الشهيرة في أول خطاب له بأن "الكفن مالوش جيوب".. وكان – وقتها – لا يكذب حينما رفض التجديد في كواليس الرئاسة.. فإذا بدور الحاشية يظهر..

كانت الحاشية في ذلك الوقت – كما قلنا – امتدادًا طبيعيًّا لحاشية السادات من الساسة الذين لمعوا في عهده.. ممن كانت تتوافر في أغلبهم صفات "الرجل الأول" كل في موقعه ومكانه.. آثروا دعم الرئيس الجديد ومساعدته وهو الذي يفتقر إلى الشعبية والخبرة.. ويتحمل في سبيل الوطن ما لا يطيقه بشر.. فتحملوه معه.. لكن جاءت الأزمة حينما اقتربت مدة الرئاسة الأولى من النهاية.. وبدأ مبارك يعلن في الكواليس عزمه عدم التجديد..

كان دور الحاشية في هذه الحالة أن ينبهوه إلى أخطائه التي بدأت في التراكم.. فمستوى التعليم والصحة لم يكن في أحسن حالة في تلك الفترة من 1981 إلى 1987.. كما أن معدلات الدخول لم تتحسن.. وكذلك البطالة.. وتحجيم التضخم والحد من القرض الخارجي.. كلها مشاكل كان يبدو أن الرئيس إما لا يعير لها بالا وإما – وهو الأغلب – يفتقر إلى الحلول الناجحة لها.. إطلاق يد الأمن بداعي مكافحة الإرهاب وتوسع سلطات أمن الدولة.. كلها ظواهر كانت تحدث بمباركة

مبارك وتحت سمعه وبصره وسمع وبصر حاشيته.. فماذا فعل هؤلاء؟

كان واجبهم - وهم يمتلكون من القوة النفسية والسياسية ما يكفي لذلك - أن ينبهوه وأن يصارحوه بهذه المشاكل.. وهو غير القادر على إدارة وطن بهذا الحجم.. وهو غير المتلك لحضور قوي يكفي لذلك.. أو لفكر مناسب أو عقل خلاق.. قادر على احتواء الأزمات.. كان ذلك كله ضروريًا لمصلحة الوطن.. ولكن انظر ماذا حدث.. أحد هؤلاء الحاشية من كبار ساسة مصر قالها لمبارك صراحة: "إزاي تمشي دلوقتي؟ هتسيب البلد لمين؟".. الأدهى والأمر من الجملة نفسها هو الطريقة التي قيلت بها.. فقد كانت الجملة تقال في حماس ولهجة من ينهر من أمامه لتضيف إقناعًا وقوة..

تكرر هذا السيناريو - حسب الروايات المتواترة - في نهاية الفترة الثانية لمبارك في 1993.. دون أن تتحسن أحوال البلاد بشكل يبرر أن تتمسك به قوى سياسية بهذا الشكل.. لم يكن هناك في أحوال البلاد ما يبرر هذا الأمر أو يبرر عدم ظهور قوى سياسية قوية ولا امتداد حكم مبارك لفترة أخرى.. اللهم إلا إذا كان إصلاح البنية التحتية والتوسع في إنشاء المساكن مبررًا لذلك.. وحتى هذا الأمر تمت المبالغة فيه.. فلم يكن لهذا الأمر انعكاس مباشر على حل أزمات الشباب في المسكن والزواج.. ولم يقتطع من حل الأزمة السكانية التي كان مبارك يعتبرها مشكلة كبرى.. لا تغريه باستغلال الثروة البشرية في أي مشروعات قومية أو تنموية.. بل إن هذه الفترة شهدت استوزار من لم يسهم في حل هذه المشاكل.. فالرجل الذي هو

في سدة الحكم اختار رجالاً من عينته ونوعه.. وحرص على ألا يكون هؤلاء ذوي رأي مستقل.. أو شجاعة قرار.. أو قدرة على ابتكار.. فهذا يحرجه ويظهر طبيعة "الرجل الثاني" في شخصية الرئيس..

بالتدريج بدأت الحاشية نفسها ومن حولها ممن يستعدون للانقضاض على أماكنهم تدرك بحسها أن الرئيس لا يستطيع العمل إلا من خلالهم.. ولا يعتمد على فكره الخاص.. أو خياله الخلاق.. أو رفضه للإملاء وقدرته على تقييم الموقف.. بل وأدركت أن الرغبة الملحة لمبارك في ترك الرئاسة بدأت تخف وتضعف فبدأ من حوله يوهمونه أنهم سوف يساندونه بالشورى والمساعدة..

كانت هذه هي لحظة تحول الدفة من "عصر الرجل الثاني" الذي يسانده رجال "أوائل" يمنعون الدفة من الانحراف إلى طريق التنازلات والإملاءات قدر المستطاع.. ويفيضون بفكرهم الحر على "الرئيس" وشخصيتهم الوطنية القنوع التي اختارت "الظل" من أجل الوطن.. إلى "عصر الرجل الثاني" الذي قفز على أكتافه رجال من نوعه نفسه.. ليس لهم العمق الوطني نفسه.. يتقلدون المناصب والحقائب الوزارية بعقلية التبعية نفسها.. فهم إما في انتظار "توجيهات الرئيس" التي لا تأتي بإبداع.. وإما يسيرون بالأمور إلى ما يضمن بقاءهم.. فيرضون غرور الرئيس ونزعة "الأنا" لديه.. فهو القائد والزعيم ولتذهب مصالح الوطن إلى الجحيم.. ما دام اليوم ينقضي بسلام والرئيس راضيًا وقانعًا ! !

راق لمؤسسة الرئاسة هذا النوع من الرجال.. لا بد أن خنوعهم ورضاهم جاءا على هوى الرئيس ورجاله.. وبالتدريج بدأت قواعد اللعبة تتضح: "لا تكن صاحب رأي.. كن سكرتيرًا وليس وزيرًا.. كن تابعًا وليس مسئولاً.. واضمن لنفسك مكانًا في جمعية المنتفعين من دائرة الرئيس!"..

كان هذا هو الماضي الذي ولى.. ولكن هل ذهب الماضي بغير رجعة؟

إن امتلاء مناصب الدولة ومؤسساتها بنوعية الرجل الثاني هو أثر واضح من آثار النظام السابق.. نرى هذا في افتقاد الوزارة بعد الثورة عنصر الشجاعة في التغيير.. وفي عدم تفعيل مطالب الثورة إلا تحت ضغط الحشود والاعتصامات.. ساعد على ذلك الإحباط المزمن الذي أصاب القيادات الخلاقة والعقول المفكرة.. وسيطرة الجمود على آليات مؤسسات الدولة بحجة الاستقرار.. فصارت حركة "ديناصور" الدولة بطيئة متثاقلة.. زاد من صعوبة حركته أيضًا انتشار الرشوة والفساد وإعلاء قيمة "الفهلوة والوصولية" على الكفاءة..

جاء ذلك واضحًا للعيان في تأخر وغياب الحزم الأمني والسماح بالانفلات الأمني بعد الثورة ليتطور حتى يصبح مشكلة حقيقية.. والتراخي في تلبية رغبات الاعتصامات الفئوية والوطنية.. وترك الجو مهيأً "للانفجار".. في ظل غياب موقف رسمي وشجاع ومطمئن من قضايا أهالي الشهداء.. حتى لم يتم تجنيب مصر أحداث 28 يونيو من تصادمات "مسرح البالون" والاعتداء على وزارة الداخلية.. التي تطورت

إلى اشتباكات التحرير في 2 يوليو 2011.. حين اعتدى البلطجية والباعة الجائلون على المعتصمين.. فما كان أحوج البلاد قبل ذلك إلى استباق الأحداث من توقع لانفجار الأزمة بدلاً من انتظارها.. مما فتح الباب – كعادتنا لفتح باب الاجتهادات في تفسير الأسباب والدوافع – لنظريات المؤامرة.. دون النظر للأسباب التي أدت لاشتعال الموقف.. حتى جاء رد الفعل متسقاً كالعادة مع رد فعل "الرجل الثاني" بامتياز.. في صورة بيانات الحكومة يوم 6 يوليو 2011 الصادرة عن مجلس الوزراء.. وكأن درس تأخر الرد وتباطؤ رد الفعل لم يستوعبه أحد بعد بيانات مبارك إبان الثورة.. التي حملت توقيع "رجل ثانٍ" هي الأخرى بوضوح!!

مشهد مصر السياسي الآن مليء بالرجال "الثواني".. هذا هو إرث مصر بعد مبارك.. وبه أيضًا بارقة أمل تتمثل في وجه جيل شاب جميل قرر وتقدم للأمام في شجاعة.. سار عكس التيار في بسالة.. خرج للميادين ليقول رأيه وليغير بدمه البلاد نحو الأفضل.. دم الشباب الحي هو الذي سينقذ مصر من أن تظل أسيرة لعصر الرجل الثاني..

عقل الشباب هو أمل مصر..

والشباب ليس "سنًّا" ولا "زمنًا".. وليس بالضرورة تهورًا ولا نقص خبرة..

الشباب هو روح.. وإرادة.. وشجاعة..

ومن دون تلك الروح والإرادة.. من دون الشجاعة والشخصية المستقلة..

فسوف تنتظر طويلاً حتى تدخل ذلك العصر الذي افتقدناه منذ زمن.. عصر الرجل الأول!!

أما إذا كنت فهمت من كلامي أنني أنشد رئيسًا مصريًّا ذا "كاريزما" قوية.. فاقرأ معي الفصل التالي من فضلك..

كاريزما الثورة.. وبالروح والدم!!

تسأل في استطلاع طبيعي أصدقاءك ومعارفك في ود: ترى من ستنتخبون رئيسًا لمصر؟

الطبيعي – أو هكذا يخيل إليَّ – أن تسمع اسمًا ما.. يليه مدح وتبرير لدوافع الاختيار.. كأن يقول أحدهم: "فلان طبعًا.. فهو كذا وكذا.. وميزاته أنه كذا وكذا".. لكنك تفاجأ برد فعل مغاير وكلمات مخالفة تمامًا لتوقعاتك.. فعادة يبدأ كل واحد في تكثير مساوئ المرشحين.. وتوضيح عدم جاهزيتهم.. وعدم اقتناعه بفلان ولا فلان.. ثم ينتهي الأمر بنتيجة شبه ثابتة.. لا تتغير من مجلس لآخر.. وهو أنه لا يوجد في الحقيقة مرشح مناسب.. الغريب أن الدافع ليس تعدد المرشحين وظهور الكثيرين من "المغامرين" أو راغبي الشهرة الذين رشحوا أنفسهم للرئاسة.. ربما على سبيل الدعابة.. فالناس في مصر بدا وكأن هؤلاء لم يثيروا فيهم حتى الرغبة في السخرية.. وكأن الأمر لا يستحق حتى الدعابة.. وكأن تفاهة الحدث ومَن وراءه لا ترقى حتى لمستوى يستحق النقاش.. والأغرب من ذلك أن الكثير من تلك

المجالس الشائعة على مستوى الكثير من سواد شعب مصر وحتى بعض "النخب" المثقفة والمتعلمة تنتهي بما يشبه الإجماع على أن "رئيس مصر القادم لم يظهر بعد"!!

إذا كان قد تبادر إلى ذهنك أن خطورة هذا الأمر تقتصر على تهديد قناعات الجماهير بالرئيس القادم.. على أساس أنه لن يرضي طموحها ولن "يملأ" الصورة الفكرية للزعيم أو القائد.. إذا كان ذلك قد خطر ببالك فأنا أؤيدك ومعك تمامًا.. لكنني أضيف لك معنى آخر أكثر أثرًا وعمقًا.. لكنني قبل أن أصرح لك به أذكرك بقول حكيم هو بيتر دراكر (أبو علم الإدارة الحديث): "تسمع الكثير جدًا حاليًا عن (الكاريزما).. ونرى الكثير من الكتب التي تتحدث عن (القيادة الكاريزمية).. إنه نوع من الحنين إلى الأيام التي كانت فيها السياسة مثيرة وبراقة.. غير أن السعي إلى (الكاريزما) اليوم هو أمنية الوفاة السياسية"!!

* * *

هل نحن تواقون إلى زعيم يحمل "كاريزما وطنية" نلتف بها حوله؟

هل هذا مفيد لمستقبل مصر؟ وما البديل لـ"الكاريزما" إذا استغنينا عنها كصفة من صفات الحاكم؟

حينما اندلعت الثورة المصرية كانت هناك مشاهد كثيرة أكدت أننا كشعب عربي وكمصريين تواقون حقًا إلى زعامة ذات "كاريزما"..

في الأردن وفلسطين وميادين مصر – ومنها التحرير – نقلت لنا الفضائيات صورة محمولة يزج بها حاملها في وجه الكاميرات.. هي صورة للزعيم العربي الراحل جمال عبد الناصر.. لا نرى ترابطًا بين ذلك وثورة على نظام فاسد.. وحكومات مصرية متعاقبة أدخلت الوطن في نفق مظلم من الجمود والتخلف.. سوى رابط التنكر لمشاكل الأمة العربية.. ورابط سخط العرب والمصريين على نظام أدار ظهره لمشاكل المواطن المصري البسيط بالجرأة نفسها التي أدار بها ظهره للعربي الذي يقع تحت نيران الاحتلال ويقاسي محنة غلق الأنفاق.. لكن تكرار المشهد في ميدان التحرير وغيره من ميادين مصر كان يلح بالسؤال على العقل: "هل نفتقد الزعامة ذات الشخصية الوطنية الطاغية و(الرجولة) السياسية والشجاعة والحسم في المواقف؟ هل من الضروري أن تكون هذه الشخصية ذات "كاريزما".. أم أن ذلك ليس ضروريًا؟"..

* * *

عندما ارتفع سقف المطالب الذي بدأ مكتفيًا بالتغيير والحرية والعدالة الاجتماعية ليصل إلى إسقاط النظام.. بدأت فكرة الحاجة إلى زعامة قوية تنزل إلى الميدان وتقوم بدورها في توحيد الصفوف وقيادة الثورة تدب في عقول المصريين في الميدان وخارجه.. حتى إن قناة الـBBC عبرت عن ذلك عندما سألت السيد عمرو موسى سؤالاً صريحاً عما إذا كان مستعدًا للنزول للميدان وقبول قيادة الثورة وتولي

الرئاسة.. فأجاب باستعداده إذا طُلب منه ذلك.. هذا التساؤل لم يقتصر على البسطاء ولا على الفضوليين من الإعلاميين.. بل إن فنانًا جماهيريًّا مثل المصري أحمد بدير صرح في أحد برامج الفضائيات خلال شهر رمضان (أغسطس 2011) برغبته في تولي عمرو موسى الرئاسة لأنه له "كاريزما" جماهيرية قوية!!

بل إنه وعلى الرغم من أن الثورة نفسها كانت عملاً جماهيريًّا وشعبيًّا عامًّا قام به الشباب وأيدته جموع الجماهير التي نزلت إلى الشارع معهم فإنك تشم في الهواء رائحة الاشتياق إلى قائد أو بطل.. حدث هذا في بدايات الثورة عندما تساءل الناس والإعلام عن قائد هؤلاء الشباب فلم يجدوا اسمًا محددًا.. وبعدما تكاثر عدد الائتلافات وانضم الكثير من الانتهازيين يرتدون رداء الثوار وتتضارب مطالبهم أحيانًا بدأ الناس يرددون جملاً شهيرة تستنكر انقسام الثوار فيمن بينهم استنكار من يريد "كبيرًا" يتحدث إليه.. ومنها: "هم مالهومش كبير".. و"مش بيتفقوا مع بعض ويعملوا حاجة واحدة ويبقى لهم ريس واحد".. وعندما تكررت وطالت الاعتصامات بعد التنحي لم تعد المناقشات تتطرق للمطالب أو الأسباب وراء الاعتصام أو المليونية بقدر ما تتركز حول شخصية القائد المنتظر وهويته وموعد ظهوره..

وحتى عندما بدأت مطالب الثورة تتحقق رويدًا رويدًا وتؤتي المليونيات والإصرار الشعبي ثمارها.. تكاد تحس من العيون والتعليقات أننا جميعًا نحس أن

النصر غير كامل وكأن مكاسب الوطن غير كافية.. وكأن تنصيب كل منا بطلاً في ذاته زعيمًا في ميدان الوطن لا ينفصل عن إخوته في النضال وشركائه في الزعامة.. ذلك كله لا يغنينا عن رؤية البطل والزعيم الخفي بأعيننا ولمسه بأيدينا.. فنحس ساعتها وساعتها فقط أننا قد اكتملت لدينا مقومات هذا العمل وصار النصر حقيقة!!

هل ما زالت صورة الأب والقائد والزعيم هي مرادفات لشخصية واحدة؟

هل ما زال المصريون لا يرون في حاكمهم إلا شخصًا أعلى.. أذكى.. أقوى شخصية وأكثر حكمة؟

هل ما زلنا بعيدين عن الدولة العصرية التي يحكمها رئيس له صلاحيات محددة لا يستطيع فعل المعجزات وحده.. ولكن ينجزها بمساعدة مؤسسات الدولة وتعاون وزرائها ومسئوليها وشورى أبنائها وإرادة الحشود التي لها من آليات الفعل ما يضمن تنظيمها وتوصيل صوتها لمن يترجم الرغبات المشروعة إلى خطط والآهات في الصدور إلى دواء ناجح لآلام الوطن؟

هل ما زلنا "نستجدي" حقنا؟ لذلك نبحث عمن هو أعلى وأعظم من "المواطن" العادي.. شخص له حضور طاغٍ وشخصية قوية "تستحق" أن "نستجدي" حقنا منه؛ لأننا لا نعرف طريقة أخرى؟

* * *

سيكون – ولا شك – من سوء حظ مصر أن يقودها مثل ذلك الشخص ذي

الكاريزما.. فنحن شعب نجيد صناعة "الفرعون" ولا نعرف وسطًا في أن نطلب حقوقنا بأدب وشرعية وأن نطلب حاجاتنا بعزة نفس دون أن ننجرف إلى "الثورة" إلا على ظالم باغٍ في ظلمه.. ولا إلى المداهنة؛ لأن الوسطية أو الندية في التعامل "عيب" لا تسمح لنا أخلاقنا باحتماله!!

* * *

شخص عادل دون "كاريزما".. شخص يؤمن بدولة المؤسسات.. حاكم رشيد ذو ضمير وطني.. رئيس يجبرنا على التعامل معه بندية الحاكم والمحكوم دون مغالاة.. هذا ما نتمناه!! أما شخص تتسع العيون من الفرحة لمرآه وتتسع الأفواه عجبًا لحكمته.. فأبشروا أن مجيئه سوف يدشن أفول دولة المؤسسات بالتدريج.. وتهميش دور المعارضة مرة أخرى.. والعودة إلى عصر "الرئيس الأب والقائد والزعيم".. وبداية عهد "بالروح بالدم نفديك يا ريس".. وهي بالفعل كما قال بيتر دراكر: أمنية الوفاة السياسية!!

* * *

وبالروح والدم.. تسقط الكاريزما!!
محاكمات آل مبارك ونظامه..
ويد السلطة المرتعشة!!

كيف تكون مشاهد محاكمة مبارك.. مشاهد الفرعون ونجليه في السجن وراء القضبان.. ووزير عسسه المفضل يقف مشدوه الوجه يحملق في المشهد أمامه وقد استغرق في دور الوزير ناسيًا أنه متهم.. يفيق الجمع كل فترة على استفهام القاضي عن حضورهم.. فيردون بعبارة دخلت التاريخ: "موجود يا أفندم".. كيف تكون هذه المشاهد دافعًا للأمة للأمام؟ كيف نتخلص من "الأعراض الجانبية" للمحاكمة التي تراوحت في الأغلب بين ردي فعل لا ثالث لهما: إما الشماتة الشديدة وإما التعاطف الشديد؟ وكيف نتجنب السلبية المخيفة التي قد تنتج عن ذلك.. والتي ربما لا ننتبه لها الآن بل نصحو على رنين إنذارها الهادئ بعد سنوات: يد رخوة للدولة في كل مجال.. وأيادٍ مرتعشة للحكومة.. وحاكم يجعل كل همه أن يرضي الشعب ولو على حساب الحق والمنطق.. ولو من جيوب الوطن أو من رصيد آماله ومستقبله؟

* * *

كان من المفترض من مشاهد المحاكمة التي جاءت ولا شك تحمل في طياتها الصدمة للجميع: من نادى بها ومن رفض فكرتها.. من توقعها ومن استبعد حدوثها.. كان من المفترض من هذه المشاهد أن تحمل إلى عقولنا اللاواعية رسائل محددة وواضحة.. نرثها ونورثها إلى أجيالنا المقبلة.. رسائل صوتها أعلى من ضجيج النقاش حول جدوى ونفع وفائدة هذا أو ذاك.. هديرها أقوى من زخم النقاش حول الاتهامات وفحوى الادعاء وخطة الدفاع أو نتيجة المحاكمة والرضا أو السخط على الأحكام ومن يتحمل نتيجة ماذا.. هذه الرسائل التي تقول بوضوح: إن مصر الثورة اختارت سيادة القانون فوق غريزة الانتقام.. إن مصر الثورة تحمي أعداءها بمحاكمة عادلة.. ولا تظلمهم بمحاكمات ثورية صورية.. وهي بذلك - أي مصر الثورة - قادرة على أن تحمي أبناءها أيضًا كما حمت أعداءها..

رسالة أخرى بالقوة نفسها هي أن الحاكم عرضة أيضًا للحساب.. وهي ليست سوى تفصيلة من سطور الرسالة الأولى؛ إذ إن إعلاء سيادة القانون يكون فوق الأشخاص.. كل الأشخاص أيًا من كانوا.. ولا يتغير الأمر لو كانوا حكامًا أو زعماء عمًا إذا كانوا مواطنين لا يحملون تلك الألقاب أو الوظائف..

لو كانت هاتان الرسالتان قد وصلتا لوعينا الجمعي.. لكنا فهمنا أن الأمر لا يتمحور حول ما إذا كانت التهم ثابتة أم لا.. حول ما إذا كانت نتيجة المحاكمة هي إدانة أم براءة.. عما إذا كان مبارك ورجال نظامه أقرب إلى هذه الناحية من

القضبان أو تلك.. لكن الأمر يتمحور بالفعل حول حقيقة واحدة هي أن المصريين متى وجدوا أدلة كافية لاتهام شخص ما ومساءلته فإنهم يملكون دولة ومؤسسات وهيبة وطن وقوة ثورة نبيلة.. لا تستطيع أن تهز عدالة آلية القسطاس في مصر.. ولا تفلت متهمًا من سؤاله.. ولا من حكم يستحقه.. كما لا تدين بريئًا بما لا يستحق تحت ضغط الشارع.. لا تسمح لنفسها باستعجال التقاضي.. أو السير به في دروب "الاستثناء" أو "الثورية".. بل ترتضي "الحق" و"العدل" في التقاضي منهجًا.. كما ارتضت قبله "الحق والعدل" شعارًا لها.. تراق من أجله دماء الشهداء ويضحي في سبيله الثوار بحياتهم عن طيب خاطر!

لكن أغلب الناس في مصر اندفعوا إلى الشماتة بعنف.. فتجد التعليقات في كل مجلس تعرب عن الشماتة في مبارك وابنيه وفي وزير داخليتهم ومساعديه.. وعبارات التشفي تملأ المجالس وصفحات الـ"فيس بوك".. بل إن صاحبها قد يذيِّل تعليقه بقوله "اللهم لا شماتة".. ربما للتنصل من نغمة التشفي التي تكون أوضح من أن يمكن إنكارها أو التغطية عليها.. كثيرون أعربوا سرًّا وعلانية عن أمنيتهم الواضحة أن يلقى المتهمون جزاء الإعدام على أفعالهم.. آخرون اكتفوا بذكر الآية الكريمة: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).. لكن قليلين من هؤلاء من توقف عند كل المعاني التي اشتملت عليها الآية الكريمة.. بل إن أكثرهم

اكتفى بالتعليق عليها من وحي (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) وحده دون غيره.. مما صب بدوره في خانة الشماتة والتشفي..

آخرون كان شعورهم وحديثهم ورد فعلهم تتسم بالنقيض تمامًا.. فهم نددوا بمشهد "الأب" الذي سمح شعبه للأمور أن تتطور بأن يحاسَب بهذا الشكل.. وبمشهد "الشيخ" الذي نضعه في موضع ذل وإهانة.. وأعلنوا تعاطفهم معه.. إما عن تعاطف مع إنسانية المشهد لمريض مقعد يربو على الثمانين خريفًا ويحاسب ومعه ابناه.. اللذان يحاولان درء أعين كاميرات الفضوليين عنه.. وإما عن إيمان مطلق ببراءته وخلو ساحته وعدم استحقاقه إلا لكل معاملة كريمة بناء على تاريخه الوطني وسجله العسكري في الدفاع عن أرض الوطن.. وفي طلب الانتصار له..

* * *

الشعور الذي نخشى أن يكون قد وصل لمرشحي الرئاسة ولرؤساء مصر القادمين ولمسئوليها الحاليين والمستقبليين الذين لا يبدو أن عددًا كبيرًا منهم قد عاش تلك اللحظة التاريخية بوجدانه وعاطفته.. لحظة "ملك مصر" و"فرعونها" وهو يحاسب على اتهامات الشعب له.. لحظة تستبدل فيها بألقاب "السيد الرئيس" و"فخامة الرئيس" و"سيادتكم".. سؤال نمطي رسمي خالٍ من الود ومن التزلف.. سؤال يجيب عنه مضطرًا.. يرفع صوته قسرًا وهو يقول: "موجود يا أفندم!"..

ما هذا الشعور السلبي الذي نخشاه ونرجو ألا يتأصل في عقل ونفس كل

مسئول مصري؟

إنه الشعور بالخوف من الحكم ومن الإدارة ومن الاضطلاع بواجبه..

هذا الخوف من أن يلقى مصير مبارك ونظامه يعني شيئين.. أولهما: أنه لم يفهم أنهما – أي مبارك ونظامه – قد أخطآ في حق الوطن بجرائم هائلة وفظائع سياسية واجتماعية حقيقية.. فالتهمة وجيهة.. ولذا يتوجب التفكير في كيف ألا نتورط في فعل مشين كذلك وليس في الخوف أن نحاسب مثله.. فنحن بذلك إما ننكر وجاهة التحقيق في التهمة وإما ننكر قدرتنا على عدم التورط فيها مرة أخرى!!

الشيء الثاني الذي يثبته شعور الخوف من مشهد المحاكمة لدى أي مسئول مستقبلي هو أن المسئول المستقبلي لمصر سيبدأ في التفكير في كيفية تجنب هذا المصير.. لا بانتهاج الحكم الرشيد والبعد عن الفساد.. بل بانتهاج الحكم "المائع" الذي يتجنب الحسم والذي يعتمد على اليد الرخوة التي لا تصدر عنها نتائج ولا تترجم أفعالها إلى واقع ملموس ولا قرارات حازمة خوفًا من المساءلة ورعبًا من تهمة قد تلتصق بصاحب القرار فتورده كل مهلك.. وصاحب هذا التفكير لا يدرك أن هذه "الرخاوة" ومداهنة الجماهير ومغازلة مزاجها لا تقدم ولا تؤخر شيئًا.. فنحن بتلك المحاكمات نؤسس لمبدأ "سيادة القانون" الذي يطبَّق على الجميع.. وليس الذي يخيف الجميع أو يقيدهم.. بل الذي يحميهم تحت مظلته ويبطش بمن يخرج عنها..

نحلم بألا يدخل الحاكم في دائرة الخوف من الشعب.. فهي دائرة غير مبررة.. ليس معنى أن الفاسدين والظالمين قد دخلوا إلى قفص الاتهام ويخضعون لعدل القصاص أن ذلك كان بسبب ضغط شعبي أو أن ذلك لا بد أن يتكرر مع أي شخص.. لقد رأينا بالفعل وزراء في حكومة شرف الأولى لا يندفعون في قرارات جريئة.. بل ويحجمون عن اتخاذ الضروري منها.. وحجتهم التي أعلنها بعضهم وفاحت رائحتها من بعضهم الآخر هي أنهم يرون أمثالهم من الوزراء قيد التحقيق عند النائب العام وفي النيابة العامة لم يرتكبوا جرمًا ولم يقترفوا إثمًا.. فلماذا التورط في المشاكل؟ ولماذا المخاطرة؟

* * *

بيد أن مسئولي مصر المستقبليين سيكونون مطالبين بغير ذلك..

أما وقد فهمنا الانعكاس السلبي وانتقدناه كما في المثال السابق.. ورأينا كيف يتورط الحاكم والمسئول في الخوف من الجماهير وهو يجب أن يخاف عليها.. ويخاف من مبادئ الحق والعدل والضمير ويخشى شيئًا آخر غير تعاليم الله في الإخلاص في موقعه ومنصبه والاضطلاع بمسئولياته.. فإن فعل ذلك هانت في نظره مخاوف "ضغط" الجماهير.. وأشباح النائب العام والقفص والمحاكمة.. أما وقد فهمنا ذلك فلننظر كيف يكون الانعكاس الإيجابي لدروس محاكمات الثورة في عقول المسئولين والحكام في مصر.. ومن أمامهم ومن خلفهم.. ثورة أطاحت بالنظام

وأدخلته قفص الاتهام لتحاكمه محاكمة عادلة..

* * *

ستظل الحركة الشعبية وطبيعة الثورة الشابة تسيطران على شخصية الجماهير التي اتسع عقلها للفكرة فلم يعد مقبولاً الرجوع عنها: "نحن بشر لنا حقوق.. وهذا وطن نريده أفضل.. وهذا حقنا وحقه".. ستظل شخصية الجماهير الشابة الثورية نابضة بالإحساس.. بكرامة الذات ووجاهة القيمة الشخصية.. لن تقتحمها أحاسيس الدونية.. أو الاستسلام للواقع المفروض واحتقار الذات مرة أخرى..

في تقديري أن مستقبل إدارة مصر من أي موقع هو "إدارة الإرادة الشعبية".. بمعنى إرساء قاعدة الاستماع والتواصل مع إرادة الجماهير وتدبير طرق أو "آليات" لدراسة وتطبيق وتفعيل هذه الإرادة بشكل يناسب الوقت والظرف والحدث.. يدعم ذلك كله إيمان وطني مخلص بالمصلحة العامة وليس الخاصة.. وإدراك كامل للقوانين الحاكمة لذلك كله.. وفوقها – وهو الأهم – القوانين الإلهية التي تنظم التعامل مع هذا برمته..

هكذا لا تكون "إدارة الإرادة" هي "خضوعًا للإرادة" بدافع الضعف أو الخوف أو درء المحاسبة عن الإخفاق.. بل تكون ضمانة لتلمس حاجة الجماهير وأفكارها وصياغتها بما يضمن مصلحة الوطن كله..

ونزعم أن هذه الضمانة هي في حد ذاتها طريق الضمير للنجاة من أي مأزق قانوني.. فمن الذي يعمل بضميره وقلبه والتزامه القانوني والديني ثم يتورط فيما يشينه أو يدينه؟

* * *

أيها المسئول المحتمل لمصر.. في أي موقع..

لو أن محاكمة مبارك أخافتك وأقنعتك بأن أي قرار حاسم حازم من جانبك وأي إهمال لمداهنة الشعب قد يدخلك في دوامة المساءلة وغياهب السجن.. فاسمح لي أنك لا تعتقد في عدالة المحاكمة ولا تؤمن بسيادة القانون..

وأيها الأخ المصري أو الأخت المصرية..

شماتتك المفرطة أو حزنك المبالغ فيه على مشهد المحكمة هو أيضًا إنكار لعدالة المحاكمة واستباق لرد فعل على شيء لم يحدث بعدُ. فلا تفترض حدوثه.. وإلا فإنك أيضًا لم تستوعب بعدُ سيادة القانون وعدالة آلية التقاضي في مصر الثورة..

لا تبالغ في الشماتة.. فإن الشعوب المقهورة إذا تكلمت لم تعفُ ولم تصفح..

لا تفرط في التشفي.. فإن الدول الضعيفة إذا تحدثت لم تسكت..

لا تفرط في الحزن أو التحزب لبراءة نظام.. فإن العدل ضمان للحق.. فليأخذ كل ذي حق حقه.. ولنحتفل معًا بأننا نحن المصريين لدينا القدرة على أن نحاسب من يقف موقف الاتهام محاكمة عادلة..

ليأخذ كل ذي حق حقه.. وليكُن المستقبل ضمانة أن نفعلها مع كل من يخرج عن الحق ويحيد عن مصلحة الوطن قاصدًا متعمدًا.. دون خوف من حاكم.. دون خوف من محكوم.. هذا هو دستور الوطن في غده..

هذه هي مصر العظيمة التي ما فتئت تكتب التاريخ..

وها هي ذي تكتبه مرة أخرى..

وهذا هو ما يجب أن نستفيده من المحاكمات.. وذلك ما نتعلمه منها.. لغد مشرق شجاع عادل مصري!!

مصر وقانون "اشمعنا"
وجبروت "صاحب الكورة"!

مفهوم دولة القانون التي نريدها في مصر لا يعني فقط أن تسود القوانين ويتم تطبيقها على كل الناس فيصبحون متساوين أمام القانون مهما علا قدرهم.. لكنه يعني بالضرورة أيضًا أن يسود مفهوم القانون بمعناه السلبي والإيجابي معًا.. فلا يقتصر الأمر على نيل الحقوق بالقانون.. وعقاب المخطئ بالقانون.. ولكن يصبح القانون أيضًا وسيلة للحفاظ على الحقوق التي يكفلها لأي فرد.. مهما بلغت درجة استفادته الشرعية من هذا القانون.. لميزة ما أو حق تكفله له التشريعات.. فنرتاح بهذا من كثير من الجدل الثائر باسم "العدالة" و"المساواة".. ويصير الالتزام بالقانون هو طريق التحاور حول وجاهته وإمكانية تطويعه للمصلحة العامة من دون أن يتحول الأمر إلى القصاص من كل ذي ميزة أو سلطان أو مال باسم الحق والمساواة.. بل يصبح القانون هو الحكم والمرجعية في كل أمورنا..

يبدو الأمر منطقيًّا.. أليس كذلك؟ إذًا فسوف تندهش من السطور التالية.. كم نحن بعيدون بفكرنا عن ذلك..

* * *

أبسط مثال على ذلك.. وكيف نطبق القانون بمعنييه السلبي والإيجابي.. وكيف يصبح دافعًا للتميز والعمل الجاد في كل شرائح المجتمع.. بحيث تطوع الأمة القانون في خدمة نهضتها.. فيسير المواطنون في حماية من إنكار ميزاتهم المكتسبة.. ومن سرقة حقوقهم مهما كانت بسيطة.. نقول: إن أبسط مثال على ذلك هو قواعد لعبة كرة القدم!!

هل يستطيع لاعب في أثناء المباراة مهما بلغت شهرته أو قيمته أو مهاراته وجودة أدائه أو حب الجماهير له أن يضرب زميلاً له فينتقص منه حقه وهو الاستحواذ على الكرة.. وينطلق بها ليحرز هدفًا لفريقه؟ بالطبع لا.. وحتى لو اعترض الجمهور على احتساب خطأ على هذا اللاعب تعاطفًا معه أو تعصبًا لفريقهم.. هل من المقبول أن يستجيب الحكم لذلك؟ إن من صفات الحكم العادل - الذي يمثل القانون هنا - أن يحتسب خطأ على اللاعب.. وهو هنا يعيد الحق لأصحابه بقوة القانون.. وأن يلغي الهدف إذا كان غير صحيح.. كما هو في ذلك الموقف.. وهو بذلك يلغي المكسب الذي ترتب على المخالفة القانونية.. وليس من المقبول الاعتراض على قراره مهما بلغ تعصب الجماهير.. ومهما علا صراخها وزئيرها.. ومهما تورطت عناصر من تلك الجماهير في محاولة إثارة الشغب.. ردًّا على قرار لم يعجبها.. فالقرار لا يتغير.. بل إن هذه الجماهير تعرِّض نفسها للعقاب إذا تمادت في الاعتراض.. وفي الأحوال كلها فالقانون هنا كالقاعدة.. هو أمر معروف.. وقواعد اللعبة واضحة ومعلنة من قبل.. ولا تنكسر أبدًا مهما علا شأن

المخطئ!!

هل يمكن أن يكتفي فريق من اللعب قبل النهاية بعشر دقائق مثلاً ويغادر أرض الملعب حفاظًا على فوز تحقق واكتفاء بما تم إنجازه أو طلبًا للراحة مثلاً؟ هل يستطيع لاعب أن يتناول طعامه في أثناء المباراة لإحساسه بالجوع؟ بالطبع لا.. فقواعد اللعبة صريحة.. ووقت المباراة محدد.. وسلوك اللاعبين خلالها تنظمه اللوائح وعقوبات الخارج عنها أيضًا معروفة..

بالتأمل في هذه الأمثلة نجد أن القانون هنا يحمي حق اللاعبين بتوفير سلوك معين وقواعد محددة للعبة.. يتم عقاب الخارج عليها.. وإعطاء الحق للطرف الآخر.. طالما تم الاتفاق مسبقًا على هذه القواعد.. دون النظر لما إذا كانت هذه السلوكيات تضر بالمباراة من عدمه.. فلا معنى هنا لأن نقول: وما الضرر من لاعب أحس بالجوع فتناول شطيرة أثناء اللعب؟ أو: وما الخطأ في اختصار المباراة عشر دقائق.. والفارق خمسة أهداف لا يمكن تعويضها.. والمباراة نهائي كأس.. لا يفيد معه تقليص الفارق.. تحسبا لفارق الأهداف في المستقبل.. كما أن القانون لا ينظر إلى رأي الجمهور في وجاهة تطبيقه.. فيعاقب اللاعب المخطئ.. أيًا ما كان محبوبا أو مضطرًا أو "يستحق" ما هو أفضل من ذلك بحجة أن الفريق في وضع صعب في المباراة؟!

الفارق هنا بين التطبيق "الحرفي" للقانون باحتساب الخطأ وإلغاء الهدف أو

الأشهر "العمل حق.. العمل شرف.. العمل واجب".. وفيما غفلنا عن كل أجزاء الشعار تقريبًا فصرنا لا ننظر إلا إلى أوله وهو أن العمل "حق".. فنسمع مطالبات الشباب بالحصول على وظيفة وشكواهم أنهم يسعون إليها منذ سنوات.. لكننا نرى القليلين منهم من يرى بالفعل أنه "شرف" له.. فمعظمهم "ساخط" على عمله غير راضٍ عمًّا يجنيه منه.. حتى لو كان يفوق ما تسوغه له مؤهلاته أو قدراته.. وبالتالي لا يراه معظمهم "شرفًا" أفضل من البطالة أو التسكع.. أو المطالبة بزيادة في الأجور دون الاستعداد لأداء ما تدفع من أجله هذه الأجور.. أو الإيمان بأن الإخلاص فيه خطوة مقدمة على الشكوى من عائده.. أو أن التمسك بما يأمرنا به الدين من "إتقان" العمل قد يكون – وهو بالفعل كذلك – سبيل "البركة" في الرزق القليل.. ولا يتبعون فكرة "السعي" لتنمية الموهبة أو الترقي لمكان أعلى ذي مميزات أفضل!

* * *

يحدث هذا في مصر.. بينما لا يمكن أن ينقطع لاعب كرة قدم عن أداء دوره.. ويطالب مع ذلك بمكافأة الفوز أو يهمل في أداء دوره في الملعب بحجة أن مقابل تعاقده مع النادي الذي يلعب له ضعيف أو لا يرضي "طموحه" أو أن غيره يتقاضى أعلى منه.. الطريق الوحيد لزيادة العائد المادي هو التلميح به ثم التراضي في نهاية العقد.. وإلا انتقل إلى نادٍ آخر يقدره ويدفع له ما يتمناه.. وما يرى أنه

بعينها لمن تنطبق عليه شروطها.. واحترام هذا التشريع في انحيازنا لدولة القانون واجب لا يجب أن ننحرف عنه تحت أي ظرف..

لكن الأدعى هو مناقشة وجاهة التشريع في إطار الآلية المناسبة لذلك.. فيحال الأمر لمن بيده تعديل الميزات بما يتفق مع المصلحة العليا للعمل التي هي أوجب أن تسيطر على المشهد.. بدلاً من أن تحتله دعاوى العدل التي هي أقرب للحق المراد به باطل منها إلى الحق المجرد عن الهوى.. بل إن تلك المصلحة العليا للعمل – وبالتالي الوطن – إذا تلاقت مع الحفاظ على تمييز كل من بيده الموهبة أو الخبرة التي لا بديل لها ولا خيار عنها.. تأكدت بذلك ضرورة الإبقاء على هذا التمييز والمنح.. أيًا ما كانت صورهما كشرط محفز للجو التنافسي في العمل وكحافز للمصريين على العمل والاجتهاد فيه.. بشرط التأكد من خلو الأمر من المحسوبية أو "الكوسة" في الاختيار.. وتوافرت بذلك "آلية" لكل مجتهد يثبت جدارته في عمل ما للترقي إلى الطبقة الأعلى والشريحة المميزة..

أمر أخير نتمنى من مصر الثورة أن تستوعبه.. نقلاً أيضًا عن كرة القدم التي يغرم بها المصريون غير أنهم لا يستوعبون – فيما يبدو – ما تحمله إليهم من دروس.. هذا الأمر هو أن العمل يجب ألا يكون اختياريًا أو "حسب الظروف".. العمل لا تنفع فيه أعذار واهية.. مثل اضطراب المزاج أو قلة المرتب أو ضعف الحوافز.. فلقد عشنا سنوات طويلة في ظل شعارات جميلة لا نطبقها.. منها الشعار

هذه الادعاءات.. وثانيًا وجود كثير من اللغط حول أجور هؤلاء الخبراء الذين اتضح أنهم حلوا كبدلاء لخبراء سابقين كانوا يتقاضون فوق الـ200 مليون جنيه سنويًا.. حتى استبدل بهم البنك خبراء مصريين "شربوا الصنعة" من هؤلاء.. ولا يزيد ما يتقاضاه أي منهم على عشرين ألفًا من الجنيهات.. بل إن أداء البنك المركزي الرائع في أعقاب الثورة ونجاحه في الحفاظ على سعر العملة المصرية من الانهيار – وقد كانت مرشحة في ظل أزمة الاقتصاد وملامح انهيار البورصة للسقوط بعنف – يدعمان وجاهة التمسك بهؤلاء الخبراء وأن "الغالي تمنه فيه".. خاصة في ظل الاعتراض على "الغالي" من قبل من لا يستطيع الادعاء بقدرته على أداء عمله بالكفاءة نفسها.. ولا بالنتائج نفسها!!

* * *

الفوارق بين مثال حارس المرمى وخبير البنك كثيرة.. وأهم ما يتبادر إلى الذهن منها هو مدى المجاملة التي تدفع الحارس أو الخبير لموقع كل منهما.. وهو الادعاء الذي يصاحب الاعتراض على الأجور المرتفعة.. هذه المجاملة التي تنتفي في حالة اختيار حارس المرمى.. فكيف يمكن أن يلعب في هذا المركز الحساس بغير الخضوع لمعايير قاسية تتمركز دون شك حول الكفاءة الحقيقية؟ وإلا ظهرت آثار وخيمة لفشل أدائه على الفريق.. بينما تحوم شبهة المجاملة دائمًا على الجانب الآخر في حالة اختيار أي موظف أو خبير.. وعلى الرغم من أنها نقطة جديرة بالاهتمام فإن الأصل في المشكلة دائمًا هو "التشريع" الذي يسمح بأجر ما أو ميزة

الميزات والحماية اللتين يوفرهما القانون لحراس المرمى.. فليتجه للتدريب الشاق الذي يؤهله لذلك ويمنحه في النهاية هذه الوضعية المميزة في وجهة نظره! !

كذلك في مصر.. فليس كل من يتقاضى أجرًا عاليًا فاسدًا.. أو يأخذ أكثر من حقه.. وليس وجود أجور متدنية وأحوال معيشية صعبة لدى الكثيرين هو مدعاة لانتقاص قدر من يستحق العيش الميسور تقديرًا لمجهود أو خبرة يقدمهما لعلم لديه في عمله أو تميز اكتسبه بمجهوده وقدراته وسعيه الدءوب الذي ربما ينقص البعض الآخر ممن لا يتمتعون بمميزاته أو راتبه المرتفع.. هذه بالطبع ليست مدعاة لاحتقار الفقراء أو إنكار حقهم في مستوى رفع المعيشة.. لكنها بالقطع دعوة لاحترام خبرة وعلم من يستحق وعدم تجريم كل من بنى حياته بالاجتهاد والعزيمة.. فالقانون كما يقتنص حق المظلوم من يد الظالم يجب عليه أن يلتزم بأن تحمي آلياته النيل من الشريف الذي لا يتعارض شرفه واجتهاده مع تحقيقه مكاسب مشروعة وتمتعه بمميزات "حلال"..

أمثلة من ذلك حدثت في مصر كثيرًا.. فصار كل من يتقاضى أجرًا عاليًا يُتهم بالفساد أو يوصم به.. من ذلك اعتصام موظفي البنوك ضد كبار المديرين.. اعتراضًا على ارتفاع أجورهم واعتراضًا على أجور الصغار منهم.. ومع تحفظنا على شيوع مبدأ الخبراء في مصر كلها وفي مؤسسات الدولة بشكل زائد على الحد.. فإن أحاديث البرامج الفضائية مع طارق عامر – نائب البنك المركزي – أثبتت أولاً المبالغات في

لكن هناك تطبيقًا آخر إيجابيًّا للقانون.. والمثل التالي – أيضًا من كرة القدم – يوضح ذلك..

* * *

في كرة القدم.. وما دام اللعب غير متوقف يحرم على لاعبي الفريقين لمس كرة القدم باليد.. يستثنى من ذلك حارس المرمى في أي فريق..

ما قولك إذا خرج لاعب باعتراض أو طلع علينا الجمهور بهتاف يستنكر معه منع لمس الكرة باليد.. قائلين بالتعبير العامي البسيط: "اشمعنا حارس المرمى"؟!

ألا ترى معي أن هذا عبث؟ ألا نتفق معًا على أن القانون هو القانون؟ فقانون اللعبة يميز حارس المرمى لأنه يؤدي دورًا معينًا.. يقوم بوظيفة محدودة تتطلب مسوغات وضروريات القيام بها أن يمسك الكرة بيده.. وأن يتم "تمكينه" منها بهذا الشكل.. القانون هنا قرر ذلك.. بصرف النظر عن شخصية حارس معين ذي حيثية ما أو ذي نفوذ معين أو علاقة قرابة أو صداقة مع الحكم أو مع صاحب التشريع.. وأظن ذلك مفهوما.. أما إذا كان لاعب ما يريد أن يمسك الكرة باليد في أثناء اللعب فالطريق الوحيد لذلك برأيي هو أن يتلقى التدريب المناسب الذي يؤهله لحراسة المرمى.. وإذا كانت قدراته تسمح بذلك فليكن..

هذا بالطبع يفتح باب الاجتهاد والعمل لدى أي ناشئ إذا كان يريد هذه

بمعاقبة الفريق الذي يكتفي باللعب ويخرج من الملعب.. أو يحوله إلى مأدبة طعام.. وبين التطبيق "العاطفي" أو إلغاء تطبيق القانون بحجة التعاطف مع لاعب محبوب هو ما نحتاج إلى فهمه في مصر.. هو الخطأ الذي يقع فيه الجمهور المصري.. وما أحوجنا إلى التخلص منه..

* * *

ففي محاكمة مبارك ظهرت عشرات الدعاوى الإعلامية على ألسنة نجوم وإعلاميين ومواطنين بإلغاء هذه المحاكمة لأنه "ارحموا عزيز قوم ذل".. ولأنه رجل كبير في السن.. على الجانب الآخر نجد أن هذه النغمة المتعاطفة كانت دائمًا تتوجه ناحية الباعة الجائلين.. الذين ما إن تقترب دوريات الشرطة من جمع بضاعتهم حتى يفروا بـ"رأسمالهم" في ذعر.. وسط التعليقات المعتادة من الناس.. لا بد أنك سمعت بعضها من نوعية "يعني هم مفيش إلا الغلابة دول اللي جايين عليهم؟".. وتعجب من منطق البعض الذي ينكر على القانون أن يتم تطبيقه على أكبر "رأس" في الدولة مساواة مع الغلابة.. وتتساءل في دهشة عما يريد هؤلاء أن يكون.. لكنه غياب مرجعية دولة القانون كالعادة..

كان هذا هو التطبيق السلبي للقانون.. التطبيق الذي يهدف لمعاقبة المخطئ وإعادة الحق المسلوب حسب قانون واضح وصريح لا يعرف التفرقة أو التمييز.. وعدالة سريعة ناجزة..

يستحقه!!

بل إن الالتزام بالقانون من جانب المحكومين يكون كثيرًا المظلة التي تفتح باب إمكانية سد ثغراته.. بتعديل في التشريع أو تغيير للقانون إذا تم الدفع بتلك المشكلة في إطار سليم ومنظم ومنضبط..

في عام 1982 وفي مباريات كأس العالم أظهرت إحصائية أن حارس المرمى الإيطالي "دينو زوف" أضاع ست دقائق كاملة من وقت المباراة بشكل قانوني تمامًا.. فلم تضف الدقائق الضائعة للوقت الضائع.. يعيد الدافع الكرة للحارس.. يمسك بها.. ثم يلقي بها ويمشي بها داخل المنطقة حتى يقترب مهاجم الفريق الخصم فيمسك بها الحارس مرة أخرى.. ثم ينتظر ليبتعد المهاجم فيعيد المشي بها.. وهكذا!!

كانت هذه المباراة ذات أهمية خاصة.. فالمنافس كان "البرازيل" أفضل من لعب كرة القدم في التاريخ.. وبسبب "استهلاك الوقت" القانوني.. فازت إيطاليا 2/3 وأقصت البرازيليين من كأس العالم!!

أصدر اتحاد كرة القدم الدولي "الفيفا" بعد ذلك "قانونًا" يمنع المشي بالكرة أكثر من ست ثوان.. ويمنع إمساك الحارس بالكرة إذا أعادها المدافع إليه.. كان هذا هو الحل وليس أن تقوم كل الفرق الأخرى بتقليد الإيطاليين!!

في عام 1999 خسرت كرة القدم العالمية لاعبًا فذًا لإصابة مزمنة كنتيجة

لالتحام قوي.. كان فان باستن – اللاعب الهولندي الهداف – قد التحم مع منافس فانتهت حياته الكروية.. لم تقلد الفرق الأخرى هذا العنف.. استغلالاً لثغرات القانون.. لكن تقدم البعض باقتراح لتقنين العنف.. وبذلك أضيفت تشريعات تزيد من حالات الطرد وحماية اللاعبين في المباريات حفاظًا عليهم وعلى جمال و"عدل" اللعبة!

* * *

مشهد مجتمعي أتركك في تأمله.. ينتمي أصلاً لعالم "أطفال مصر"..

هل شاهدت من قبلُ أطفالاً يلعبون الكرة في الشارع؟

إنهم يركضون في حماس ويلعبون في جدية.. لكن قبل اللعب هناك مرحلة "التقسيمة" الشهيرة.. وفيها يتم تصنيف اللاعبين إلى فريقين بأنظمة مختلفة.. أشهر هذه الأنظمة هو أن تجرى قرعة لمن من الفريقين يبدأ بالاختيار.. ثم يختار كل فريق لاعبًا ويتبعه الفريق الآخر.. حتى ينتهي العدد بالتساوي.. لكن "صاحب الكورة" يكون غالبًا على رأس فريق من الاثنين..

"صاحب الكورة" لا يمكن أن يلعب إلا مهاجماً.. لا يدافع ولا يقف حارسًا للمرمى أبدًا.. فكلها مراكز غير جذابة وغير محببة..

"صاحب الكورة" له ميزات كثيرة.. فيمكن أن يفلت من العقاب أو الخشونة.. ويا ويل اللاعبين لو غضب منهم أو تعرض للعنف في الالتحام مع

أحدهم.. هنا يأتي المشهد الأشهر: يقول قولته المؤسفة: "مش لاعب".. وقد يتحجج بأسباب خارجة عن ارادته أو أكبر منه: "ماما بتنده عليا" .. أو: "بابا جه ولازم نتعشى معاه" .. بينما يعرف الأولاد أن كل هذا غير صحيح وهو فقط جزء من "القمصة" .. وفي النهاية فإنه يتأبط كرته في غضب وحسم ويذهب إلى منزله وسط استعطافات الأولاد الباقين ألا يغضب.

ومن نافلة القول: إن المشهد لا يقتصر على عالم الأطفال.. كثير منا يلخص اعتراضه في مبدأ "مش لاعب" إذا لم يعجبه القانون.. ومن نافلته أيضًا: إننا شبعنا من "صاحب الكورة" في مصر وإن الالتزام بالقانون مهما كان الشخص هو ما ننشده ونتمناه وأنه ليس هناك من يستحق أن يدعي لنفسه أنه "أولى" بالثورة أو بمكتسباتها ويتم من أجله تعطيل القانون.. وإلا فهو "مش لاعب".. لأنه "صاحب الكورة".. لولاه ما لعبنا.. أو لولاه لما كانت المباراة.. المباراة التي هي أكبر من أي شخص أو أي جهة.. "الكورة" التي "صاحبها" الأصلي هو الوطن.. الذي هو بالتالي أولى من أي شيء.. وكل شيء..

* * *

كما في كرة القدم.. كما في مصر..

يحتاج القانون إلى "حكم" عادل.. وفيه ثقة من الجماهير التي تثق في قراره..

قانون يحمي الضعفاء ويعيد إليهم حقهم.. كما يحمي الأقوياء الذين

اكتسبوا ميزاتهم بمواهبهم وجهدهم اللذين "يحتميان ويلتزمان" بالقانون ليكونوا أمثالاً للغير وللطامحين إلى الارتقاء.. لكنه في الوقت نفسه يحتاج إلى قوة مهابة قادرة على تطبيقه في وجه من يفهمون القانون بشكل عاطفي.. أو من يحبون أن يستلقوا في الشمس للتمتع بدفئها ثم يطلبوا من الجماهير أن تتعاطف معهم.. نريد دولة حازمة قوية تستطيع إعلاء القانون على المفاهيم الخاطئة للعدل.. كما تقتص من الفاسدين في الوقت نفسه وتدفع بالعمل للأمام.. لأنه من دون ذلك فلن تسجل مصر أهدافًا!!

من دون ذلك.. من دون سيادة العدالة وهيبة القانون.. فسوف تعاني مصر عدم قدرتها على النهضة وعلى التغيير.. وسيشتعل الصراع بين الذين يريدون تفعيل شرعية الثورة في تطبيق النهضة وآلياتها على الأرض.. وصراع آخر مع الذين ينتهزون حالة الثورة لتطبيق القانون من منظورهم هم.. لا من منظور تحقيق العدالة المجرد ولا من منظور دعم قيم الاجتهاد والعمل المرغوب.. ولكن من منطلق الانتهازية وقاعدة "اشمعنا" وحجة العدالة.. التي لا تفقد وجودها بسبب هذه الممارسات فحسب.. لكنها – ويا للهول – تصبح حقًّا.. يراد به باطل!!

الخاتمة الأولى

عن الفتور الثوري والمستقبل

صديقي المتحمس الذي لا يترك مجلسًا لنا إلا ويتحدث عن الثورة ومستجدات الأحداث.. والذي انخرط في السياسة وانضم لأحد الأحزاب الشابة وبدأ لأول مرة في حياته يتحدث في عمق السياسة ويناقش أوضاع البلاد باهتمام.. كان شعلة حماس في مجالسنا التي ضمت الكثير ممن يشبهونه حماسًا.. كان البعض منا يتفرغ لمشاهدة البرامج السياسية.. والآخر يتابع مقالات كبار الكتاب.. والأكثرية كانت تصب اهتمامها في تحليل المستجدات المجتمعية التي كنا نلهث وراءها فلا نلاحقها إلا بالكاد..

فوجئت به وقد أصابه الاكتئاب.. رفض الحديث عن أي شيء له علاقة بالثورة.. وبدأت تعليقاته تنصب مرة أخرى - كعهدنا به - على نتائج مباريات كرة القدم (وهو الذي لم يكن يبالي بنتائج فريقه في الآونة الأخيرة بعد يناير).. وأفلام السينما الجديدة.. وبدأت تعليقاته في التراوح - في الـ"فيس بوك" - بين إلقاء

النكات الجديدة ونشر مقاطع من المسرحيات القديمة أو أغاني عبد الحليم حافظ.. بينما اختلفت تعليقات الآخرين ممن يشبهونه بين تسجيلات الأفلام الكوميدية أو إعلانات ضاحكة.. كما حضر بعضنا عرضًا لفيلم "شارع الهرم" الذي عُرض في عيد الفطر المبارك في 2011!!

أنيميا الثورة.. التي ميزها اللغط في كل شيء.. والإحباط لبطء التغيير مع فكر "الانتقالية" في الحكومة.. وانعدام الثقة في قدرة الثورة على التغيير.. والخوف من الغد.. بدلاً من الأمل فيه.. والانشغال بمشاكل جديدة كالأمن وارتفاع الأسعار.. كلها أعادت الناس إلى حالة "الفتور الوطني" السابقة للثورة.. التي صار يطلق عليها "الفتور الثوري"..

وسط التشكيك في نية الثورة أو سلامة مقصدها.. ودور المجلس العسكري ووجاهة إطلاق لفظة "الشهداء" على ضحايا الثورة.. وبين تأجيل المحاكمات ثم بدئها ثم دراما الشهود.. وبين المليونيات وضجيجها وزخمها.. وبين الدستور والانتخابات.. وجد الناس أنفسهم أمام حقيقة محتملة: أنهم "عشموا" أنفسهم بحدوث تغيير سريع للأفضل.. وأن ذلك إما أنه يحتاج لوقت طويل.. وإما أنه لن يحدث!!

هكذا وقع المصريون ضحية لتوقعاتهم المتسرعة.. ولأزمات الفكر والسلوك والضمير من بعضهم.. ولصراع السلطة الذي جاء مقدما على الصراع "من أجل

الوطن".. فصار صراعًا "على الوطن"!!

كيف نستطيع أن نحول الفتور الثوري إلى حماس نحو بناء المستقبل؟

الإصلاح الإعلامي يبدو لا غنى عنه لإصلاح أزمة الشخصية المصرية.. التي تهدد نجاح ثورة الإصلاح.. تجميع قلوب وعقول المصريين في صورة هدف واحد بتفعيل المشروعات القومية حبيسة الأدراج.. تفعيل دولة القانون بمفهومها الإيجابي الذي يشجع العمل ويكافئ الاجتهاد والتميز ويوظف ذلك كله في مصلحة الوطن.. وأخيرًا: الاهتمام بالكرامة الداخلية للمصريين بتحسين مستوى وكفاءة خدمات المصالح الحكومية والخدمات العامة.. والكرامة الخارجية باعتماد نظرية "الندية".. ووضوح المواقف السياسية التي ترضي توجهات الشارع.. هذا ننتظره من الثورة..

وهذه هي أكياس الدم التي تنقل الحياة مرة أخرى وتضخ الأمل في شرايين ثورة يناير.. وهي روشتة علاج الأنيميا..

ألا قد بلغت.. اللهم فاشهد!!

لماذا أنا متفائل؟

حتى لو هبط أداء الثورة وفتر حماس أبنائها.. حتى لو جاء البرلمان عشوائيًّا وغير مثالي.. حتى لو ارتعشت الحكومة وعمت الفوضى الجزئية.. حتى لو كان الفارق بين حلم الخامس والعشرين من يناير في وطن عظيم وبين ما يعانيه الوطن من اضطراب بوصلته وضبابية رؤيته..

أنا متفائل!!

تفاؤلي ليس "خيارًا".. "خيار" من لا يملك أن يتشاءم.. هذا أمر عظيم وكلام ذو قيمة فاعلة حقيقية: "نحن بالفعل لا نمتلك خيار التشاؤم".. فالسعي للتوافق والتمسك بجوهر الحق و"تطويل النفس" أو الصبر على تحقيق أهداف الثورة بتعقل.. والجهر بقول الحق والتمسك بالمطالب وليس أنصافها.. وإعلاء صوت الضمير والسلوك والفكر القويم.. ذلك كله يبدو "اختيارًا" للتفاؤل.. وهو كله أمر لا غبار عليه ولا غنى عنه أيضًا..

* * *

ربما يطول الوقت أو يقصر.. لكننا سوف نصل بإذن الله لمصر التي نحلم بها ونقرأ عنها في كتب التاريخ..

مصر التي سوف نعيدها نحن لهذه الكتب.. في صدارتها وصفحات المجد فيها..

* * *

لكن تفاؤلي ليس "خيارًا"..

تفاؤلي ليس "سياسة" أبغي منها التمسك بالأمل ومواصلة العمل.. بينما ضميري مثقل بالتشاؤم والخطة "ب".. إذا فشلت الخطة "أ"..

تفاؤلي حقيقي..

ولكن.. لماذا أنا متفائل؟

لأن شرارة الثورة وإصرار الجماهير عليها أثبتا أننا شعب عظيم قادر فعلاً على التغيير..

لأن الناس كانوا يتحركون معًا بذكاء فطري.. في مواقف شديدة الإرباك.. يبدعون تلقائيًّا في التنظيم والحراسة والتخطيط.. باستغلال المتاح في تحقيق المباح..

لأن كل من نزل إلى الميدان كانوا يحسون ويحكون عن قدرة إلهية شعروا بها في مواجهة قوات الأمن المركزي.. مدد إلهي ساعدهم في المقاومة والصمود.. والنجاة..

لأن الجموع كانت تستلهم القوة من الله في دعائها وصلاتها..

لأن الله كتب لثورتنا النجاح.. وفي بلاد من حولنا كانت ثورتهم إيذانًا بعهد من الحيرة والتشتت والفوضى حتى أصبحت الثورة هناك حالات مستمرة من محاولة التغيير والسعي وراء هدف لا يجيء..

ولأن الله عندما كتب على مصر سبع سنوات عجاف من الغذاء والأمطار في عصر "عزيز مصر".. لم يرسل إليها طعامًا ولم ينزل عليها أمطارًا.. لكنه أرسل إليها "نبيًّا" يُعنى بشئونها ويجنب أهلها وبال المجاعة ويتولى شئون حكمها الرشيد بدلاً من الفرعون!!

لذلك كله.. أنا متفائل!!

والله من وراء القصد وهو يهدي سواء السبيل!!

الفهرس

* * *



ثورة تقفيل مصري

عن أنيميا ثورة يناير

فكما أظهرت "ثورة يناير" أفضل ما في الشعب المصري من نبل وتضحية ووعي جماهيري رائع ورفض للظلم.. كذلك جاءت فترة ما بعد الثورة لتكشف عن أزمات الفكر والسلوك والضمير لدى المصريين.. التي نجحت - ضمن عوامل أخرى - في إصابة الثورة بالأنيميا أو فقر الدم.. فأصبحت الثورة كأنها "منتج" عظيم "على الورق".. لكنه ساعة "التقفيل" فقد الكثير من كمال أدائه المنتظر.. وصارت "ثورة.. تقفيل مصري"..



د. أحمد يوسف شاهين

أستاذ مساعد بكلية الطب جامعة أسيوط .. حاصل على الزمالة الألمانية، وعدة جوائز عالمية في مجال أمراض النساء والولادة والعقم.

له أكثر من عشرين بحث دولي منشور في دوريات عالمية متخصصة .. له كتاب سابق عن الثورة المصرية بعنوان (خلع ضرس مصر - تأملات في مقدمات وتفاعلات الثورة) وهذا هو كتابه الثاني.

